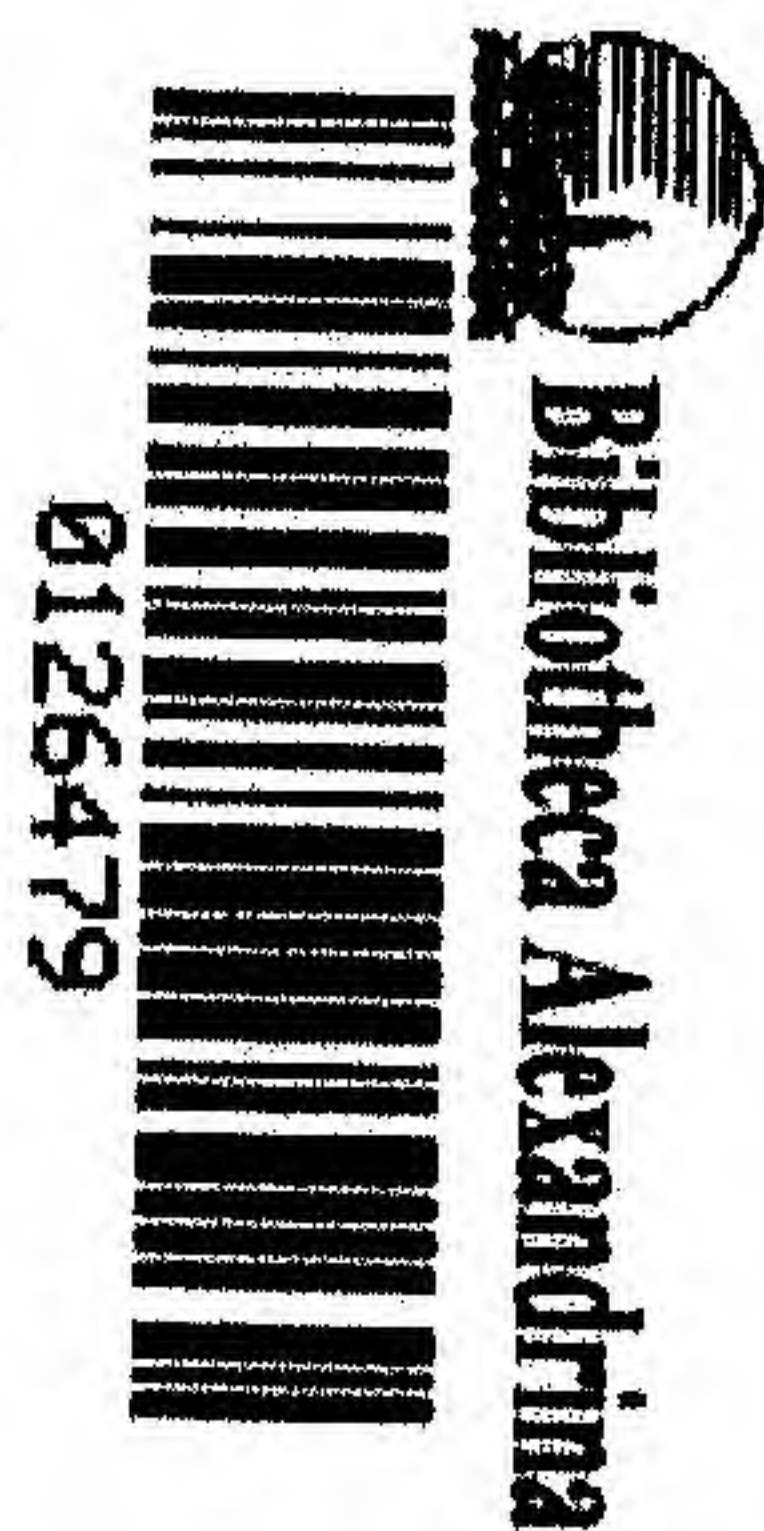


الموازين بين الشعراء

تأليف
د. زكي مبارك

دار الجيعة
بيروت





٨٨٨

٨٨٨

892-710

09

حبا

م

الموازين بين الشعراء

10

١٥٩٣٩

المهنة العامة مكتبة الاسكندرية	
رقم القيد	٨٩٢, ٩١٥
الاسم	د. زكي مبارك
رقم التسجيل	٤٠٩٥٤

الموازنة بين الشعراء

عبد

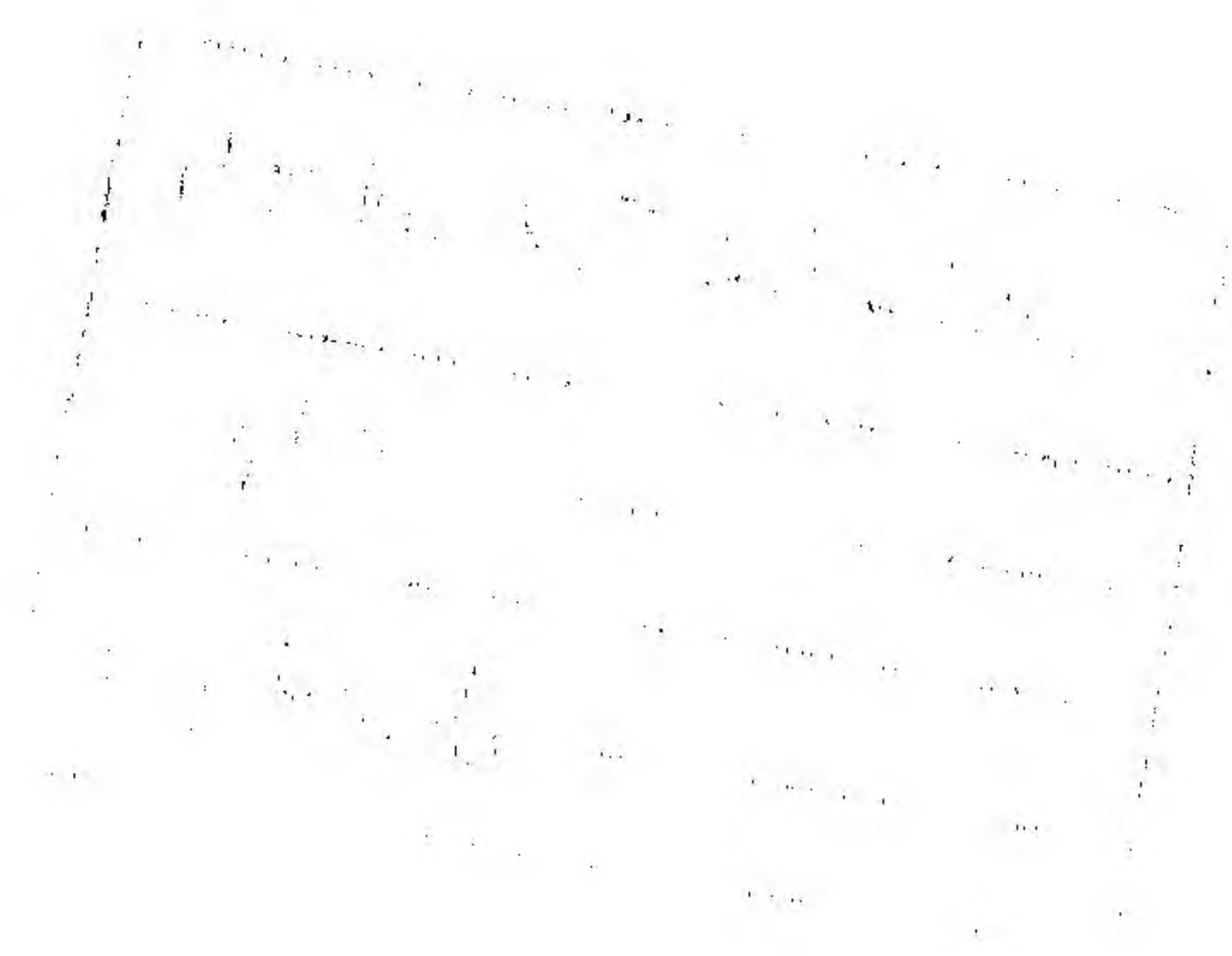


د. زكي مبارك

٨٩٢, ٩١٥
م. ب. ١
م

دار الحديث

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد : فهذا كتاب « الموازنة بين الشعراء » أقدمه مرة ثانية إلى المنصفين من أهل الأدب والبيان، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة منذ سنين، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفذوا نسخ الطبعة الأولى في أقل من سنتين وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عدداً من السنين.

أقدم إلى القراء هذا الكتاب، وما أنكر أني به مفتون، فقد أنشأت فصوله، وأنا في غاية من عافية الذوق، وشباب القلب، وعنفوان الروح. فجاء مجدول الحقائق، مصقول الأضاليل، وفي الأدب الحق هدىً وضلال وربما كان من الخير أن أنبه القارئ إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت في ربيع سنة ١٩٢٥، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة — وهو نحو مائتي صفحة — انشئ في ربيع سنة ١٩٣٦ فبين التليد والطريف من فصول هذا الكتاب عشر سنين، ولست أدري أي العنصرين أقوى وأجزل، وإن كنت أعلم علم اليقين أني كنت في العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق، ومن أزهدهم في اللغو والفضول.

هذا كتابي أقدمه يميني. وأنت يا رباه — تباركت وتعاليت — تعلم أنني
خدمت به لغة القرآن. ولم يبق غيرك — يا رباه — مَنْ أنتظر منه حُسْنَ الجَزَاءِ.
(وَكَفَى بِاللّٰهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّٰهِ نَصِيرًا)

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الأول

أهواء النقاد

— ١ —

فُطِرَ الناس على حُبِّ المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين ظهر الشعر، وتَبَارَى في قرضه الشعراء.

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان : فهي تتطلب قوة في الأدب، وبصراً بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام.

وقد كَلَفَ الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد : فوازنوا بين امرئ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى في الجاهلية، وبين جرير، والفرزدق، والأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نؤاس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبُحتري في الدولة العباسية، وكذلك عُقِدَت الموازونات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى

العصر الذي نعيش فيه، والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدّمهم، أو عاصرهم من الشعراء.

ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدّوا قديماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصرٌ واحد، أو اشتركا في الإبانة عن غرضٍ واحد، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس.

ونسيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذي يرشّح نفسه للموازنة، وأن نميز الوحدة الأدبية التي يرجع إليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعاني، واختيار الألفاظ.

— ٢ —

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عُليا في فهم الأدب، وأن يُصبح وله في النقد حاسة فنيّة تنأى به عما يُفسد حكمه من الأهواء والأغراض التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء. فقد نجد من الناس من يطرب للشعر، لا لأنه شعر، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية، أفُيعتبر هذا الإعجاب دليلاً على حُسن ما استَحَسَنَه هذا الذي تشبّعت نفسه بغرضٍ خاص ؟

— ٣ —

ومن هنا نستطيع غضّ النظر عن أحكام المتأدبين الذين يُفضّلون القديم مطلقاً على الجديد، بحيث يرون الجديد نوعاً من الهُراء، أو يفضلون الجديد مطلقاً على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود، وإنما نغضّ النظر عن أحكام

هؤلاء لأن التشيع للقديم أو الجديد صرّفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية التي تطرب للجيد الممتع من ثروة القدماء والمحدثين.

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال : وما أكثر ما نرى ونسمع عن حفاظ اللغة وجلّة الرواة ممن يُلَهَّجُ بعيب المتأخرين، أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختار، فاذا نُسِبَ لبعض أهل عصره وشعره زمانه، كذب نفسه، ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً، وأقل مرزاً من التسليم بفضيلة لمحدث، والإقرار بالإحسان لمؤلّد، وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هَلْ إِلَى نَظَرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَيَبْلُ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيلُ
إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ

فقال : هذا والله الديباج الخسروائي ! ولمن تشدني ؟ فقلت إنهما ليلتهما.
فقال : لاجرم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر !

ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خلف الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية، لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم جعلهم يُسيغون أكثر ما أضيف إلى القدماء من ألوان الكلام ! !

— ٤ —

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تتسم بسمة الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع : كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سُكينة بين الشعراء، وليس بصحيح ما ذكره أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية : من أن السيدة سُكينة كانت ترى فضل الشعر في الصدق، والرفق، وجميل الأحداث، استناداً إلى الحديث الذي نقله صاحب الأغاني، فسيرى القارئ أن نقد السيدة سُكينة متأثر بالعطف على المرأة، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية.

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية، ولكنه يظل قيماً في نظر الأديب الفنان.

وأنا أشرك القارئ في الحكم على ذلك الحديث. ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافة السيدة سُكينة جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب، فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت :
أيكم الفرزدق ؟ فقال، هأنذا. فقالت : أنت القائل :

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْحَطَّ بَازُ اقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهُ^(١)
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ بِالْأَرْضِ قَالَتَا أَجِيَّ يُرَجِّي أُمَّ قَتِيلٍ نَحَازِرُهُ
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأُمْرَاسَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَأَقْبَلْتُ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ أَبَادِرُهُ^(٢)
أَبَادِرُ بَوَابِينَ قَدْ وُكِّلَا بِنَا وَأَحْمَرُ مِنْ سَاجٍ تَبْصُ مَسَامِرُهُ^(٣)

قال : نعم ! قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم جرير ؟ قال : هأنذا. قالت : أنت القائل :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقَتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
تُجْرِي السُّوَاكُ عَلَى أَغْرٍ كَانَهُ بَرْدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونٍ غَمَامٍ
قال : نعم ! قالت : أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيفٌ وفيك ضعف ! خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم كثير ؟ فقال : هأنذا؛ فقالت : أنت القائل :

(١) البازي : ضرب من الصقور.

(٢) الأمراس : الحبال.

(٣) تبص : تلمع.

وَأَعْجَبَنِي يَا عَزُّ مِنْكَ خَلَائِقُ كِرَامٌ إِذَا عُدَّ الْخَلَائِقُ أَرْبَعُ
دُنُوكُ حَتَّى يَدْفَعَ الْجَاهِلُ الصَّبَا وَدَفْعُكَ أَسْبَابَ الْمُنَى حِينَ يَطْمَعُ
فَوَاللَّهِ مَا يَدْرِي كَرِيمٌ مُمَاطِلٌ أَيْنَسَاكِ إِذْ بَاعَدْتَ أَوْ يَتَّصِدُّعُ

قال : نعم ! قالت : مُلِحْتَ وَشَكِلْتَ ! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نُصِيب ؟ قال : هأنذا. قالت :
أنت القائل :

وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصِيبُ لَقُلْتُ بِنَفْسِي النِّشَاءُ الصُّغَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَشَاهَا إِذَا ظَلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَا انْتِصَارُ

قال : نعم، فقالت : ربيتنا صغاراً، ومدحتنا كباراً ! خذ هذه الألف والحق
بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ! مولاتي تُقَرِّئُكَ السَّلام
وتقول لك : والله ما زلتُ مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنُ لَيْلَةً بِوَادِي الْقُرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ^(١)
يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أَرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ

جَعَلْتَ حَدِيثَنَا بَشَاشَةً وَقَتْلَانَا شُهَدَاءَ ! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينه لم تهتم ولم تحرص إلا
على أخلاق الأدباء، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان أحوَجهم إليه — كما ذكر
أستاذنا المهدي — وإنما هو حديثٌ صريحٌ في الإبانة عن حرص السيدة سكينه
على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا ترى كيف أعقبت على قول جرير :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقَتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلامٍ

(١) وادي القرى : هو واد بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء.

إنها قالت له : أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يجمل بالشاعر أن يأخذ بيدها، وأن يقول لها ما يقال لمثلها فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف، وفيك ضعف » أما والله إني لأحب أن يُعفيني القارئ من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون !.

وقد رضيت السيدة سكينه عن تلك الفتاة اللعوب، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه، ويُسخر لصباه، وتنفر حتى تتقطع بالغوي أسباب المنى والمطامع والتي لا تزال تلعب حتى يُغلب الحب على أمره، فما يدري أيُصدِف وينسى، أم يُسمي وهو مُتيم مجروح الفؤاد.

وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية، فلم تذكر إلا أنه ملح وشكل^(١)، وأنه بلغ بذلك غاية البيان.

وما الذي أعجبها في شعر نصيب ؟ أعجبها أنه ربّاهنّ صغاراً، ومدحهنّ كباراً ! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس، والدفاع عن النوع، ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهنّ بشاشة وقتلاهنّ شهداء !

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُيْنَهُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً في شعره. ألا تراها رَضِيَتْ بما رَضِيَ الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع سلامة محبوبته، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفزع ويُروّع حين فزعت ورُوعت من أجله صاحبته ؟

(١) شكل على وزن فرح : من الشكل بالكسر، وهو رقة الغزل.

ونستطيع أيضاً أن لا نبالي بأحكام المتأدين الذين يخضعون لغير الفكرة الأدبية : كالفقهاء والمتصوفة، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العُرف، والمألوف، والمستحسن من خصال الناس، فقد قيل لعُمرو بن عُبيد : ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيبك. فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد، والنهي عن الغي، والتنفير من طاعة الهوى. مع أن من الكلام ما يهوي بصاحبه إلى أعماق الجحيم، وهو في الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان.

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة وشعره)، ثم قال بلهجة جدية : لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم بفصل في النهي عن العبث بالنساء (١)

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية، وأريد النزعة الدينية الصرفة التي تخلو من النفحة الشعرية، ومن ذلك ما حدثوا أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلاً بِالَّذِينَ وَالنَّاسُ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ

فغضب لذلك ولوى وَجْهَهُ مع أن هذا البيت يُصَوِّر مطامع كثير من النفوس التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه، ولكن نفس المأمون الوثابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة.

قلت لك : إن الشعر قد يُسائر الأغراض الدينية، وتبقى له حين تغلب فيه

تلك النزعة قيمته الفنية، وعندي لهذا شاهدٌ بديع، وهو قول بعض
في ذم جماعة من عبید الراح :

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمْو لَمْ يُنْكِرِ الْكَلْبُ أَنِّي ضَا
لَكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحَ الْمِسْكِ يَفْغَمُنِي وَعَنْبَرُ الْهَنْدِ أَذْكِيهِ ع
فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ رِيحِي حِينَ أَبْصَرَنِي وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ الزُّ

فهذا نهى عن الخمر، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابر
وَدَعَ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ
لأن هذا ينقصه ما يُبنى عليه الشعر من رائع الخيال.

وأحب أن لا ينسى القارئ أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق، فإ
نقول، على أني قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر الب
معه نظرية « الفن للفن » لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلا
الأذواق^(١).

(١) عرض المؤلف لهذه النظرية في كتاب « النثر الفني ».

البحث الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارئ في الكلمة الماضية أنه يجب أن لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد : كالتعصب لتقديم أو الجديد، والتشيع بالأفكار الدينية، أو الصوفية، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء.

والآن أسير مع القارئ في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء.

— ١ —

لا ينكر أحد أن ابن الرومي كان من الشعراء الفحول، والشاعر أبصر بالشعر من سواه، فلحكمه قيمة خاصة تفوق أحكام المتأدين من رجال اللغة والرواية، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر، وكان في حكمه من الخاطئين، وإليك البيان :

كان ابن الرومي مُسرفاً في التطير، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه

على ثقب في خشب الباب فتقع على جار له كان نازلاً بإزائه، وكان أحذب،
يقعد كل يوم على بابه، فاذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال : لا يُفتح الباب !
فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن يُشرف مَنْ فيه على الهلاك ! وعلم معاصروه
بافراطه في التطير، فأقبل عليه أحدهم وأنشده :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُؤْذِنُ صَرْفُهُ
بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَوَطَّنْتُهَا عَلَى
رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا
فَأَيَّامُهُ مَخْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
فَخَذْ خِلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ
وَكُنْ حَذِيراً مَنْ كَامَنَاتِ الْعَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكْرَ الْفَالِ وَالزَّجْرِ وَأَطْرَحْ
تَطْيِيرَ جَارٍ أَوْ تَقَاوُلَ صَاحِبِ

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه، ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ
هذه الأبيات.

أفيحسب القارئ أن مثل هذه القطعة — وهي وَسَطٌ في ألفاظها ومعانيها —
كانت تشغل مثل ابن الرومي، وتظفر باحتلال قلبه، لولا بغضه للتطير، وملله
من تلك الوسوسة التي كدّرت عليه موارد الحياة ؟

إن الناقد مفروضٌ فيه البرء من جميع الأغراض، لأن النقد نوع من القضاء،
فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيرت حكمه طُعْمَةً للظنون، وسواء في ذلك
الأفكار الدينية، والنزعات الجنسية، والاتجاهات العقلية التي تصبغ التفكير بلون
خاص.

إن الشعر الوَسطَ قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعد له النفس، ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوَسط إلى منزلة الشعر الجيد، ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رَهْطِهِ وطمع في أن تلد له غلاماً، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرّ بخبائها بعد حول، وإذا هي تُرقص ابنتها، وهي تقول :

مَا لِأَبِي حَمَزَةٍ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانِ أَنَّ لَا نَلِدَ الْبَيْنَا تَاللهَ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالزَّرْعِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء، فقبلها وقبل ابنتها، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبياتٌ عادية في ألفاظها ومعانيها، ولكن لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه، وراضته بعد جُمُوحه : رجلٌ ينزع قلبه بالرغم منه إلى زوجه وأبنته، والشرارة الضئيلة كافيةٌ لاحتراق الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات، وإنما هي شاهدٌ « على ضرب من المعاملات، وعلى أحوال الاجتماع، وعلى ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق »^(١). وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس، وصُور العقول.

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها لفكرة قومية، أو حزبية، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدروا للفصل بين شعراء الأحزاب،

(١) كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦.

وإنك لتجد أمثلة ذلك مشورةً هُنا وهناك : حين ترجع للعصور التي اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية، وحين تُراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد.

وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده :

نَفْسِي فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا	أَبْدَى النَّوَاجِدَ يَوْمَ عَارِمٍ ذَكَرُ ^(١)
الْخَائِضُ الْعَمْرَةَ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ	خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ
فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعَصِمُونَ بِهَا	مَا إِنْ يُوَارَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
حُشْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أَنْفٌ	إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
لَا يَسْتَقِيلُ ذَوُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمْ	وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوَرُ
شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ	وَأَوْسَعُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ^(٢)
هُمْ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا	قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا
بَنِي أُمَيَّةَ نِعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ	تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدَرُ

أقول : لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال : أأنادي في الناس أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية، فقد كان الأخطل سليل اللسان، خبيث الهجاء، وكان عبد الملك قد استعان به على لدع من يُناوئه من رجال السياسة وشُعراء الأحزاب، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه، وكان ما رَوَوْا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خبز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملامحه نشوة الصهباء، مع أن عبد الملك خليفة المسلمين، والدين في عنفوانه، والناس على نصره حِراس، ولكن السياسة، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتَّاب

(١) العارم : الشديد، والنواجذ : الأنياب.

(٢) شمس : جمع شمس، وهو الصعب المراس.

وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس !.

ولو أن ابن رشيق تنبّه لهذا الغرض لما ظنّ أن المسلمين سكتوا عن الأخطل لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الإسلامية حين قال :
وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعاً وَلَسْتُ بِأَكِيلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَنَساً بُكُوراً إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ (١)
وَلَسْتُ مُنَادِيّاً أَبَدًا بَلِيلٍ كَمِثْلِ الْغَيْرِ حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شُمُولاً وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ (٢)

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه، ولذلك قال « ومن الفحول المتأخرين الأخطل، واسمه غياث ابن غوث، وكان نصرانياً من تغلب، بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادى عبد الملك بن مروان وأركبه ظهر جرير بن عطية الخطفي، وهو تقي مسلم ». ثم قال : « وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبّب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبي سفيان، وقيل بل بأخته هند بنت معاوية، ولولا شعره لُقِلَ دون أقلّ من ذلك، وقد ردّ على جرير أقبح ردّ، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم، مالا ينجو مع مثله علويّ فضلاً عن نصرانيّ ».

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره، ولكنّ دفاعه عن بني أمية، وهجاءه لخصومهم، كانا سبباً في تعصب الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء.

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثّر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثّر شعر منصور التميمي ولكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر، ولا العلم للعلم، وإنما

(١) العنس : الناقة الصلبة.

(٢) الشمول : هي الخمر التي تعصف بالعقل كما تعصف بالنبات ريح الشمال.

يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت الثميري من الرشيد، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الخطوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العباس وأهله ومنافرتة لآل علي بن أبي طالب، فقد ذكروا أنه قال في تسفيهم هذه الأبيات :

بني حَسَنٍ وَقُلْ لِبَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ مِنَ الْأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنْكُمْو كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَاماً يَعِدُنَ عِدَاتِ زُورِ
تُسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَئِي مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ فِي سَطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾. ويذكرون أن الرشيد قال له : ما عَدَوْتَ ما في نفسي ثم أمره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب، كما قال صاحب زهر الآداب، مع أن للآية وجهاً غير هذا الوجه، وتأويلاً غير هذا التأويل.

ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله :

أَلِ النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْو يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ^(١)
أَمِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَمَنْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ^(٢)
إِلَّا مَصَالِيَتْ يَنْصُرُونَهُمْو بِظُبَا الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الذُّبْلِ^(٣)

لما بلغ الرشيد هذا القول أمر بقتله. فمضى الرسول فوجده قد مات. فقال الرشيد : لقد هَمَمْتُ أَنْ أَبْشَ عِظَامَهُ فَأَحْرَقَهَا!^(٤)

(١) يتطامنون : يسكنون.

(٢) الأزل : الشدة.

(٣) المصاليات : جمع مصلت، وهو المقدام، والقنا الذبل : هي الظمء إلى الدم، والمفرد ذابل، ويجمع أيضاً على ذوابل.

(٤) في كتاب : « المدائح النبوية في الأدب العربي ». فصل مطول عن إخلاص بعض الشعراء في حب أهل البيت.

وأنا أكتفي بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنّة حين تسيطر عليه حزبية، أو قومية، ولولا أني أعرف في شعراء العصر ضيق الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم في مُسَايَرَةِ الأحزاب، خوفاً من النقد والموازنة تحت وَحْي الأغراض، ولهم العذر في هذا الدهاء، فإن الأمة التي تكاد تصدّق أكثر ما يقال، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم في الصحف التي لا تعرف الفرق بني الشخصية الأدبية، والشخصية السياسية، فقد أكون عدوك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذي أناصره، وأكون في الوقت نفسه نصيرك كعالم أو أديب، أو فنان.

البحث الثالث

أنفس الشعراء

— ١ —

قد رَأَيْتَ أن الموازنة نوعٌ من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن ما يقول، فإن الشاعر إنما يؤدي « رسالته » إلى جيل خاص في قُطر خاص، ومن التحكم أن تُطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتدوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروق، وهو لم يعك معك ولا لك، وإنما خضع في شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان. وقد رأيتُ من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبوبته، وقد نال منها العفاء :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً فَلَأْيَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ^(١)

(١) لأياً عرفتُها، وعرفتُها بعد لأي : أي بعد مشقة، وهو تعبير جاهلي لم يحيه في العصر الحديث إلا المنفلوطي رحمه الله. والحجة : السنة

وهو يرى أن هذا وصف ضئيل للدُّروس والعفاء، وذلك غفلة ظاهرة فإن
منازل الأعراب تغفو وتدرس في أقل من عشرين سنة، فكيف يطلب لدروسها
عشرات العقود؟

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :
بَانتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَثْبُولُ
مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
إِلَّا أَغْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وذلك أن هذه القصيدة أنشئت في حضرة النبي عليه السلام، فمن الأدب
أن لا تبدأ بالنسيب، وهذا أيضاً خطأ لأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد
العربية المستملحة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك حتى يُنسب كعب إلى ما هو
منه براء.

— ٢ —

وكان الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يَفْضُلُ قول أبي نواس :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوها وَأَدْلَجُوا	بَهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَرَّاسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى	وَأَضْعَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ	وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ	حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَاتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا	مَهَا تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
فَلِلْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا	وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر، فقال « فصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة
لا هذا المعنى، فانه لا كبير كلفة فيه لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات
تصاوير فحكها في شعره، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة، فإن

هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيراً، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلائس التي على رؤوسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر».

فانظر كيف صَغُرَتْ قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان : « حكاية حال مشاهدة البصر ». مع أنه إنما عَظُمَ لذلك في عين الجاحظ.

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينية :
وَلَوْ أَنَّنِي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّمَا ذَكَرْتُكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبٌ^(١).

واستند في إنكاره إلى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية، وأنه قال هذه الكلمة العذبة، قبل أن يوجد التكلف في الفقه، وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء !

ومن النقاد من فضّل قول مسلم بن الوليد :
تَظَلَّمُ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءِ ظَلَامًا

واستقبح قول أبي نواس :
بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
استناداً إلى أن المال لا صوت له. وهذا أيضاً خطأ : لأن أبا نواس قريب العهد بمال الأعراب، ومال الأعراب ناطق، وطالما اضطربت الإبل لسكّين الجزار عند قدوم الضيفان.

— ٣ —

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يُعْنَى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

(١) ابن الدمينية : شاعر رقيق النسب، وهو صاحب هذا البيت النفيس :
ولاني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر الغيب منك رقيب

فقد أنكروا على شوقي قوله :

ارْفَعِي السُّتْرَ وَحَيِّ بِالْجَبِينِ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحَ الْمُبِينِ
وَقِفِّي الْهُودَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينَ
وَأَتْرِكِي فَضْلَ زِمَامِيهِ لَنَا نَتَنَاوَبُ نَحْنُ وَالرُّوحُ الْأَمِينُ

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي الهودج في ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم...

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محبوب :

لَكُمْ فِي الْخُطِّ سَيَّارَهُ حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَةِ

واستخفوا كلمة : « حديث الجار والجاره ». وفاتهم أن الدكتور محبوب يسكن في حيٍّ قد لا يعرف أهله غير الخيل، والبغال، والحمير !

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم :

أَمْشِي يُرْنَحْنِي الْأَسَى وَالْبُؤْسُ تَرْيِيحُ الشَّرَابِ

لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظاً يرى هذه المناظر في الصباح والمساء^(١).

واستضعفوا قول مطران في رثاء اسماعيل صبري :

شُهْبٌ تَبِينُ فَمَا تَوُوبُ فَكَأَنَّهَا حَبَبٌ يَذُوبُ
أَرَأَيْتَ فِي كَأْسِ الطَّلَا دُرّاً وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُوَ ذَاكَ فِي لُجِّ الدُّجَى طَفُو الدَّرَارِي وَالرُّسُوبُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا فِيمَا يُنُوبُ

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبيب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب، بالحبيب حين يذوب، ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه الممراح.

(١) عاتبنا حافظ رحمه الله على هذا التأويل.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور :
 ضَرَبُوا الْقَبَابَ عَلَى الشَّبَابِ وَثَوَّوْا إِلَى يَوْمِ الْحَسَابِ
 هَمَّادُوا وَكُلُّ مُحَرِّكٍ يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي التُّرَابِ
 نَزَلُوا عَلَى ذَنْبِ الْبَلَى فَتَضَيَّفُوا شَرَّ الذُّنَابِ
 وَكَانَهُمْ صَرَعَى كَرَى بِالْقَاعِ أَوْ صَرَعَى شَرَابِ
 فَإِذَا صَحَّوْا وَتَنَبَّهُوْا فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَنَابِ

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية :

مَا أَنْتِ يَادُنْيَا أَرُؤِيَا نَائِمٍ ؟ أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ ؟ أَمْ بِسَاطِ سُلَافِ
 نَعْمَاؤُكَ الرَّيْحَانُ إِلَّا أَنَّهُ مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقِيعَ زُعَافِ

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال :
 أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزُورَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنَبِ
 فقال له زدني، فأنشده :

كَأَنَّ آذَرِيُونَهَا غَبَّ سَمَاءٍ هَامِيَةٍ
 مَدَاهُنَّ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فصاح : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام :

وَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِي الْجُنُوبِ مَطَارِفًا مِنْ الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
 يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ عَلَى أَحْمَرَ فِي أَصْفَرٍ إِثْرَ مُبَيَضٍّ

كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلِ
مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

وقولي في صانع الرِّقاق :

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَّازًا مَرَرْتُ بِهِ
يَدْحُو الرِّقَاقَةَ مِثْلَ اللَّحْمِ لِلْبَصْرِ
مَا يَبْنِ رُؤُوتَهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةً
وَيَبْنِ رُؤُوتَهَا قَوْرَاءَ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنْدَاخُ دَائِرَةً
فِي لُجَّةِ الْمَاءِ يُلْقَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع تشبيه الآذريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدّم ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فإن السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتاحت لكل من الشاعرين ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن تعتمد على الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

— ٤ —

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية، لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدويّ في بداوته أشعر من الحضريّ في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح السّموم في مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته :

فَتَاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ الْعَبِيرِ بِفِيهَا يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجِيلُ

بأقل من قول الشريف الرضي :

يَبْسِمُنْ عَنْ بَرْدِ الْفَحَامِ وَبُرْدِهِ رَيَّانَ يُغَبِّقُ بِالْمُدَامِ وَيُصْبَحُ

ولا يفضلهما من قال : « كأني ألتقط من فيها حبَّ الرمان ». لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغضَّ النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تُعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حبَّ الرمان، أحلى ما تُعطر به الشاي في الحاضرة، ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه :

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلوَدِّ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جاسي اللفظ بادي الخيال، لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية، وهي روح البيان، ثم أسكنه قصراً من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة، فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها :

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجَسْرِ

جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي

أَعْدَنَ لِي الشَّوْقُ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ

سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدَنَ جَهْرًا عَلَى جَمْرِ

سَلِمَنْ وَأَسْلَمَنْ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا

تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ^(١)

نَخِيلِي مَا أَحْلَى الْهَوَى وَأَمَرُهُ

وَأَعْرَفَنِي بِالْحُلُوِّ مِنْهُ وَبِالْمُرِّ

بِمَا بَيَّنَّا مِنْ حُرْمَةٍ هَلْ عَلِمْتُمَا

أَرْقَ مِنْ الشُّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

(١) المثقفة السمر : هي الرماح.

والخلاصة أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية، ويفاضل بين بصيرة وبصيرة، ويقارن بين إدراك وإدراك، بغضّ النظر عن الفروق الموضوعية التي يقضي بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور. وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة، ولكنها ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه : بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، لَيْسْبُرَ كما قلت، أغوار نفسه، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء.

البحث الرابع

شعراء الأحزاب

— ١ —

ويجب على الناقد حين يُوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف، وعلى الأخص إذا مرّت حياتهما في غمرة من الغمرات الدينية، أو فتنة من الفتن السياسية، فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب، وثنائهما من الحزب المغلوب، ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع، وتُبقي العصبية الحزينة على ماترك شاعر الأكثرية من الغث والسمين، والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية : وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعثة والخلافة الراشدة، استناداً إلى ندرة ما روي من شعر ذلك العهد، وقلة مَنْ عُرِفَ فيه من الشعراء.

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة إلى الشعر والشعراء لتريشوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس، فقد كان الشعر في زمن البعثة قوياً وغزيراً، وكان الشعراء في كثرة وعزّة، ولكن النبي عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيّه، فعمد إلى إخفات صوتهم، وكان ما أراد.

فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني عن سبب نزول هذه الآية :
﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أذكر أن عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت قالوا: يا
رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أننا شعراء، هلكنّا ! فأنزل الله :
﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا ﴾ .

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم^(١).

ومعنى ذلك أن الشعر لا يُذمّ إلا إن أعدت به حملة على النبوة، وإلا فقد
روي أن النبي عليه السلام قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟
فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال : اُحْدُ ! فجعل يُنشدُ ويُصغي
إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده، فقال عليه
السلام : لهذا أشدّ عليهم من وقع النبل، وروي أيضاً أنه قال له : اهجهم ! فوالله
لهجاؤك أشدّ عليهم من وقع السهام، في غلّس الظلام ! وكذلك كان حسان يقول
لأهل مكة :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا	تَثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ ^(٢)
يُنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَاتٍ	عَلَى أَكْتَفِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ ^(٣)
تَظِلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتٍ	تَلْطُمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النِّسَاءُ ^(٤)
فَإِذَا تُعْرِضُوا عَنَّا آعْتَمَرْنَا	وَكَانَ الْفَتْحُ وَأَنْكَشَفَ الْغَطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ	يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا	هُمُ الْأَنْصَارُ عَرْضَتُهَا اللَّقَاءُ ^(٥)

(١) راجع أسباب النزول.

(٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب.

(٣) الأسل : الرماح، ومفردها أسلة، والأعنة جمع عنان، وهو اللجام.

(٤) متمطرات : مسرعات، وتلطمهن النساء : تمسح ما عليهن من الغبار.

(٥) العرضة بالضم : الهمة.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ
فَنُحَكِّمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا
وَجَبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا
أَلَا أُبَلِّغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ
وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ
مُغْلَغَلَةٌ فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ^(١)
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ
فَيُشْرِكُكُمْ لَخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ

ولما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لأنها تمثل خصومة ذلك العهد
أصدق تمثيل، فليس عندي شك في أنه كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء
الرسول، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حُسن القول
وظُلْمة الارتياب، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول :
فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَا ظَهَرْتُمْو عَلَيْنَا وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذَهَبُ

ولكن رأى النبي أن يقضي قضاء مُبرماً على من عارضه من شعراء قريش،
وشعراء اليهود : لأن الدين في نفسه أعزّ من أن يُهادن أعداءه أو يفتّر عن حرب
خصومه من الشعراء، وكذلك بادّ وانقرض ما ترك حزب المعارضة لذلك العهد
من الآثار الأدبية والفنية، وما خلف من الآراء الفلسفية والاجتماعية، وأصبحنا
لا نعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غير ما رواه المسلمون، وهم لا يروون
بالطبع إلا ما فيه للإسلام نصر وتأيد، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع
لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة، لم تلوّنها الأغراض والأهواء، وأقول :
الأغراض والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة
للأهواء الجامحة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام
من الوجهة الروحية، والعقلية والاجتماعية.

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطماً الأركان، مهتّم

(١) المغلغلة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد.

الجوانب، وأن العقول كانت خلّت من روعة الإيمان، ثم جاء الإسلام، فلم يجد غير أنقاض من الهمم، وأطلال من العزائم، وخرائب من العقول والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة العقلية، لترى كيف تقارعت الحجج، وتصارفت البراهين، ولترى كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال :

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسَنَةِ حِدَادٍ ﴾. وبعنف الخصومة حين قال: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾. وبسحر البيان حين قال: ﴿ أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾. وبشدة المكر حين قال : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾. وبرجاحة العقل حين قال : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾.

— ٢ —

ونعود فنذكر أن الحملة التي وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لَدَدِ شعراء اليهود، وتَوَثَّبِ شعراء المشركين، أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بُغْضِ الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً ! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان — وقد قال قوم : إنها تنقض الوضوء — فقال :

نُبْتُ أَنْ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ثم قام فأمّ الناس !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأنشد :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بَنَا هَمِيسَا إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَبْكَ لَمِيسَا

وقال : إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة !

ثم جرى على السنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين، فرأيناهم

يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر في فقهك وورعك ؟
فأجاب : لا بُدَّ للمصدور أن ينفث !

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة :
شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكَ فَلْتَأَمَّ الْفُطُورُ
تَغْلَغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ
تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَتْلَعْ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَتْلَعْ سُرُورُ

ورأيانهم يزعمون أن الإمام الشافعي قال :
وَلَوْلَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْسٍ
ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس
من الأمور ذوات البال !

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الفقهاء من قول الغزالي : « وأما الشعر فكلام
حَسَنَ حَسَنٍ وقبيحه قبيح ». وهذا كله من أثر الحملة التي وجهت إلى الشعر
والشعراء.

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الإنسان منذ عهد بعيد،
والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بُدٌّ من حياة الفنون، وكذلك نهضوا داعين
إلى رواية الشعر وإجازة الشعراء، ولكنهم لم يدعوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل،
وإنما دعوا إليه باسم الدين، فقالوا : إن النبي كان يرتجز بقول ابن رواحة، وقد
أصيبَتْ إصبعه في إحدى المواقع :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ
وحبروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء : فنسبوا لأبي
بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها :

أَمِنْ طَيْفٍ سَلَمَى بِالرَّمَاكِ الدَّمَائِثِ أَرِقْتَ أَوْ أَمَرٍ فِي الْعَشِيرَةِ حَدِيثِ
ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات، ونسبوا إلى علي طائفة من
القصائد، ونقل الفيروزآبادي عن المازني وصوبه الرمخشري أنه لم يصح

أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين :
تِلْكُمْ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِي لِتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمْ بِذَاتِ وَدَقَيْنٍ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

وقال ابن رشيق بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة :
« وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة والغناء حلة الشعر إن لم يلبسها طويت، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به ».

وحسب الشعر هواناً أن تقول إنه مباح !
أفترى بعد هذا البيان أن مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلاً وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره، ولكن هات ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة، ولنصل بها إلى علم اليقين، فقلما تنفع الظنون.

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا تخطيت عهد النبوة، وانحدرت إلى عهد بني أمية، أو عصر بني العباس : هناك ترحم نفسك من التوغل في بידاء الضلال، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية، وشعراء الأمويين في عصر بني العباس، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية، ومنازعتهم السياسية، وأكتفي الآن بمثال واحد، ولو شئت لضربت لك عشرات الأمثال :

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه إلى دمشق قد وجد في حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأبيات :

أَيَا مَنْزِلًا بِالْدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِيًا تَلَاعَبُ فِيهِ شَمَالٌ وَدُبُورُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْكُنْكَ بِيضٌ أَوْانِسُ وَلَمْ تَتَبَخَّرْ فِي فِنَائِكَ حُورُ
وَأَبْنَاءُ أُمْلَاكِ عَبَاشِمُ سَادَةٌ صَغِيرُهُمْ عِنْدَ الْأَنَامِ كَبِيرُ

إِذَا لَبَسُوا أَذْرَاعَهُمْ فَعَنَابِسٌ
 عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ ضَرَاغِمٌ
 لِيَالِي هِشَامٍ بِالرُّصَافَةِ قَاطِنٌ
 إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالْخِلَافَةُ لَذَنَةٌ
 وَرَوْضُكَ مُرْتَضٌ وَنُورُكَ نَيْرٌ
 بَلَى فَسَقَاكَ اللَّهُ صَوَّبَ سَحَابٌ
 تَذَكَّرْتُ قَوْمِي خَالِيًا فَبَكَيْتُهُمْ
 لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمْ
 فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ
 رُوَيْدَكَ إِنَّ الْيَوْمَ يَتَّبَعُهُ غَدٌ
 وَإِنْ لَبَسُوا تَيَجَانَهُمْ فَبُدُورٌ^(١)
 وَأَنَّهُمْ يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورٌ
 وَفِيكَ آبْنُهُ يَا دَيْرٌ وَهُوَ أَمِيرٌ
 وَأَنْتَ طَرِيرٌ وَالزَّمَانُ غَرِيرٌ
 وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرٌ
 عَلَيْكَ بِهَا بَعْدَ الرَّوَّاحِ بُكُورٌ
 بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرٌ
 لَهُمْ بِأَلْتِي تَهْوَى النَّفُوسُ يَدُورٌ
 وَيُطْلَقُ مَنْ ضَيْقِ الْوَثَاقِ أُسِيرٌ
 وَإِنْ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراي وسأله عنها، فأنكر
 أن يكون علم من كتبها، فهُمَّ بقتله، فسأله الندماء فيه، وقالوا : ليس ممن يتهم
 بميل إلى دولة دون دولة. فتركه. ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد روح
 ابن زنباع الجذامي من أنحوال ولد هاشم بن عبد الملك.

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب، وتهدمت صروح من
 الآداب بما ضاع من الشعر السياسي فيما خلا من العصور، وكلنا يذكر ما لقي
 شعراء البرامكة من عنف الرشيد.

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما
 من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريباً من الصواب، فقد رأينا كيف تطمس
 القوة معالم الشعر البليغ.

(١) العنابس : الأسود.

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف : إن الموازنة نوع من القضاء، والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحكم أن يُنَزَّه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يرى نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء.

فإذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر عليه الحاسة الفنية، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع، وأنست في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الأدب أيضاً رسوم وتقاليد — فتقدم إلى الموازنة، وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين.

وأنا ذاكر لك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

جمعني ورجلين من مشايخ البصرة، ومن يؤبه إليه في علم الشعر، مجلس بعض

الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيته للبحثري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحثري إنحاءً أسرفت فيه، واقتدحت زناد الرجال : فتكلم وتكلمت، وخضنا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوت في جميعها غلوّاً شهده جميع من حضر، وخضنا في أفانين في المجلس، وكانوا جِلَّةَ الوقت وأعيان الفضل، فاضطُرُّ إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يبتدىء، ولا أن يخرج، ولا أن يختم، ولو لم يكن للبحثري عليه من الفضل إلا حسن ابتدائه، ولطف خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقع التسليم له، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجدّة ؟

ثم أقبل عليّ فقال : أين يُذهَبُ بك عن ابتدائه :
 عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبُّرُبُّ حَتَّى أَضَاءَ الْأَقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ^(١)
 وَأَخْضَرَ مَوْشِي الْبُرُودِ وَقَدْ بَدَأَ مِنْهُنَّ دِيْبَاجُ الْخُدُودِ الْمُذْهَبُ
 وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول :

أَدَارَهُمُ الْأُولَى بَدَارَةَ جُلْجُلٍ سَقَاكِ الْحَيَا رِيْحَانُهُ وَبَوَاكِرُهُ
 وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَاءَهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

وأنى لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :
 إِلَيْكَ الْقَوَافِي نَازِعَاتٍ شَوَارِدًا يُسَيِّرُ ضَافِي وَشِيْهَا وَيُنْمَنِمُ
 وَمُشْرِقَةً فِي النَّظْمِ غُرًّا يَزِيدُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا أَنَّهَُا لَكَ تُنْظَمُ
 وقوله في هذا المعنى :

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ أَقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا
 ثَنَاءً تَخَالُ الرُّوْضَ فِيهِ مُنَوَّرًا ضُحًى وَتَخَالُ الْوَشْيَ فِيهِ مُنْمَمًا
 ولقد تقدم البحثري الناس كلهم في قوله :

(١) الأشنب : من الشنب بفتحين، وهو برد ورقة وعذوبة في الأسنان.

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاوراة التي وضعت في الموازنة بين أبي تمام والبحثري، وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارئ إلى اختبار « نفسية » الحاتمي صاحب هذا الحديث، فانا نجده يذكر أنه كان يعلم عصبية مناظره للبحثري، وتفضيله إياه أبي تمام، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحثري ليقترح زناد خصمه وأنه غلا في المماثلة غلوّاً شهده جميع من حضر، وأنه اضطرّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء، ولا الخروج، ولا الانتهاء، إلى آخر ما قال.

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة، وهي مصحوبة بهذا العمد، ومسبوبة بذلك الإصرار؟ ثم قال: « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه، وكان الجماعة أعجبهم ذلك عصبية عليّ لا على أبي تمام، لأنني كنت كالشّجا معترضاً في لهواتهم، وأسرّ كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومئذ به إلى استيلاء الوجل عليّ، فلما استتم كلامه، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعِّقُ له بالحصي، أو تفرع له العصا، لا إله إلا الله! استنتت الفصال حتى القرعى! هل هذه إلاّ عَوَانٌ مفرعة، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْكِ نضارها، وافتضاض أبكارها: وجرى البحثري على وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها. »

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين، وإنما هي مُقارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه، وأن يفوز بإعجاب الحاضرين، ألا ترى كيف فطن الحاتمي إلى رضا الجماعة عن فوز البحثري، وأن ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام، وكيف أسرّ كل واحد منهم إلى صاحبه مشيراً إلى استيلاء الوجل عليه، ثم انظر كيف غضب وكيف ثار: ل ترى أنه لم يغضب للحق، وإنما غضب لنفسه ولم ينتصر للأدب، وإنما انتصر لهواه.

ثم اندفع يذكر أن قول البحثري في صفة الغيث مخاطباً الدار:
وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَّاهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

مأخوذ من قول أبي تمام :

وَبُيُوتُهَا فِي الْقَلْبِ نُؤْيُ شَفَّهُ
وَكَاثِمًا آسْتَسْقَى لَهْنٌ مُحَمَّدٌ
وَلَهُ بِظَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلِّفِ
مِنْ سَوْمِهِنَّ مِنَ الْحَيَا فِي زُخْرَفِ

وأن البحري أخذ قوله :

لَوْ أَنَّ مَشْتَقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا
فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

من قول أبي تمام الذي تقدم فيه كل
دِيمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نُعْمَى
أحد لفظاً رقيقاً ومعنى دقيقاً :
مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيدُ

وأن قوله في صفة القوافي :

يُسِيرُ ضَافِي وَشَيْهَا وَيُنْمَنُ

وقوله في صفتها :

ثَنَاءٌ تَخَالُ الرُّوضِ فِيهِ مُنَوَّرًا
ضَحَى وَتَخَالُ الْوَشْيِ فِيهِ مُنْمَنًا

إنما أخذه من قول أبي تمام :

حَلُّوا بِهَا عُقْدَ التَّسِيمِ وَنَمْنَمُوا
مِنْ وَشْيِهَا ثَرًا لَهَا وَقَصِيدَا

ومن قوله الذي أبدع فيه :

وَاللَّهُ لَا أَنْفَكُ أَهْدَى شَوَارِدًا
تَخَالُ بِهِ بُرْدًا عَلَيْكَ مُحَبَّرًا
أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبُ نَفْحَةً
أَخَفُّ عَلَى قَلْبِي وَأَثْقَلُ قِيمَةً
إِلَيْكَ تَحْمَلُنَ الثَّنَاءَ الْمُبَجَّلَا
وَتَحْسِبُهُ عُقْدًا عَلَيْكَ مَفْصَلَا
مِنَ الْمِسْكِ مَفْتُوتًا وَأَيْسَرَ مَحْمَلَا
وَأَقْصَرَ فِي قَلْبِ الْجَلِيسِ وَأَطْوَلَا

وأن قول البحري :

هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمًا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء إحسانه حيث يقول :

أَصْبَحَ تَسْتَمِعُ حُرَّ الْقَوَافِي فَإِنَّهَا
وَلَا يُمَكِّنُ الْإِخْلَاقُ مِنْهَا فَإِنَّمَا
كَوَاكِبُ إِلَّا أَنَّهُنَّ سُعُودُ
يَلْدُ لِبَاسُ الْبُرْدِ وَهُوَ جَدِيدُ

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الحاتمي أنه قال لمناظره :
 « فهذه خصال صاحبك فيما عدّته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره،
 ونشرت مطويّ أسرارهِ. حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة،
 ووديعة منتزعة ».

والعناد ظاهر في هذا الكلام.
 ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته، ونماذج من حسن تخلصه،
 ولطف اقتضابه، وبراعة وصفه للقوافي، فاستحسن ابتداءه إذ قال :

لا أنت أنت ولا الديار ديارُ خَفَّ الهوى وتَقَضَّتْ الأوطارُ
 وزعم أن لن يستطيع أحد أن يتدّى بمثل ابتداءه حيث يقول :

وحيث يقول :
 ما في وقوفك ساعة من باسِ
 فَلَعلَّ عينك أن تجودَ بدمعها
 تَقْضي حُقوقَ الأربَعِ الأُدْراسِ
 والدَّمْعُ مِنْهُ خاذِلٌ ومُواسِي

واستملح اقتضابه حين قال :
 الحقُّ أبلجُ والسُّيوفُ عَوارِ
 فَحذارِ مِنْ أَسَدِ العَرينِ حَذارِ

واستجاد تخلصه إذ يقول :
 إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا
 فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا
 أَقْوَاتَهَا لِتَصْرِفِ الْأُخْرَاسِ
 وَبَنُو الرِّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ
 فِيهِمْ وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِي
 الْقَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أَسْكَنَ دِينَهُ

وزعم أن أبا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطيع أحد وصفها به فقال :
 جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ
 سِمْطَانِ فِيهَا اللُّلُؤُ الْمَكْنُونُ
 إِنْسِيَّةٌ وَحَشِيَّةٌ كَثُرَتْ بِهَا
 حَرَكَاتُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَهِيَ سُكُونُ
 يَنْبُوغُهَا خَضِلٌ وَحَلِي قَرِيضُهَا
 حَلِي الْهَدَى وَنَسِيغُهَا مَوْضُونُ

قَدْ حَاكَهَا صَنَعُ الضَّمِيرِ يَمُدُّهُ حَسَبٌ إِذَا نَضَبَ الْكَلَامُ
أَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ أَبْكَارٌ إِذَا نُصَّتْ وَلَكِنَّ الْقَوَافِي ع

هذا أهم ما ورد في حديث الحاتمي، وهو طويل ذكره برمته صاحب الآداب، والذي يعنيني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحري والإلحاح على كبت منافسه، وظهوره عليه، وظفره به، وانظر كيف يقول في ختام الحديث: «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا، أو شيئاً منه إلى الاختلاس؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحري، أو أحد المحدثين في عصره، من قبله؟ فعي عن الجواب قصوراً، وأحجم المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينه عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع الـ على جمع المحدثين، وكان يوماً مشهوداً»^(١).

— ٢ —

وهذا النوع من النقد لا قيمة له، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور مناهج القدماء، فقد كان بشار يقول: أنا أشعر الناس، فإذا سُئِلَ في ذلك بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر، ومن ثمة اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس. وكانوا يختلفون في الموازنة بين والفرزدق، ثم يفضلون جريراً لأنه قال:

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَ
غِيْظُنَ مِنْ عَبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَ

فإذا سألتهم كيف سما جريراً بهذين البيتين حتى بدَّ الفرزدق؟ أجابوك الفرزدق في فسوقه وفجوره، لم يُجدِ التشبيب كما أجاده جرير في تحرجه وع

(١) ومع هذا التحامل كان الحاتمي من أئمة النقد الأدبي. انظر ما كتب عنه بالجزء الثاني كتاب «النثر الفني» لثري قيمة هذا الناقد، وتعرف ما له وما عليه.

وقد يقولون : جرير أشعر لأن الفرزدق ماتت امرأته فلم ييكها إلا برائية جرير في امرأته، وهي القصيدة التي مطلعها :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَا جَنِي أَسْتَعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وكانوا إذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذُكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ

وقالوا : إنه بكى واستبكى وذكر الأحبة في بيت واحد ! !

وقدم آخرون النابغة الذبياني لقوله :

نُبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
أو لقوله :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ

ومنها من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار :

أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَ عَيْنِي لَكَ وَأَخْشَى مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ

وأن أحكم بيت قاله العرب قول أبي ذؤيب الهذلي :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

— ٣ —

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر والنثر غير ذلك المنهج الذي يركز على تأمل الشطرة في نقد الشعر، والفقرة في نقد النثر، ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فتراهم يُعَنُونَ حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه في استعمال الألفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم والوضع الجديد. وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء، فلم يجد وجهاً لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ، فرد عليه الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ، فحافظ إبراهيم مخطيء في

نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة، وهو مصيب في نظر علام سلامة لقربه من المعجم !

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة، والفقرة، واللفظة، لا يقدم ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء، فلا يمكن أن تصبح الخطبة، أو الرسالة، أو القصيدة جيدة : لأن ألفاظها جميعاً مختارة، ولا أن تسمي سقيمة لأن فيها ألفاظاً نابية، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يُعنى به الكاتب، والشاعر، والخطيب، وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية : « الصور الشعرية ». وحين أتكلم عن إعجاز القرآن.

وأرجو أن يكون القارئ اقتنع بما بينته من عقم تلك الطريقة التي تركز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء، فإن كان في ريب مما أسلفناه فليُجب على هذا السؤال : أيرضيه أن أقول إن شوقي أشعر الناس لقوله :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

ومطران أشعر الناس لقوله :

بنات الدهر عوجي لا تهابي خلا الوادي من الأسد الغضاب

وحافظ أشعر الناس لقوله :

عملتم على عزّ الجمادِ وذلنا فأغليتمو طيناً وأرخصتمو دماً

إنك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطبة المبهمة، لأنها تبيح لمثلي أن يزعم أنه أشعر الناس لأنه يقول :

بقية من صباك الغض بقية وجذوة من غرامي وقدها باقي
تعال نحي شهيد اللهو ثانية ونصرع الهم بين الكاس والساقبي

البحث السادس

الحاسة الفنية

— ١ —

هذا تعبيرٌ حديث يقابل : « سلامة الذوق ». أو : « الذوق السليم ». في عُرف المتقدمين، والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة مالا نجده في التعبير القديم، وهي ترجمة لكلمة sens التي يُراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز، أو قوة الإدراك، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة : « الذوق ». فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن، وقد تكون عبارة عن الميل الخاص.

وقد بينا في البحث الأول : أنه يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر، بل لأنه طَرَق موضوعاً يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه، أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية، ثم ضربنا لذلك الأمثال.

والآن نعود إلى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل : فنذكر كيف عَوَّل عليها

المتقدمون من رجال البيان، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنال، ثم نميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة، التي لا تظهر ظهوراً جلياً إلا حين تمعن في الخفاء.

— ٢ —

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وأن الدربة والإدمان أجدي على القارئ نفعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وأنهما يُريانه الخير عياناً، ويجعلان عسره من القول إمكاناً، وكل جارحة منه قلباً ولساناً ». ويقول لقارئ كتابه « فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطأك، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً، ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال »^(١).

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تُورث القارئ « الذوق » ولا تمنحه « الحاسة الفنية ». وإنما يُكسب ذلك بالدربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذوق له : كما لا ينفع السيف من لا قلب له. وَإِنَّمَا يَتْلُغُ الْإِنْسَانُ طاقته مَا كُلُّ مَا شِئَ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ^(٢)

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والتذوق لجمال القول وسحر البيان. أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال — كما يفعل رجال اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية، وهذا أبو العباس المبرد كان في عمله واطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فُلثة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا يجد

(١) ص ٣ من المثل السائر.

(٢) الشمال : الناقة الخفيفة.

سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان.... ولا سبب لذلك فيما نرى إلا أن المبرد لم يعنَ بدرس أسرار البلاغة، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية، والنحو، والتصريف. ومن هنا لم يحسن الاختيار.

قال الجاحظ: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت، لا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات.

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسرهُ ابن رشيق، وقد بينت لك أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان، لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء، لا من طريق النقل، والفرق بين الوجهتين بعيد، ومن ثمَّ كان الكتاب: «أرق الناس في الشعر طبعاً، وأملحهم تصنيفاً، وأحلامهم ألفاظاً وأطفهم معاني، وأقدرهم على التصرف، وأبعدهم من التكلف»^(١). وكانوا يرونهم دهاقين الكلام، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين، كقول إبراهيم بن العباس الصولي:

ابْتَدَأَ بِالتَّجَنُّي	وَأَقْتَضَاءَ بِالتَّظَنُّي
وَأَشْتَفَاءَ بِتَجَنِّي	لَكَ لِأَعْدَائِكَ مِنِّي
بِأَبِي قُلْ لِي لِكَيِّ أَعْ	لَمْ لِمَ أَعْرِضْتَ عَنِّي
قَدْ تَمَنَّى ذَاكَ أَعْدَا	ئِي فَقَدْ نَالُوا التَّمَنِّي

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات:

قَامَ بِقَلْبِي وَقَعْدُ	لَمَّا نَفَى عَنِّي الْجَلْدُ
يَا صَاحِبَ الْقَصْرِ الَّذِي	أَشْهَرَ عَيْنِي وَرَقْدُ
وَاعْطَشِي إِلَيَّ فَمِ	يُمِجُّ خُمُراً مِنْ بَرْدُ
إِنْ قُسِمَ النَّاسُ فَحَسْبُ	بِي بِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدُ

(١) عبارة صاحب «العمدة» في أشعار الكتاب.

وكقول ابن رشيق :

قَدْ أَحْكَمْتُ مِنْي التَّجَا	رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ جُودِي
أَبْدًا أَقُولُ لِمَنْ كَسَبُ	تُ لَا تُقِضَنَّ يَدَيَّ شَدِيدِ
حَتَّى إِذَا أَثَرَيْتُ عُذْ	تُ إِلَى السَّمَاحَةِ مَنْ جَدِيدِ
إِنَّ الْمُقَامَ يُمَثِّلُ حَا	لِي لَا يَتِمُّ مَعَ الْقُعُودِ
لَا بُدَّ لِي مِنْ رَحْلَةٍ	تُذْنِي مِنَ الْأَمَلِ الْبُعِيدِ

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي يقول : « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح، ولا يجول في ميدان فسيح من المعاني، ولا يقدر الأشياء قدرها، إلا بالمقارنات الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً غير مزعزع ولا مدافع ».

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب)، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هي المقابلة بين المعاني والألفاظ، والمقارنة بين المفردات والأساليب، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب، ويدنيه من الفهم الصحيح.

— ٣ —

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال، ومع هذا يدّعيها جميع الناس، وإنما كانت عزيزة المنال، لأننا نزن بها البيان، والبيان كالجمال كثير التعقيد. ألا ترى أنك لا تعتدّ برأي من يحسب البياض نصف الحسن، ويرى تمام الصباحة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس، والذي يُعرف بتناسب الأعضاء، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخاذة التي يَهْش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال. أما الجمال المعقد — وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق،

وهذا النوع من الصبابة لا يرجع إلى فتنه الحدود، وسحر العيون، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك، يرجع إلى دقائق من الحسن، وغرائب من الملاحظة، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال.

حدثني بربك كم في هذه « الأعداد » التي تراها في طريقك ممن يتذوق جمال اللفتة، والخطرة، والمشية ؟، وكم فيهم ممن يتخطى سواد العين، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز والغاز، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد ! ! وكم فيهم يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا عَجُوزًا وَمَنْ يُحِبُّ عَجُوزًا يُفْنَدُ
كِبَرُ الْيَمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرُقَعَتْهُ مَا شِئْتَ فِي الْعَيْنِ وَالْيَدِ

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخصري حين قال :

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَزِيدَتْ مَلَاَحَةً وَحُسْنًا عَلَى النَّسْوَانِ أَمْ لَيْسَ لِي عَقْلُ

وهو الذي صدق في وصفه أبو نواس إذ يقول :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وكذلك البيان يا صاح فيه مُعَقَّد وبسيط. أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس كقول طرفة بن العبد :

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وكقول لبيد :

إِلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

وكقول شوقي :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير، كقوله

تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ : وكقوله عز شأنه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . وكقوله تبارك اسمه : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يُسْتَعْدَم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود، وما إلى ذلك مما تُحدد به العلاقات بين الأمم والأفراد، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل فيه : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » . والذي قيل فيه : « شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا : الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ » . وفي الناس من يفتنه إشراق الديباجة، وتخلبه رشاقة الأسلوب كما يسحره الجبين المشرق، ويضله القدر الرشيق.

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني، فلست أريد اللبس والغموض المعقد، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم، والأسلوب الجميل، قوة في التأثير يحار في تعليلها اللبيب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول ؟ .

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة فبصر فيها بالنبي عليه السلام، وهو إذ ذاك غلام مراهق، فقال لمن حضر من القوم : إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لبوءة، وتارة بعيني عذراء خفيرة، فلو أن نظرته الأولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم ! هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفس، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يُعَقَّد إِلَّا حين تُعَقَّد النفس، والنفس لا تُعَقَّد إِلَّا حين تصبح كالبحر تصطبغ فيه الأمواج، أو كالמידان تشتجر فيه الرماح أو كالقلب تقتل فيه الأشجان،

ومن يُدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل... فما نظن أن صواحباته قطعن أيديهن، وعذرنا فيه امرأة العزيز : لأسالة خدّه، وسواد شعره، وإشراق جبينه، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تُضمّر ما تضمّر من دقائق الغيوب، تلك النفس الجبارة السّحّارة، القهارّة، تلك النفس المفردة في عالم النفوس، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأيدي بعد تمزيق القلوب. وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل أينظر بعيني لبوءة، أم بعيني عذراء خفيرة ؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان يُعده لحمل الرسالة، ويرشّحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها يرنّ في أجواز الوجود.

وللبیان المعقد مثل هذا النصيب من بُعد الغور، ودقة المدلول، فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن إليه القلوب، وتجار في تعليله العقول، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه، ثم يقرؤه الخاصة فيفتنون به، ويحارون في تعليل حُسنه، ثم لا يُحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال.

— ٤ —

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان : فهو تارة يرتكز على سمو الخيال، كقول بعض الحكماء : « من غَمَسَ يده في مال السلطان، فقد مشى بقدمه على دمه ». ففي هذه الكلمة من روعة التخيل، وحسن التصوير، ما يدهش العقول، ويحير الألباب. وكقول أُرطاة بن سُهيّة المُرّي :
فلو أنّ ما نُعطِي من المَالِ نبتغي

بِهِ الحَمْدَ يُعطِي مثله زانحُ البَحْرِ
لظَلَّتْ قَرَايِرُ صِيَامًا بِظَاهِرٍ

مِنَ الضَّحْلِ كَانَتْ قَبْلُ فِي لُجَجٍ خَضِرٍ^(١)

(١) القراير السفن : والمفرد قرقور على وزن عصفور، وصيام السفن : ركودها والضحل : الماء القليل لاعمق له، واللجج الخضر : هي السود.

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالي بصورة بشعة مخيفة يهابها
الوهم وتتحامها الظنون، فهو يذكر أن البحر الزاخر، الذي يُجَنّ مَا يُجَنُّ، ويُظهر
ما يُظهر، والذي يروعك منظره، ويهولك مخبره، يذكر أن ذلك البحر لو بذل
مثل ما يبذل قوم هذا الجواد في سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُبابات
من الماء، وقد كانت قبل في لُجج رهيبة السواد، وهذه الصورة هي التي بررت
مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد، وإن عزّ البحر عن النظائر، وجلّ عن الأشباه.

ومن رائع الخيال قول أبي نواس :

أَلَا لَا أَرَى مِثْلِي أَمْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسْمٍ
تَغْصُّ بِهِ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهْمِي
أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَظَنَّنِي كَلَاظِنٌ وَعِلْمِي كَلَاْعِلْمٍ

فأنت تراه، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء، وغيره الدّروس
حتى ارتاب فيه، وغصت به عينه، ولفظه وهمه، ثم أغرقك في بحر من التخيل
حين قال :

أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَظَنَّنِي كَلَاظِنٌ وَعِلْمِي كَلَاْعِلْمٍ

وعليك أن تستوعب هذا المعنى، فقد فتحت لك الباب.

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةٌ شَارِبٍ تَمْشَتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ
وكان يقول قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل ! وهذا
كما ترى أبدع ما يُصور به النشوان.

ولا تنس القرآن، فإنه غاية الغايات في روعة الخيال، وانظر قوله تعالى :
﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ،
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾.

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بأساء الحياة، ورأى كيف يكون

هَوَجَ الرِّيحُ، وَجَنُونَ الْمَوْجُ، وَعَسَفَ الظَّلَامُ، وَكَمْ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَهْوَالٍ !
وقد يركز البيان المعقد على بساطة الأداء، وهذا أحسن تأويل لكلمة :
« المَطْمَعُ المَمْتَنِعُ » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير،
حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عزّ عليك وامتنع، وإليك قول ابن الدمينه
يوصي حبيته بالقسوة على الوشاة، وبالصلابة حين يجور اللاثمون :
وَكُونِي عَلَى الْوَاشِينَ لِدَاءِ شَعْبَةٍ كَمَا أَنَا بِالْوَاشِيِ الدُّ شُعُوبُ
وَكُونِي إِذَا مَالُوا عَلَيْكَ صَلِيَّةً كَمَا أَنَا إِنْ مَالُوا عَلَيَّ صَلِيبُ
فهذا كلام سهل، يسكن إليه القلب، وتخلد إليه النفس، ولكنه يعز على من
يرومه، ويطول على من يسمو إلى محاكاته. ومثله في بساطته ودقته قول بعض
الأعراب :

إِذَا أَجْتَمَعَ الْجُوعُ الْمُبْرَحُ وَالْهَوَى عَلَى الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ
وهي فكاهة رقيقة يبسم لها ثغر الحزين.
وأظرف منه قول الآخر، وقد تمرت عليه امرأته وضريت على إيدائه :
يَا رَبِّ إِنْ قَتَلْتَهَا فَعُدْ لَهَا فَلَنْ تَمُوتَ أَوْ تُجِيدَ قَتْلَهَا
فقد مثلها بالحية النضناض، التي يُقتلها المرء تفتيلاً، ثم لا تزال تبدو لعينيه،
وكانها تسعى.

— ٥ —

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين : من شاعر، أو كاتب
أو خطيب، فإن هناك نفوساً خطيرة قد تُضللُك وقد تهديك حين يكتب أصحابها
وحين يتكلمون. وانظر قول موسى بن جابر، وقد رأى تجمع الأعداء وتوثبهم :
وَقُلْتُ لَزَيْدٍ لَا تُتَرِّرُ فَإِنَّهُمْ
يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي
فَإِنْ وَضَعُوا حَرْبًا فَضَعَهَا وَإِنْ أَبَوْا
فَعُرْضَةٌ غَضُّ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي

وَإِنْ رَفَعُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ الَّتِي تَرَى
فَشُبُّ وَقُودِ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ

فهذه النفس المعقدة في أغراضها ومراميها هي التي وقفتك موقف الحيرة أمام
هذه الأبيات، فأنت ترى فتى شجاعاً مقداماً لم تنسه شجاعته، ولا إقدامه ما
يحيط به من عظامم الأخطار، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالحذر والرفق، ويدعوه
إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء، وإلى شُبِّ وَقُودِهَا بالحطب الجزل إن أبوا
إلا القتال، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة، وقل من يجمع بينهما
من أفذاذ الرجال.

وانظر قول الآخر يتوجع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء :
وَقُلْتُ لِعَلَّاقٍ يِعْرُنَانُ مَا تَرَى
فَمَا كَادَ لِي عَنْ ظَهْرِ وَاضِحَةٍ يُبْدِي
تَبَسُّمَ كَرِّهَا وَاسْتَبَنْتُ الَّذِي بِهِ
مِنْ الْحَزَنِ الْبَادِي وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ
إِذَا الْمَرْءُ أَغْرَاهُ الصَّدِيقُ بَدَتْ لَهُ
بِأَرْضِ الْأَعَادِي بَعْضُ الْوَانِهَاءِ الرَّبْدِ

— ٦ —

وتلك أيها القارىء خواص يُراد بها التقريب لا التحديد، فإن
المرجع إلى الحاسة الفنية، وهي قد تدق حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده
من الكلام البليغ. والآمدي يضرب المثل بالفرسين السليمين من كل عيب، وفيهما
جميع علامات العتق والجودة والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق
لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية، وبالجاريتين البارعتين في الجمال السليمتين من
كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً، بدون
أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول

ملاسته، وكذلك الشعر كما يقول الآمدي، قد يتقارب البيتان الجيّدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود : إن كان معناه واحداً، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفاً^(١).

وحكى إسحاق الموصلي قال : سألتني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما. فاخترت فقال : من أين فضلت هذا على هذا، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتتا لأمكنني التبيين، ولكنهما تقارباً ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان.

والطبيعة في كلام إسحاق هي ما نريده من الحاسة الفنية. وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث.

(١) انظر تفصيل رأي الآمدي في الجزء الثاني من كتاب : « النثر الفني ».

البحث السابع

خطر الإيهام والغموض

— ١ —

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة لا إيهام فيها ولا غموض، ليظفر الناقد باقتناع القارئ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان.

وأخطر ما يعرض للنقد والمماثلة أن يعتمد الموازن إلى التعابير المصبوبة في قوالب المجاز، فإنها بئس الأداة في الفصل بين الشعراء، كأن يقول : « هذا شعر أبدت صدوره متونه، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهل لهواديته، وأشبه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره، وأشبه الوشي في اتفاق رقومه واتساع رسومه، وتسطير كفوفه، وتحجير حروفه، وحكى العقد في التثام فصوله وانتظام وصوله، وازديان ياقوته بدره، وفريده بشذره، قد كشف الإيجاز موارده وصقلت مداوس الدربة مناصله، وشحذت مدارس الأدب فواصله ».

وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشئ في وصف الشعر الجميل، وهو صاحب هذه المنظومة :

الشُّعْرُ مَا قَوَّمتَ زَيْغَ صُدُورِهِ وَشَدَدْتَ بالتهذيبِ أَسْرَ مُتُونِهِ

وَرَأَيْتَ بِالْأَطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِالْإِيجَارِ عَوْرَ عُيُونِهِ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيدِهِ وَوَصَلْتَ بَيْنَ مُجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
وَعَهَدْتَ مِنْهُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَقْتَضِي شَبَهَا بِهٍ فَقَرْنَتْهُ بِقَرِينِهِ

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون، كما عثوا بمنظومته الأخرى التي يقول فيها :

إِنَّمَا الشُّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي النَّظْمِ وَ إِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُتُونًا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا قَدْ أَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُثُونَا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَا
فَكَانَ الْأَلْفَاظَ فِيهِ وَجُوهٌ وَالْمَعَانِي رُكْبَنَ فِيهِ عُيُونَا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يغني في تحديد الموصوف : بل يلقي عليه أستاراً من اللبس والغموض، فإنه لاقيمة لمدح الشعر بتقويم زَيْغ صدورهِ، وَشَدُّ أَسْرِ مَثُونِهِ، والجمع بين قريبه وبعيده، والوصل بين مجمه ومعينه، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التي يغرم بها المتكلفون.

— ٢ —

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في إحدى مقاماته إذ قال: « جلسنا يوماً نتذاكر الشعرَ والشعراء، وتلقأنا شابٌ قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال أصبتم عُدَيْقَهُ، ووافيتم جُذَيْلَهُ، ولو شئت للفظت، ولو أردت لسرَدْتُ، ولجلوت الحقَّ في معرض بيان يسمع الصَّمَّ، ويردي العُصْم، فقلت : يا فاضل ادن فقد منيت، وهات فقد أثنت، فدنا وقال : سلوني أجيبكم، واستمعوا أعجبكم.

قلنا : فما تقول في امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها،

واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسباً، ولم يجد القول راغباً، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه.

قلنا : وما تقول في النابغة ؟ قال : ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائباً.

قلنا فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً، وأغزر غُدرًا والفرزدق أمتن صخراً، وأكثر فخراً، وجرير أوجع هجواً، وأشرف يوماً والفرزدق أكثر رُوماً، وأكرم قوماً، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أَردى وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : « المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر في المعاني حظاً، والمتأخرون ألطف صنْعاً، وأرق نسجاً ».

ولو عُدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي تصلح لبوساً لكل موصوف، فكل شاعر فيما أظن : « ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب ». ومن اللبس أن تقول في وصف شاعر : « هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها » أو أن تقول : « إنه أمتن صخراً أو أكثر روما ». ومن المجازفة أن تقول : « المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر في المعاني حظاً ». وقد ظُرف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وكناتها من خواص اللصوص، وهذا بالطبع لا يقدح في سمو تلك العبارة إلا حين تُرسل بلا تقييد، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ .

على أن هذا البيت لا يدل على أن : « صاحبه أول من اغتدى والطير في وكناتها » كما قال بديع الزمان .

وقال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جَدَّ أحسن، وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ، يلقي الكلام على عواهنه لا يبالي من أين أخذه.
قلت : فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه، على أن في شعره خللاً كبيراً.

قلت : فمروان بن أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه، يستحسن كل ما جاء منه، مُعجب لا يرى أن أحداً يتقدمه، كثير الصواب، كثير الخطأ، ليس لشعره صنعة.

قلت : فمسلم بن الوليد ؟ قال : خَلِيجٌ صافٍ ينزع من بحر كدر، كالزند، يورى تارة، ويصلد أخرى.

قلت : فأبو العتاهية ؟ قال غشاء جم، واقتدار سهل، وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد.

قلت : فعباس بن الأحنف ؟ قال : يُلقى دلوه في الدلاء، فيغترف الصفو أحياناً والحماة أحياناً، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت : فسلم الخاسر ؟ قال : مُقلٌّ مداح، شعره ديباج وعهن، يمؤه الرديء حتى يُشبهه الجيد.

قلت : فأبو الشيص ؟ قال : جدّه كلّ فيه حلاوة وبشاعة، كالسّدرّة التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع.

قلت : فعليّ بن جبلة ؟ قال : بحاث عن الكلام الفخم، والمعنى الرائع، لا ينال مرتبة القدماء، ويجلّ عن منزلة النظراء.

قلت : فأبو تمام ؟ قال : مسيلٌ كثير الغشاء، غزير الغمار، جم النطاف، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال.

قلت : فعبد الصمد بن المعدّل ؟ قال : خراج ولّاج : يعتسف تارةً ويهتدي أخرى.

قلت : فعليّ بن الجهم ؟ قال : كلامٌ رصين، ومسلكٌ وعزٌّ، عقله أغلب على شعره من طبعه.

قلت : فبكر بن النطّاح ؟ قال : تشبّه بالأعراب فأفرط، وتجاوز حد المولّدين فأسهب، فهو الساقط بين القريّتين.

ولا ننكر أن في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء، ولكننا نستنكر أن تحدّد شاعرية شاعر بأنه : « خراج ولّاج، يعتسف تارةً ويهتدي أخرى » أو بأنه : « خليج صاف ينزع من بحر كدر » أو بأنه : « لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء ».

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإبهام كان يغلب على المتقدمين، ولم يسلم منه الجاحظ على بصّره بالبيان والتبيين، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية بأنه : « ملس المتون ليس له عيون » وهي عبارة مجازية لا تؤدي إلى معنى محدود.

— ٤ —

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل في حين إن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء في مختلف الأغراض وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكتّابه، فنجد مصطفى الرافعي يقول في وصف الشعر : « لو كان طيراً يُغرّد لكان الطبع لسانه، والرأس عشه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء ».

ونجد محمداً السباعي يصف شكسبير بأنه : « منحة الطبيعة وجائزة الدهر ». ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول :
ما تُغورُ الزُّهرُ في أكامِها ضاحكات من بُكاءِ الشُّحْبِ

نَظَمَ الْوُسْمِيُّ فِيهَا لُؤْلُؤًا كَثَنَايَا الْغَيْدِ أَوْ كَالْحَبِّ
عِنْدَ مَنْ يَقْضِي بِأَبْهَى مَنَظَرًا مِنْ مَعَانِيهِ الَّتِي تَلْعَبُ بِي
بَسَمَتْ لِلذَّهْنِ فَاسْتَهْوَتْ نَهَى مُغْرَمَ الْفَضْلِ وَصَبَّ الْأَدَبِ
ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطي في الأستاذ الشيخ عبد العزيز
جاويش : « لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدي
سواء ».

وقوله في المرحوم قاسم أمين : « ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله ».
وتلك كلها عبارات مبهمه لاتقنع طلاب البيان.

— ٥ —

- إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات :
- ١ — أن يذكر حياة من يُوازن بينهم من الشعراء، وأن يُعيّن ما في حياة كل
شاعر من ألوان الشّدة، أو صنوف الرخاء.
 - ٢ — وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من
الاعتلال.
 - ٣ — وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يُريد وَزْنَهُ ونَقْدَهُ.
 - ٤ — وأن يحدّد الصفات التي اشترك فيها من يُوازن بينهم، والصفات التي انفرد
بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني، والألفاظ، والأساليب،
ويوازن بين القصائد والمقطوعات، والأبيات اليتيمة.
 - ٥ — وأن يدقّق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة، ويبين كيف
تناول الشاعر المعنى الذي سبق إليه، وكيف هدّبه، وكيف بسّطه، حين
يَجُود أخذه، وتلطف سرّقه، وكم في الشعراء من سارق لطيف !
 - ٦ — وأن يعدّ ما برّز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع، وما أجاد أخذه، وما
ابتكره وما انفرد به، فقد يبتكر الشاعر المعنى، ثم يُغلب عليه حين يقصر
في تأديته، وقد يبتكر المعنى، ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية في الأداء.

- ٧ — وأن يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن غرض واحد
وحين يختلفان في ذلك.
- ٨ — وأن يبين أسباب السبق، وأسباب التخلف، مع التعمق في استقراء ما
لكل شاعر من خطرات النفس، ولفقات القلب، ونوازع الوجدان.
- ٩ — وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضوعيّة، التي اقتضاها زمانه ومكانه
والمعاني الإنسانيّة، التي تصلح لجميع الناس، على تباين الأمكنة واختلاف
العصور.
- ١٠ — وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من : « الصور الشعرية » .
وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان.

البحث الثامن

الصور الشعرية

— ١ —

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء. أُلقيت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه، فساعدني ذلك على تحديده، وضبط المراد منه، وكشف ما يعتوره من الغموض، وإلى القارئ البيان :

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المُفلق الذي يصف « المرئيات » وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود والذي يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد.

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف فليس منها قول أبي نواس في وصف الراح :

صَهْبَاءُ تَبْنِي حَبَاباً كُلَّمَا مُرِجَتْ	كَانَهُ لَوْلُو يَتْلُوهُ عَقِيَانُ
كَانَتْ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ	مِنْ حُرٍّ شَحَّتِهَا وَالْأَرْضُ طُوفَانُ
فَلَمْ تَزَلْ تَعْجِمُ الدُّنْيَا وَتَعْجِمُهَا	حَتَّى تَخَيَّرَهَا لِلْخَبَاءِ دِهْقَانُ

فَصَانَهَا فِي مَغَارِ الْأَرْضِ فَاخْتَلَفَتْ
بِبَلَدَةٍ لَمْ تَصِلْ كُلُّهَا بِهَا طُنْبًا
لَيْسَتْ لِذُهْلِ وَلَا شَيْبَانِهَا وَطَنًا
أَرْضٌ تَبْنَى بِهَا كِسْرَى دَسَاكِرُهُ
وَمَا بِهَا مِنْ هَشِيمِ الْعُرْبِ عَرْفَجَةٌ
لَكِنْ بِهَا جُلُنَارٌ قَدْ تَفَرَّعَهُ
عَلَى الدَّفِينَةِ أَزْمَانٌ وَأَزْمَانٌ
وَلَا خِبَاءٌ وَلَا عَبَسٌ وَذُبْيَانٌ
لَكِنَّهَا لِبَنِي الْأَحْرَارِ أَوْطَانٌ
فَمَا بِهَا مِنْ بَنِي الْأَعْرَابِ إِنْسَانٌ
وَلَا بِهَا مِنْ غِذَاءِ الْعُرْبِ خُطْبَانٌ
آسٌ وَكُلُّهُ وَرْدٌ وَسُوسَانٌ

ولو عُرِضَتْ هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها عُرِضَتْ على رجل من الأدباء في الأعصر الخالية لوصِفَتْ على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب متينة التركيب، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء، لا حظ لها من الروعة، ولا نصيب لها من الجمال.

أراد أبو نواس أن يصف الخمر، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب بالنفوس ؟ كلا ! لم يصنع شيئاً من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حباباً كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ثم اندفع يذكر أنها عتيقة، وأن عهداً بالوجود قديم، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب، فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب الدهر، وتصانع الحداث، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار الأرض، وأخفاها عن عيني الزمان، ولم يكفه ذلك، بل ذكر أن الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان بل زينها الجلنار، والورد، والآس والسوسان.

إذاً أخطأ أبو نواس حين غلا في الإشادة بعشق الصهباء، لأن عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البيئة على أنها من عهد الطوفان، مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود، فقد يكفيهم أن توصف بالقدم، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي :

لَطُفْتُ فَقَدْ كَادَتْ تَصِيرُ مُشَاعَةً فِي الْجَوِّ مِثْلَ شُعَاعِهَا وَنَسِيمِهَا

أو كما قال ابن المعتز :

جَرَتْ حَرَكَاتُ الدَّهْرِ فَوْقَ سُكُونِهَا فَذَابَتْ كَذَوْبِ التَّبْرِ أَخْلَصَهُ السَّبْكُ
فَقَدْ خَفِيتُ مِنْ صَفْوِهَا فَكَانَهَا بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُذِرْكُهُ الشَّكُّ

ويكاد القارئ لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير وصف الخمر ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية، وما تنبت البلاد الفارسية إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر، وما بأرض الفرس من ورد وآس ويسخر مما للعرب من طُنب وخباء، وما بأرضهم من عرفج وخطبان.

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر بالقدم شيء من الروعة، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس، فما نظن أحداً يستنكر قول البحثري في وصف الشُّمُول :

بِكُرٍّ تَقَدَّمَتِ الزَّمَانُ بَعْرِسَهَا إِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّهْرِ شَيْءٌ يُعْرَسُ

ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم، وأنه في ذلك غير مسبوق أفيكفي أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغاً ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !

ولا ننكر أن الصفة الغالبة لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من الصفات، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل، فقد تكون الراح جبارة قهّارة، وهي في مِيعَةِ الصبا وعنفوان الشباب، وغيري عنده الخبر اليقين.

— ٢ —

ولننظر قول أبي نواس من كلمة ثانية :

دَعِ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاخَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لَأَلَاءُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجْهًا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه صورة شعرية للراح، أَلَمَ فيها الشاعر بصفاتها المختلفة، أو بأشهر ما لها من الصفات، وقد ابتدأ ذلك بنبد ملامة اللائمين، بل جعل اللوم نوعاً من الإغراء، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتي كانت الدواء، لما أورثت من داء، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون، وأن الحزن لا يحل لها ساحة، وأن الحجر لو مسها مسته السراء، وأنها حين قامت بابريقها هتكت الظلماء، بما لوجهها من لأاء، وأنها حين أرسلت صافيةً من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء، ولا يشاكلها الماء، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذاب الفرات، فإن عجز المصطبج أو المغتبق عن شربها صرفة فليمزجها بالنور فإنه لها مزاج، وهي له لباس، ومنهما تتولد الأنوار والأضواء.

— ٣ —

وقد يُلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثانية لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن أحدهما في الواصف وأخرهما في الموصوف، لأن الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثراً بحسنة أو قبحه، فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال، وربما خضع الشاعر لعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقى مثلاً، وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصَرَ في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عُنين :

وَمُدَامَةٍ لَمْ يُبْقِ طُولُ ثَوَائِهَا	فِي خِدْرِهَا إِلَّا وَمِضْ شُعَاعِ
مِنْ كَفِّ مَصْقُولِ الْعَوَارِضِ آنَسِ	يَرْنُو بِمُقْلَةٍ جُوْذَرِ مُرْتَاعِ
وَقَفْتُ عَوَارِضُ صُدْغِهِ فِي خَدِّهِ	حَيْرَى وَبَاتَتْ فِي الْقُلُوبِ سَوَاعِ
رَاضَتْ خَلَائِقُهُ الْعُقَارُ وَبَدَّلَتْ	نَزَقَ الصَّبَا بِمَوْقَرِ مِطْوَاعِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء إنما هي تشبيب، ومثلها قول البحري، وقد صرعت نديمه الصهباء :

ونديم حُلُوِّ الشَّمَائِلِ كالْدَيِّ نَارِ مَحْضِ النَّجَارِ عَذْبِ الْمُصَفَّى
بِتُ أَشْقِيهِ صَفْوَةَ الرَّاحِ حَتَّى وَضَعَ الْكَأْسَ مَائِلًا يَتَكَفَّى
قُلْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ تَفْدِيكَ نَفْسِي ! قَالَ لَبَّيْكَ ! قُلْتُ لَبَّيْكَ الْفَا !
هَآكِهَآ ! قَالَ هَاتِيهَا ! قُلْتُ خُذْهَا قَالَ : لَا أُسْتَطِيعُهَا، ثُمَّ أَغْفَى

وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة، وليس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم، وجناية الكأس عليه، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق.

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارئ والسماع، ألا ترى أن قول بعض الأندلسيين :

أُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنِي رَقِيبِي وَمِنْ عَيْنِي وَعَيْنِكَ وَالزَّمَانِ
وَلَوْ أَنِّي وَضَعْتُكَ فِي عُيُونِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي

أقل تأثيراً في النفس من قول ابن الرومي :

أَعَانَتْهُ وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِ
وَالثَّمُ فَاهُ كَيْ تَزُولُ حَرَارَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ
وَلَمْ يَكْ مِقْدَارُ الَّذِي بِي مِنَ الْجَوَى لِيَرْوِيَهُ مَا تَلْثُمُ الشَّفْتَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَرْوِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَرِجَانِ

لأن ابن الرومي وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء، وتنقل بالقارئ السامع من حال إلى حال، وذكر أموراً فطرية يشعر بمثلها كل متيم مشغوف، ثم علل شرهه في صبوته بخطر لوعته وفرط جواه، وتحليل المعنى وتعليقه من أقرب الوسائل إلى تمكينه في النفوس، وفي تحليل المعاني وتعليقها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء.

البحث التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارئ شيئاً عما أريده من الصور الشعرية، ولكنه شيء يسير لا يغني في إمطة اللثام عن هذا الفن الجديد، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية، والتمثيل المعروف في علم البيان، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية، وهو خطأ مبين.

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس، لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليقه كافية في تحقيق غاية البيان، ولنضرب لذلك الأمثال.

— ١ —

من الحكم الماثورة قول أبي الدرداء : « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كَلَه ». يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه ملكاً لأخيه. هذا هو أصل المعنى، وتلك هي صورته الأصلية، فلننظر كيف بَسَطَهُ بَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ حين قال :

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فِعْشٌ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى
مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ ظَمِئَتْ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

فإذا وازنت بين هذه الأبيات وبين كلمة أبي الدرداء رأيت أن كلمة : « من لك بأخيك كله ». كلمة مُبْهَمَةٌ لا تقرر في النفس إلا بعد التأمل والترديد : ورأيت صاحب هذه الأبيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك في كل الأمور فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه، لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب، وأنت مضطر إلى إحدى اثنتين : إما أن ترضى الوحدة، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب « مراراً » على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود ؟ !

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملاً للقلب، من كلمة أبي الدرداء، وإليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمَحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ
تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا
فَأَبْدَى كَرُوضَ الْحَزَنِ رَقَّتْ فُرُوعُهُ
وَلَوْ أَنِّي كَشَفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ
فَلَا بَاسِطًا بِالسُّوءِ إِنْ سَاءَنِي يَدًا
كَعُضْرِ رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي بِقَادِحِ
إِذَا أَمَرَ الطَّبُّ اللَّيْبُ بِقَطْعِهِ
صَبَرْتُ عَلَى إِيْلَامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ
هِيَ الْكَفِّ مَضَى تَرْكُهَا بَعْدَ دَائِهَا
أَرَاكَ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ كُنْتَ عَاصِيًا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ لَجَّ بِهَا الْقَذَى
دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى مَا ذَمَّتْهُ
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطْعَتُهُ
وَمَنْ لَمْ يُوطَّنْ لِلصَّغِيرِ مِنَ الْأَذَى
أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَّقَوْمَا
وَأَذْمَجَ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا
وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الْخِدَارِيَّ مُظْلِمًا
أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَاتِمًا
وَلَا فَاغِرًا بِالذَّمِّ إِنْ رَأَيْتَنِي فَمَا
وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الْأَلِيمَ تَالِمًا
أَقُولُ عَسَى ضِنًّا بِهِ وَلَعَلَّمَا
وَمَنْ لَامَ مَنْ لَا يَرْعَوِي كَانَ الْوَمَا
وَإِنْ قُطِعَتْ شَانَتْ ذِرَاعًا وَمِعْصَمًا
أَعَزَّ مِنَ الْقَلْبِ الْمَطِيعِ وَأَكْرَمًا
فَلَا تَنْجَلِي يَوْمًا وَلَا تَبْلُغِ الْعَمَى
وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالَ فَتَنْدَمَا
عَلَى مَضْضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلَا دَمًا
تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلٌ وَأَعْظَمَا

فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف الرضي، وانظر كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبّهه بالرمح الذي زاغت كعوبه، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل من ذلك الصديق ظاهره المتبلج، وتغافل عن باطنه المتجهّم، وكيف مثل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مائماً أيّ مائتم، ومع ذلك لا ييسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه بالذم إن رابه، ثم انظر كيف صوّر هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بفادح، والذي يؤلم حمله، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف مضّر بغيض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟

ولم يقف الشريف الرضي، عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين لجّ بها القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة :
دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِيّاً عَلَى مَا ذَمَّتْهُ وَلَا تَنْشِرِ آدَاءَ الْعُضَالِ فَتَنْدَمَا
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطَعَتْهُ عَلَى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلَا دَمَا
وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أوّلاً، وكلمة الشريف الرضي ثانياً، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أبي الدرداء، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليقه، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ؟

— ٢ —

رثى مؤيلك المزموم امرأته أمّ العلاء فقال :
أَمُرُّ عَلَى الْجَدَثِ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْعَلَاءِ فَنَادِيهَا لَوْ تَسْمَعُ
أَنِّي حَلَلْتُ وَكُنْتُ جَدًّا فَرُوقَةً بَلَدًا يَمُرُّ بِهِ الشُّجَاعُ فَيَفْزَعُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ إِذْ لَا يُلَائِمُكَ الْمَكَانُ الْبَلَقُ
فَلَقَدْ تَرَكْتُ صَغِيرَةً مَرْحُومَةً لَمْ تَدْرِ مَا جَزَعُ عَلَيْكَ فَتَجْزَعُ

فَقَدَّتْ شَمَائِلَ مَنْ لَزَامِكِ حُلُوةً فَنَبَيْتُ تُسْهِرُ أَهْلَهَا وَتُفَجِّعُ
وَإِذَا سَمِعْتُ أُنَيْنَهَا فِي لَيْلِهَا طُفِقْتُ عَلَيْكَ شُؤُونِ عَيْنِي تَدْمَعُ

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح إلى عالم الفناء، وهي بعد التحليل ترجع إلى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلقع. والثانية الأسف على ما لقيت طفلتها من فقد شمائلها الحلوة. وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئاً من الوضوح، وأن يعتمد في الفكرة الثانية على أن يشرك معه القارئ في حزنه وبثّه، لأن الغرض من الشعر إنما هو التأثير.

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات :

أَلَا مَنْ رَأَى الطُّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ	بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْدِرَانِ
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأَبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ	يَبْتَائِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتُهُ	بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
أَلَا إِنَّ سَجْلاً وَاحِداً قَدْ أَرْقَنَهُ	مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
فَلَا تُلْحِيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا	أَدَاوِي بِهَذَا الدَّمْعِ مَا تَرِيَانِ
وَإِنْ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ	لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى	فَهَلْ أَتُّمَّا إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ
فَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي	جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لَابِنِ ثَمَانِ
ضَعِيفِ الْقَوَى لَا يَعْرِفُ الْأَجَرَ حِسْبَةً	وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ
أَلَا مَنْ أُمِّيهِ الْمُنَى فَأَعِيدُهُ	لِعَثْرَةِ أَيَّامِي وَصَرَفِ زَمَانِي
أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي	وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطَنِي وَرَعَانِي
فَلَمْ أَرَ كَالْأَقْدَارِ كَيْفَ يَصْبِنَنِي	وَلَا مِثْلَ هَذَا الدَّهْرِ كَيْفَ رَمَانِي

فإذا وازنا بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا في الأخيرة صورة شعرية بديعة، تمثل الطفل المفجع في أمه، والرجل المفجع في زوجه. وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله :

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأَبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَائِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ

وَبَاتَ وَجِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتَهُ بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ

وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه، وجهله بالأجر والتأسي، وتأمل كيف فهم قدر الحليلة، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من الوفق، وما للرجل من الأنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل، وكيف اعتمد فأعدها لعثرة أيامه وصرف زمانه، وكم في الأيام من عثرات، وكم في الدهر من صروف !

وأي كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة الأمينة من قوله في تلك الفقيدة الغالية :

أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطَنِي وَرَعَانِي

وأحب لو أعاد القارئ النظر في هذين البيتين :

وَإِنْ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَتَمَّا إِنْ عَجْتُ مُتَظَرِّانِ

فإنهما غاية في تمثيل الحنو على القبر المأهول برفات الحبيب، وسقى الله كل بقعة من هذا القبيل !

— ٣ —

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه، وأن يذكرهم بأن في صروف الدهر ما يغني عن القطيعة، وذلك قوله :

وَيَا رُفْقَةً مَرَّتْ بِجَرْعَاءِ مَالِكٍ تَوُّمُ الْجِمَى أَنْضَاؤُهَا وَالْمَطَالِيَا
نَشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ إِلَّا نَشَدْتُمُو بِهِ شُعْبَةً أَضَلَلْتُهَا مِنْ فُؤَادِيَا
وَقُلْتُمْ لِحَيٍّ نَازِلِينَ بِقُرْبِهِ أَقَامُوا بِهَا وَاسْتَبَدَّلُوا بِجَوَارِيَا
رُوَيْدَكُمْ لَا تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفَ اللَّيَالِي إِنَّ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول :

فَأَكْرَمُ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَا عِشْتُمَا مَعَا كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْقَةً وَتَنَائِيَا
إِذَا زُرْتُ أَرْضاً بَعْدَ طُولِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتُ صَدِيقِي وَالْبِلَادُ كَمَا هِيَا

ولننظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ
لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنٍ ذَمَّمْتُ صُرُوفَهُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمْتُ مُدَّةً
وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةٌ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى
فَلَيْتَنُ سَبَقْتُ لَتَبَكَيْنَ بِخَسْرَةٍ
وَلَتُفَجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ
وَلَيْتَنُ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لَيَمْضِيَنَّ
وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ
وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا
وَدُّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ جَمَالُهُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَصِيرَةٌ

وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ
إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلْتُ تَحْوِيلُ
إِنْ حُصِّلُوا أَفْنَاهُمْ التَّحْصِيلُ
يَوْمًا سَتَصْدَعُ يَتَنَّا وَتَحُولُ
وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ
حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ
مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ
وَلَيَفْقَدَنَّ جَمَالَهَا الْمَأْهُولُ
صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ
وَبَدَتْ عَلَيْهِ بِهِجَةٌ وَقَبُولُ
فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتَبُنَا وَيَطُولُ

وهذه غاية في تحليل المعنى وتعليقه : فانا نراه ابتداءً بشكوى الزمان، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحرّ في الدنيا قليل، وبأن من الحزم ألا يتجنّى المرء على صديق لا ذنب له، فقد تصدع بينهما أحداث المنية، أو عاديّات الليالي.

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه، وستعظم فجيعة فيه، وهذا اعتراف منه لصديقه بالوفاء، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف. وانظر كيف دق ولطف في قوله : وَلَيْتَنُ سَبَقْتُ — وَلَا سَبَقْتُ — لَيَمْضِيَنَّ

مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف. وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة، وهي بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف، وأبرع من أبيات الطغرائي، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه : من ردّ صديقه إلى شرعة الإلفة، وصرفه عن موارد الصدود.

أراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه، وهو يفخر بقومه ويذكر صبرهم على الجلاء، وصدقهم في اللقاء، فقال :

وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصْبِحاً وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسَا
أَكْرَ وَأَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَائِيسَا^(١)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرِّمَاحِ الْمَدَاعِيسَا^(٢)
إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحٍ نَكْرُهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلَّا عَوَابِيسَا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة : ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى، وتمكينه في النفس، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني :

أَلَا حُيِّتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحْيِيهَا وَإِنْ كَرُمْتَ عَلَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَى أَضْمَاتِنَا وَقَدْ اخْتَوَيْنَا^(٣)
فَارْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَيْثَا فَقَالَ أَلَا أَنْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا
وَدَسُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً فَلَمْ نَعْدِرْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا
فَجَاءُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجِئْنَا كَمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وَارِعَيْنَا
تَنَادَوْا يَا بُهْتَةَ إِذْ رَأُونَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْبًا جُهَيْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَا لِلْكَلاَكِلِ فَاَرْتَمَيْنَا^(٤)
فَلَمَّا لَمْ نَدْعِ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشُوا إِلَيْنَا
تَلَالُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافِ رَدَيْنَا^(٥)
شَدَدْنَا شِدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بَارْجُلٍ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُوَيْنَا^(٦)

(١) جمع قونس، وهو أعلى الراس.

(٢) من الدعس، وهو الطعن.

(٣) الأضمت : الأحقاد، والاختواء : خلو الجوف من الطعام.

(٤) الكلاكل : الصدور.

(٥) حجل : تريت في مشيه على رجله، وردى : أسرع.

(٦) جوين : هو أخو الشاعر وسيرثيه أشرف رثاء بالبيت التالي.

وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زَيْنَا
فَأَبَوْا بِالرَّمَّاحِ مُكْسَّرَاتٍ وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ أَنْحَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاحٌ وَلَوْ خَفْتُ لَنَا الْكَلَمَى سَرِينَا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل. وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف في سهولة ورفق، وتراه في الوقت نفسه صادقاً فيما يقول، إذا لم يرد في قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه، أو رمية بالغلو والإسراف، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين صرع بهذا البيت السهل المقبول:

وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زَيْنَا

وأي فتى لا يتمنى أن يرمي بنفسه في سكير تلك الحرب التي يقول فيها هذا الفتى النبيل، وهو فيما يقول غير ظنين :

تَنَادَوْا يَا لِبُهْثَةٍ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْباً جُهِينَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً أَنْخَنَا لِلْكَلاَكِلِ فَارْتَمَيْنَا
تَلَأَلُوْا مُزْنَةً بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنَا

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعاني فلا يزال يبدأ ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد، كالعباس بن الأحنف في ولوعه بكتمان الوجد، وجحود الحب، فقد افتنن في هذا المعنى ووضع له صوراً عديدة، فتارة يعتذر عن هجره فيقول :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهِجْرَكُمْ إِلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدي وَتَسْثِيرِي أَدْنَى لِرِوْضِكَ مِنْ دُنُوِّ فَاضِحِ

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود :

سَاهُجُجُرُ الْفِي وَهَجْرَانُهَا إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودُ الْخُدُودِ
كِلَانَا مُجِبٌّ وَلَكِنَّا نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنا بِالصُّدُودِ

وتارة يُعَلِّلُ الكتمان فيقول :

سَأْسُتُرُ وَالسُّتْرُ مِنْ شِيْمَتِي هَوَى مَنْ أَحَبُّ بِمَنْ لَا أَحِبُّ
وَلَا بَدَ مِنْ كَذِبٍ فِي الْهَوَى إِذَا كَانَ دَفْعُ الْأَذَى بِالْكَذِبِ

وحيثما يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول :
قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ بَيْنَا قَوْلَهُمْ فِرْقَا
فَجَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْو وَصَادِقٌ لَيْسَ يَذَرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال :
كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنِّي سَلَوْتُ لِكَيْمَا يُنْكِرُوا جِنَ أَصْدُقُ
وَمَا مِنْ قَلْبٍ مِنِّي وَلَا عَنْ مَلَالَةٍ وَلَكِنِّي أَبْقِي عَلَيْكَ وَأُشْفِقُ
عَظَفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا قَمِيصًا مِنَ الْكِثْمَانِ لَا يَتَخَرَّقُ

وللقارئ أن يحلل هذا المعنى، فقد مهدت له السبيل^(١)

(١) ارجع إلى هذه المعاني الوجدانية في الطبعة الثانية من كتاب : (مدامع العشاق).

البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

— ١ —

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند شاعرين، فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه، وكان أحمد ابن خالد ذكره له، ووشى به إليه :

قَالُوا جَزَعْتَ فَقُلْتُ إِنَّ مُصِيبَةً ^(١)	جَلَّتْ رَزِيَّتُهَا وَضَاقَ الْمَذْهَبُ
كَيْفَ الْعَزَاءُ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ	عَنَا فَوَدَّعْنَا الْأَحْمُ الْأَشْهَبُ
دَبَّ الْوُشَاةُ فَأَبْعَدُوهُ وَرُبَّمَا	بَعْدَ الْفَتَى وَهُوَ الْحَبِيبُ الْأَقْرَبُ
لِللَّهِ يَوْمَ غَدَوْتَ عَنِّي ظَاعِنًا	وَسُلِبْتُ قُرْبَكَ أَيَّ عِلْقٍ أُسْلَبُ
الآنَ إِذْ كَمُلْتَ أَدَاتُكَ كُلُّهَا	وَدَعَا الْعُيُونُ إِلَيْكَ لَوْ أَنَّ مُعْجَبُ
وَأَخْتِيرَ مِنْ سِرِّ الْحَدَائِدِ خَيْرُهَا	لَكَ خَالِصًا وَمِنْ الْحُلِيِّ الْأَغْرَبُ
وَعَدَوْتَ طَنَانَ اللَّجَامِ كَأَنَّمَا	فِي كُلِّ غُضُو مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ
وَكَأَنَّ سَرَجَكَ إِذْ عَلَاكَ غَمَامَةٌ	وَكَأَنَّمَا تَحْتَ الْعِمَامَةِ كَوَكَبُ

(١) ان — هنا — حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون.

وَرَأَى عَلَيَّ بِكَ الصَّدِيقُ مَهَابَةً وَغَدَا الْعَدُوُّ وَصَدْرُهُ يَتَلَهَّبُ
أَنْسَاكَ؟ لَا بَرَحْتُ إِذَا مَنْسِيَّةً نَفْسِي وَلَا زَالَتْ بِمِثْلِكَ تُنَكَّبُ

وهذه صورة شعرية لجواد انتزع من صاحبه، فلنذكر صورة شعرية لحسان

لم يفجع صاحبه فيه، كقول البحرى :

وَأَغْرَ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مُحَجَّلٍ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ
وَفِي الصُّلُوعِ يَشُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ يَوْمَ اللِّقَاءِ عَلَى مُعِمٍّ مُخُولٍ
أَخْوَالُهُ لِلرُّسْتُمِينَ بِفَارِسٍ وَجُدُودُهُ لِلتُّبَّعِينَ بِمَوَكِلٍ^(١)
يَهْوَى كَمَا تَهْوَى الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ صَيْدًا وَيَتَّصِبُ أَنْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
ذَنْبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّشَاءُ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبَلِ
ذَهَبُ الْأَعَالِي حَيْثُ تَذْهَبُ مُقْلَةً فِيهِ يَنْظُرُهَا حَدِيدُ الْأُسْفَلِ
صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُيِّتَ بِهِ لِصَفَاءِ نَفْتِهِ مَدَاوِسُ صَيْقِلٍ^(٢)
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهْيُهُ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ
هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ نَبْرَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلِكُ الْعُيُونِ فَإِنْ بَدَا أُعْطِيَنَّهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الأولى، والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية، ومتى عرفنا أن الشاعر الأول : وصف حصانه وهو جازعٌ محزون، وأن الشاعر الثاني : وصف حصانه وهو فرح مختال، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق، فقد ابتداء ابن الزيات فشرح حُزْنَه على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثية لغلام نكب به، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته « ظروف » ابن الزيات، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء، ألا تراه يقول :

(١) موكل على وزن مقعد : جبل أو حصن، وفرس ربيعة بن غزالة السكوني : « قاموس ».

(٢) الصيقل : شحاذ السيوف، والمداوس جمع مدوس، وهو المصقلة.

الآن إذ كملت أداتك كلها ودعا العيون إليك لو أن معجب
وأختير من سرّ الحدايد خيرها لك خالصاً ومن الحلي الأغرب
وغدوت طنان اللجام كأنما في كل عضو منك صنع يضرب

وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء لذلك العهد، ومنه قول بعض الشعراء :

الآن لما صيرت أكمل من مشى وأقتر نأبك عن شاة القارح
وتكاملت فيك الشمائل كلها وغدوت ربّ مدائح ومنايح

ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين، ليكشف عن سر القيمة التي رزاه بها ابن خالد عدوه اللدود، وإلا فما معنى قوله :

وكان سرجك إذ علاك غمامة وكأنما تحت العمامة كوكب
ورأى عليّ بك الصديق مهابة وغدا العدو وصدره يتلهب

وكان ذلك لأن ابن الزيات محقق مغیظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو الذي سدّ عليه طريق الخيلاء حين أغرى المعتصم بأخذ برذونه الجميل.

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة، وأنه يروق العيون، وأنه اختار له من الحديد سره، ومن الحلي أغربه، وأنه طنان اللجام، وأن سرجه كالغمامة، وهو من تحته كالكوكب، وأنه يكبت العدو، ويسر الصديق.

وهذه أوصاف لا تماثل ولا توازن بأوصاف البحري لجواده، فقد ذكر أنه أغر محجل، وأنه في تكوينه :

كالهيكل المبني إلا أنه في الحُسْنِ جاء كصورة في هيكل

وأنه وافي الضلوع، وأنه أصيل : أخواله في بلاد الأكاسرة، وأجداده في بلاد التابعة، وأنه يهوي هويّ العقاب حين الصيد، ثم ينتصب انتصاب الأجل، وأنه برّاق الجوانب : تنوهم في جبينه البدر، وفي أرساغه الجوزاء، وأن ذنبه لظوله

كالرداء المسحوب، وأنه صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل، وأنتك
تحسب بريق سنايكه في الغبار ناراً يعلوها دخان، وأنه هزج الصهيل حتى لتحسب
في نغماته نبرات معبد في صوته الرخيم، وأنه ملك العيون، حتى لتتنظر إليه نظر
المحب إلى الحبيب المقبل.

وليس عجباً أن يجيد البحري هذه الإجادة في وصف جواد كان يهتك بغرته
ظلمة الليل، وينحدر به في الفضاء، كما تنحدر الصخرة الصماء عن القمة الشماء.
أما ابن الزيات فهو حريب سليب، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة، التي
أججت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء.

— ٢ —

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية، وفي مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحدة
عند شاعرين، ثم يوازن بين براعتيهما في التصوير، ولنضرب المثل بوصف الحمامة
الباكية، فقد أكثر منه الشعراء، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها
عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته :

وَأَرْقَنِي بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ	فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ الْغَرِيبُ يَنْوُحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذُرْ دَمْعَةً	وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرَّخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا	وَمِنْ دُونِ أَفْرَاجِي مَهَامُهُ فَيَحُ ^(١)

ونجد قول ابن الدمينه :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً	فَإِنِّي إِلَى أَصَوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِثَّنِي	وَكِدْتُ بِأَشْجَانِي لَهُنَّ أُبِينُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ بَوَاكِياً	بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُونُ

ونجد قول ديك الجن :

(١) فيح : جمع أفيح، وهو الواسع العريض.

حَمَائِمُ وَرَقٌ فِي حِمَى وَرَقٍ خُضِرَ
لَهَا مُقَلُّ تُجْرِي الدُّمُوعَ وَلَا تُجْرِي
تَكْلَفُنَ إِسْعَادَ الْعَرِيَّةِ إِنْ بَكَتْ
وَإِنْ كُنَّ لَا يَدْرِيْنَ كَيْفَ جَوَى الصَّدْرِ
لَهَا حُرَقٌ لَوْ أَنَّ خَنَسَاءَ أَعْوَلَتْ
بِهِنَّ لَأَدَّتْ حَقَّ صَخْرٍ إِلَى صَخْرٍ
فَقُلْتُ لِنَفْسِي هَاهُنَا طَلَبُ الْأَسَى
وَمَعْدِنُهُ إِنْ فَاتَنِي طَلَبُ الصَّبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبي محلم، وأبيات ابن الدمينه، وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية، ويظهر الفرق واضحاً إذا قابلناها بقول الطغراني من قصيدة طويلة :

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجَوًّا عَلَى فَنٍّ	فَأَشَعَلَتْ مَاخَبًا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي
نَاحَتْ وَمَا فَقَدْتُ الْفَأْ وَلَا فُجِعْتُ	فَذَكَرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي
طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ	أُضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُؤَثَّقِ الْعَانِي
تَشَبَّهْتُ بِي فِي وَجْدِي وَفِي طَرَبِي	هَيْهَاتَ مَا نَحْنُ فِي الْحَالَيْنِ سَيَّانِ
مَا فِي حَشَاهَا وَلَا فِي جَفْنِهَا أَثَرُ	مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلَا مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي
يَارَبَّةَ الْبَانَةِ الْغَنَاءِ تَحْضُنُهَا	خَضِرَاءُ تَلْتَفُ أَغْصَانًا بِأَغْصَانِ
إِنْ كَانَ نَوْحُكَ إِسْعَادًا لِمُعْتَرِبٍ	نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ مَمْنُوءٍ بِهَجْرَانِ
فَقَارِضِينِي إِذَا مَا اعْتَادَنِي طَرَبٌ	وَجَدًا يَوْجِدُ وَسَلْوَانًا بُسْلُوَانِ
أَوَّلًا فَقَضْرُكَ حَتَّى اسْتَيْعِينَ بِمَنْ	يَعْنِيهِ شَأْنِي وَيَأْسُو كَلَمَ أَحْزَانِي
مَا أَنْتَ مِنِّي وَلَا يَعْنِيكَ مَا أَخَذْتُ	مِنِّي الْهُمُومُ وَلَا تَدْرِيْنَ مَا شَانِي
كِلِي إِلَى الْغَيْمِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهُ	دَمْعًا كَدَمْعِي وَإِرْنَانًا كَارِنَانِي

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجد الحزين، وقد هاجته الحماسة الباكية، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الأيكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب، وتهيج الوجدان، وانظر كيف يقول :

طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ أَضَحَّتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُوثِقِ الْعَانِي

وهذا غاية في وصف الحزن، واليأس من السلوان، فإن وصف الحمامة بالتصنع في بثها وشجائها أدل على لوعة الشاعر وأساها، ولا كذلك الاقتناع بحزن الحمام الشاديات، فإن فيه شيئاً من الراحة لأنس الحزين بالحزين.

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة، فإن أبا محلم يأسى لغربته، ويتفجع لبعده أطفاله، في حين إن الحمامة تبكي وقد جمع بينها وبين أفرانها غصن واحد، فماذا تبغي وقد وقاها الله بتديد الشمل وفرقة الأحباب !

وابن الدمينه يراجع حمامات اللوى، ويسألهن العودة، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسرارهِ حين بكيه بجانبه، وإن لم تذرف لهن عيون، وديك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينه، أما الطغرائي فقد أتى بفكرة طريفة، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول.

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألفت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختيار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف : فإن الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق.

البحث الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث.

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبه والمشبه به هيئة منتزعة من عدة أمور متحققة أو مُتَخَيَّلَة، ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة، فيكون لبعضها موارد حقيقية، ولأكثرها موارد خيالية.

وللأمثال — كما قال المرحوم أستاذنا المهدي — أربعة أضرب :

الأول — ما له مورد حقيقي كمواعيد عُرقوب في قول كعب بن زهير :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

الثاني — الخيالي الممكن، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان أن صبيا كان يستحم في نهر، ولم يكن يحسن السباحة، فأشرف على الغرق، فاستغاث برجل عابر في الطريق، فأقبل عليه، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر، فقال الصبي : « يا هذا ! خلّصني من الموت ثم لُمّني ! ».

الثالث — الخيالي المستحيل، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به، كما فعل نصر بن منيع، وكان خارجاً على المأمون، فسير إليه جيشاً ظفر به، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه، فقال : يا أمير المؤمنين ! أسمع مثلاً خطر على بالي ؟ فقال : قل، فانشأ يقول :

زَعَمُوا بَأْنَ الصَّقْرَ صَادَفَ مَرَّةً عُصْفُورَ بَرٍّ سَاقَهُ التَّقْدِيرُ
فَتَكَلَّمَ الْعُصْفُورُ تَحْتَ جَنَاحِهِ وَالصَّقْرُ مُنْقَضٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
إِنِّي لِمِثْلِكَ لَا أُتِمُّ لُقْمَةً وَلَئِنْ شُوِيْتُ فَإِنِّي لَحَقِيرُ
فَتَهَاوَنَ الصَّقْرُ الْمُدِلُ بِصَيْدِهِ كَرَمًا وَأَفْلَتَ ذَلِكَ الْعُصْفُورُ

الرابع — الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل، وهو ما جمع بين الناطق وغيره، كحديث الحية والأخوين : فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما وادياً فيه حية تحميه، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته. فقال أخوه : والله ما في الحياة خير بعده، ولأطلبن الحية. فلما لقيها وهما يقتلها قالت : ألا ترى أني قتلته وندمت على ما كان مني ! فهل لك في الصلح، فأدعك في هذا الوادي آمناً، وأعطيك دية أخيك كل يوم ديناراً ؟ فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، وما زالت تعطيه حتى كثر ماله. فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعني هذا العيش، وأنا أرى قاتل أخي ! فعمد إلى فأس فأحدها ثم انتظر، فلما مرت به ضربها فشجها وأخطأ مقتلها، فقطعت عنه الدينار وتوعدته فخاف شرها، وقال : هل لك أن نتعاهد على المودة كما كنا ؟ فقالت : لا ! لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك وجدت عليّ، وكلما ذكرت الشجرة التي في رأسي وجدت عليك ! وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة :

وَإِنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوِي الضُّعْنِ مِنْهُمْ وَمَا أَصْبَحْتُ تَشْكُو مِنَ الْوَجْدِ سَاهِرَةً
كَمَا لَقِيتُ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا وَمَا انْفَكَّتِ الْأُمُثَالُ فِي النَّاسِ سَائِرَةً
فَقَالَتْ لَهُ أَدْعُوكَ لِلْعَقْلِ وَافِيًا وَلَا تَغْشِيَنِي مِنْكَ بِالظُّلُمِ بَادِرَةً^(١)

(١) العقل — هنا — هو الدية.

فَوَاتَّقَهَا بِاللَّهِ حِينَ تَرَاضِيَا
فَلَمَّا تَوَفَّى الْعَقْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
تَذَكَّرَ أَنِّي يَجْعَلُ اللَّهُ فُرْصَةً
فَلَمَّا رَأَى أَنَّ ثَمَرَ اللَّهِ مَالَهُ
أَكْبَّ عَلَى فَاسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا
فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرِ مُشِيدٍ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَاسِيَهُ
فَقَالَ تَعَالَى نَجْعَلُ اللَّهَ يَبْنِيَا
فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ أَفْعَلُ إِنِّي
أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي

فَكَانَتْ تَدِيرُ الْمَالَ غِبًّا وَظَاهِرَهُ
وَجَارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الْحَقِّ جَائِرَهُ
فَيُصْبِحُ ذَا مَالٍ وَيَقْتُلُ وَاتِرَهُ
وَأَثْلَ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَفَاقِرَهُ
مُذَكِّرَةً مَثْنِ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ
لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِئَ الْكَفَّ بَادِرَهُ
وَلِلْبَرِّ عَيْنٌ لَا تُغْمِضُ نَاطِرَهُ
عَلَى مَالِنَا أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَهُ
رَأَيْتُكَ غَدَارًا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
وَضَرْبَةً فَاسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي
فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ
مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا
يُوعِدُونَ. وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ
مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

فإن هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير حال الأبرار والفجار، وما لهؤلاء من
الحزى، وما لأولئك من النعيم.

وأُصرح من هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴾

فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق، وإنما المراد تصوير التكليف وما
فيها من المشقة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق
الأشياء.

وكذلك قوله عز شأنه : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي
يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا
وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسَائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

فإن الغرض تصوير القدرة الإلهية، وما لها من السلطان المطلق في الأرض
والسمااء. وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصدها الترغيب
والترهيب كقوله تبارك اسمه :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

فإنك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع الخفيف، ثم تراه يتبع ذلك بقوله :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

هذا في الترهيب، ثم قوله في التشويق إلى دار النعيم :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مَنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾. وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ يَمِينِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

فَهُمْ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الدِّينِ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْمَخَالَفَةِ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَبَلُوغِ الْغَايَةِ فِي الصَّدِّ وَالنَّكُوصِ، مِمَّا يَمَثُلُونَ بِحَالٍ مِنْ جُعَلٍ عَلَى قَلْبِهِ كَنَانٌ فَهُوَ لَا يَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَلَا يَرَعُوي لِقَبُولِهِ، وَبِحَالٍ مِنْ ضَرْبٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَرَادِهِ بَسَدٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ فَهُوَ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَى بَغْيَتِهِ بِحَالٍ.

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾.

فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظاً سوى أنه يثقل عليه، ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت، وقرن بعضها إلى بعض^(١).

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل وإنما يعني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال.

(١) راجع أسرار البلاغة.

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض، فقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ تمثيل يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله. أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أُمَرْتُ بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

فإنه لا شك في أن هذا تصوير للغرض، لا للمعنى، والمعنى جزء من الغرض، فإن هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان.

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين :

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ
 كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ
 وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ
 وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ.
 فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
 أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ
 وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ
 إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
 وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
 وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
 تَعْمَلُونَ ﴿

وأحب أن يذكر القارئ أي أتكلّم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر
 عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه
 النسخ وضروب التأويل، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة
 إلى الجهاد.

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتبثيت المعنى وتأكيده حين يقتضي المقام ذلك
 والقرآن لا يرى غضاضة في التكرار حين يحتاج إليه، بل يراه واجبا محتوما الأداء
 وإنك لتجده في هذه الآيات يُبدى ويعيد في لعن المشركين وتحقيرهم، والدعوة

إلى تعذيبهم، وإذلالهم. وتقتيلهم، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية. ألا تراه يوصي بالرفق حين يقول :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجّر من جوانبه الدماء، فيقول : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾. ثم لا يكفيه هذا بل يقول : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ثم لا يكفيه هذا بل يقول : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾. ثم يعود فيقول : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾. ثم يثور فيقول : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وأودّ أن يذكر القارئ أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال، وكانت هذه الغضبة التي تفيض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية، لا إثم فيها ولا عُذوان. أقول ذلك ليعرف القارئ السر في أني أجعل من القرآن صورةً شعرية، وإن لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام من الشعراء، فليس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع المحض، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذها بالقوة والجبروت.

— ٥ —

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عزّ شأنه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ : إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَيْنَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاعْفُ عَنِّي لِأَنِّي كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿١٠﴾

اتل هذا أيها القارئ مرة ثانية وثالثة، وحدثني أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع ؟ وهل تجد أخف منه على السمع، وأحب منه إلى القلب، وأرفق منه بالنفس ؟ ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما يجري السحر في الطرف الكحيل، ويتغلغل الإيمان في قلب قارئه كما يتغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به ابنه الوحيد ؟ ؟ .

— ٦ —

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعُظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

* * *

وأنا أستطيع إيراد المئات من الصور الشعرية في القرآن، لو سمح الوقت، ولكن
هيهات ! فليكتف القارئ بذلك، وليعلم أن في هذا المنهج غناء أيّ غناء، لمن يريد
الموازنة بين الكتاب والخطباء، فإن التأثير يتركز على ما في الخطب والرسائل من
الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب. وكم في خطب علي بن أبي
طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة، التي تسكن إليها شوارد النفوس !

البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض. والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأي، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان.

— ١ —

كان النقد يرتكز على وحدة البيت عند نقد الشعر، وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس ! ونحن في تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تمثل الأغراض، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة، والأخيلة الرائعة، التي تأتي في تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعاني أصدق تمثيل.

أما اللفظ المختار فكقول كثير :

بَابِي وَأُمِّي أَنْتِ مِنْ مَظْلُومَةٍ طَبْنِ الْعَدُوِّ لَهَا فَغَيْرَ حَالِهَا^(١)

(١) طبن بمعنى فطن، وهو طبن : عالم. وطبنت النار : دفنتها لكلا تطفأ في الطابون، وهو مدفنها. وأهل مصر يسمون المخبز : « الطابونة » ولذلك أصل فصيح.

لَوْ أَنَّ عَزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا
وَسَعَى إِلَيَّ بِصَرْمٍ عَزَّةً نِسْوَةً جَعَلَ الْمَلِكُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا

وهذه أبيات عادية، ولكن كلمة « موفّق » في قوله :

لَوْ أَنَّ عَزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل، لأنه يريد أن يخيّل إليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق، وأنها لو خاصمت الشمس في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بُدّ من التوفيق ليحكم بتفوّق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلّا حين يلتبس الحق، ويتعذر الفصل وحسب هذه الحسنة أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال.

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل :

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآئِبٍ

فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء، وصوّر الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يؤوب، وفي أوبته صرف هذه النجوم.

اذكر هذا ثم تعال ننظر : أهذا هو الغرض الذي سيق من أجله الحديث ؟ كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا الغرض في هذه الأبيات :

كَلَيْنِي لِيَهْمٌ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءٍ الْكَوَكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآئِبٍ
وَصَدْرِي أَرَاخَ اللَّيْلِ غَازِبٌ هَمُّهُ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع قصيدته فقد تحدث عن همّ الممضّ الموجه، وليله الذي طال بطوله بثه وشجاءه، وصدره الذي أراح الليل ما عذب من همّه، وهذا أيضاً خيال رائع : فقد صوّر الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً، ثم تُراح ليلاً إلى الحظيرة، وكذلك يُشغل المرء عن

همومه بالنهار فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلتته من جديد.

وهذا المعنى أروع من قول امرئ القيس :
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجِلْ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
وإن قال العتبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر الآداب^(١).
وفي مثل الغرض الذي أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري.
فِي لَيْلٍ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعَرْضُ وَالطُّولُ
كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْضُولُ
لَا فَارَقَ الصُّبْحُ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ
وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
لِسَاهِرٍ طَالَ فِي صَوْلٍ تَمْلَأُهُ
كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَقْشُولُ
مَتَى أَرَى الصَّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ
وَاللَّيْلُ قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرَايِلُ
لَيْلٌ تَحِيرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جَهَةِ
كَأَنَّهُ فَوْقَ مَثَرِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
نُجُومُهُ رُكَّذٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ
كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَيَّ شَحْطُ
مَنْ دَارُهُ الْحَزَنُ مِمَّنْ دَارُهُ صَوْلُ
اللَّهُ يَطْوِي بِسَاطِ الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا
حَتَّى يُرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وَهُوَ مَأْهُولُ
وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض، ففي كل بيت

(١) ص ١٦٦ ج ٣ من الطبعة الأولى.

معنى خاص، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض، فليس هناك ريب في أن قوله :

لَا فَارَقَ الصُّبْحُ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
فيه معنى جميل، وخیال رائع، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة. وكذلك قوله :

لَيْلٌ تَحِيرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
فيه خیال يخلب العقول، وأي خیال أروع من حيرة الليل، وتقبيده فوق متن الأرض بشكال ! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفرداً لا سابق له ولا لاحق، فأی تأثير يكون له في النفس وهو في ذلة الیتیم !

وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد :

أَنْعَى فَتَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ مَا مِثْلُ مَنْ أَنْعَى بِمَوْجُودِ
أَنْعَى فَتَى مَصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ
وَأَنْتَلَمَّ الْمَجْدُ بِهِ ثُلْمَةً جَانِبُهَا لَيْسَ بِمُسْدُودِ
فَالآنَ تُخَشَى عَثَرَاتُ النَّدى وَصَوْلَةُ الْبُخْلِ عَلَى الْجُودِ

ففي كل بيت معنى جميل، وفي كل بيت خیال رائع، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، ومنها يتكون الغرض، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد.

— ٢ —

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك، فقد ذهب الشكل برشد طريف بن أبي وهب العبسي، فقال يرثي ابنه بهذه الكلمات الموجعات التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض :

أَرَابُعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمَلِي فَفِي الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ

فَإِنَّ الَّذِي تَبْكِينَ قَدْ حَالَ دُونَهُ
نَحَاهُ لِلْحَدِّ زِبْرَقَانٌ وَخَالِدٌ
وَأَيُّ فَتَى وَارَوْهُ تُمَتَّ أَقْبَلَتْ
وَوَظَلَّتْ بِي الْأَرْضُ الْفَضَاءُ كَأَنَّمَا
وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرْفُهُ
لَعْنُ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّى مَكَانَهُ
لَقَدْ بَقِيتُ مِنِّي قَنَاءُ صَلِيبَةٍ
وَمَا حَالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالَهَا
تُرَابٌ وَزُورَاءُ الْمَقَامِ دَحُولٌ^(١)
وَفِي الْأَرْضِ لِلْأَقْوَامِ قَبْلُكَ غُولُ
أَكْفُهُو تَحْشُو مَعَاً وَتَهِيلُ
تَصْعَدُ بِي أَرْكَانُهَا وَتَجُولُ
لِعَهْدِ عُيَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
عَلَى حِينِ شَيْبِي بِالشَّبَابِ بَدِيلُ
وَإِنْ مَسَّ جُلْدِي نَهْكَةٌ وَذُبُولُ
إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ

فقد تنقل الشاعر من معنى إلى معنى، ومن غرض إلى غرض، تحت وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء إلى الجزع، ومن الجزع إلى العزاء، فإنك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول :

أَرَابُعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمَلِي فَفِي الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ
ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول :

وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرْفُهُ لِعَهْدِ عُيَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
ثم يعود فيقول :

وَمَا حَالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالَهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ
وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال.

— ٣ —

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمداني^(٢) إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحيري، وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأغراض، وانظر قوله في وصف العلم :

(١) الدحول : هي الحفرة الغامضة.

(٢) راجع مذاهب بديع الزمان الإنشائية في الجزء الأول والثاني من كتاب (النثر الفني).

« والعلم أطال الله بقاء القاضي شيء كما تعرفه بعيد المرام، لا يصاد بالسهم ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام، ولا يضبط باللجام، ولا يورث عن الأعمام ولا يكتب للثام، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ومن التوفيق مطراً صيباً، ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقياً نافعا، والعلم علق لا يباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، وردّ الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص على من زكا زرعه، وكرم أصله وفرعه، ووعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه. فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء، وأفرغ جده على الكيس وهزله على الكاس؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في البذر، ثم لا ينشب إلا في الصدر وطائر لا يئذعه إلا قفص اللفظ، ثم لا يعقله إلا شرك الحفظ، وبحر لا يخوضه الملاح ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبل لا يُتَسَنَّم إلا بخطا الفكر، وسما لا تُصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد، أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، ويشيب أثرابه، ثم يلبس دينته، ليخلع دينته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطيل حباله، وييدي شقاشقه، ليغطي مخارقه، ويبيض لحيته ليسود صحيفته، ويظهر ورعه، ليخفي طمعه، ويغشي محرابه، ليملا جرابه، ويكثر دعاءه، ليحشو وعاءه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويقعد حاكماً ! هذا إذا المجد كآله بقفزان ! »

فهذه طائفة من المعاني ترجع إلى غرض واحد : هو أن العلم شيء عزيز لا يناله بعد الجهد إلا كرام النفوس^(١).

ويمكن للناقد أن يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف، ولكنه لن ينكر

(١) وهذا لا ينافي أن غرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيري.

على الكاتب أنه أفصح عن غرضه، وبلغ دعوته، بل وصل بها إلى قرار القلوب. وأهمية الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين المعاني في النفس، والوصول إلى التأثير الذي هو غاية البيان.

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :
« وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منها أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم، ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفاهم من مال الأيامي ؟ وما ظنك بدارٍ عمارتها خراب الدُّور وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك في رجل يعادي الله في الفلُس، ويبيع الدين بالثمن البخس، ومن حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت وباطن أصحاب السبت، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت ؟ وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صُوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكرديّ لا يُغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ ! وما زلت أبغض حال القضاء طبعاً وجبلةً، حتى أبغضتهم ديناً وملةً، وألغيتهم دربةً حتى لغيتهم قربةً، بما شاهدت من هذا الحيريّ وقاسيت، وعانيت من خطبه وخبطه ما عانيت ».

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار، وفي جميع العصور، لأن نزعات الإنسانية واحدة، أو كأنها واحدة في الخير والشر. والوصف الصادق يعذب ويستملح في كل قطر وفي كل جيل.

— ٤ —

ولك أن تتخطى النثر المحبّر إلى الكلمات الماثورة التي جاءت بها البديهة، لترى كيف تكون المعاني والأغراض.

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمّني يزيد الرقاشي وقد تمّني بحضرته قوم

فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمناه ! قال « ليتنا لم نُخلَقْ، وليتنا إذا خُلِقْنَا لم نعصِ، وليتنا إذا عصينا لم نمُتْ، وليتنا إذا متنا لم نبعث، وليتنا إذا بعثنا لم نُحاسِب، وليتنا إذا حُوسِبنا لم نُعذَّب، وليتنا إذا عُذِّبنا لم نُخلد ». ».

وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهمَّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليتَه إذ أوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه ». ».

وفي هاتين الأُمْنِيَّتَيْنِ وصفٌ دقيقٌ لحيرة النفس الإنسانية التي مازالت تكد وتكدح في استكناه أسرار الغيب، ثم سَقَطَتْ صريعة الإعياء، بعد مرارة الإخفاق !

وأحب أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة « ليتنا لم نُخلَق ! » وهي أول نفثة يجود بها المكروب، ثم أخذ يُجِيل نظر الحيرة، ويتمنى إذ خُلِق لو وقاه الله المعصية، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت، إلى آخر ما قال.

وقيل لبعض العرب: أي شيء تتمنى، وأي شيء أحب إليك ؟ فقال: لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير !

وهذه صورة يبسم لها القارئ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس. وأدق منها قول الآخر، وقد قيل له، أجزعت من الموت ؟ وقد صلى ركعتين فأطال، وكان أمر بقتله. فأجاب « إن أجزع فقد أرى كفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وقبراً محفوراً ». ».

وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه. قال هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته، ولا نرجو نصيحته، وأنت

المؤمن غيباً، الناصح جيباً. قال : فأني سأطلق لساني بما خرست عنه
الألسن تأديةً لحق الله تعالى : إنه قد اكتنفتك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم،
وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله ولم يخافوا
الله فيك، فهم حربٌ للآخرة وسلّمٌ للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله
عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وخسفاً. وأنت مسؤول
عما اجترموا وليسوا مسؤولين عما اجترمت. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك :
فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان :
أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفك. قال : أجل يا أمير
المؤمنين لك لا عليك !

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني يتكون منها غرضٌ
واحد. وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق
بين المعاني والأغراض.

وأرجو أن أوفق في الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد
الأصول^(١).

(١) كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف، وهي فصول
كتبت أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يضيف المؤلف إلى هذه
الطبعة ما جد له من الآراء في مدى عشر سنين. ولكننا اكتفينا بما أثبتناه في الطبعة الأولى :
لأن كتاب « النثر الفني » انتهب كل ما وفقنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية، وليس من
الحزم أن ننقل هنا ما سجلناه هناك.

البحث الثالث عشر

الحصري وشوقي

بينّا في الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر في الناقد المُوازن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي نعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عُني به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : هو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحّاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس، الخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظّمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاؤل العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشعر نوعاً من السباق في عالم البيان.

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصري « ياليل الصب متى غده » ودالية شوقي « مضناك جفاه مرقده » فإن لهاتين القصيدتين أثراً في أندية الأدب ومجالس الغناء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومطآن الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظاً، وأشرف معنىً، وأسمى خيالاً.

والحصري^(١) — بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طراً على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف، وتوفي بها رحمه الله، سنة ٤٨٨ وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر^(٢)، وهو القائل :

أَقُولُ لَهُ وَقَدْ حَيًّا بِكَأْسٍ لَهَا مِنْ مِسْكِ رِقَّتِهِ خِتَامُ
أَمِنْ خَدِّكَ تُعْصِرُ قَالَ كَلَّا مَتَى عُصِرَتْ مِنَ الْوَرْدِ الْمُدَامُ

ويقول ابن بسام في وصفه « على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء، تلفت الظمان إلى الماء ».

وكنا نودّ لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق، وله كلف بمعارضة القدماء، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية، وبصير بشؤون الحياة، وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب، واختتمها بالمديح ولكني سأقتصر في الموازنة على صدر

(١) ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش، وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى « الحصر » وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

(٢) راجع وفيات الأعيان.

القصيدتين، إذ كان النسيب هو السبب فما يرجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود^(١).

قصيدة الحصري

يَا لَيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ	أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السَّمَارُ وَأَرْقَاهُ	أَسَفُ اللَّيْلِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ	مِمَّا يَرَعَاهُ وَيَرْصُدُهُ
كَلِفَ بَعْزَالٍ ذِي هَيْفٍ	خَوْفُ الْوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَضَبَتْ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكَا	فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصِيدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنَصُ	لِلسَّرْبِ سَبَائِي أَغِيدُهُ
صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ	أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبُهُ ^(٢)
صَاحِ وَالْخَمَرُ جَنَى فِيهِ	سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبُهُ
يَنْظُرُ مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا	وَكَاَنَّ نَعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيُرِي قُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ	وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّبُهُ
كَلَّا لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلْتُ	عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

يَا مَنْ جَحَدْتَ عَيْنَاهُ دَمِي	وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي	فَعَلَامَ جُفُونِكَ تَجَحَّدُهُ
إِنِّي لِأَعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي	وَأُظْلِمُكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ
بِاللَّهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرِي	فَلَعَلَّ خَيْالَكَ يُسْعِدُهُ
مَا ضَرَّكَ لَوْ دَوَّيْتُ صَنْي	صَبِّ يُدْنِيكَ وَتُبْعِدُهُ

(١) للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية المؤلف، وقد كتب عنه فصولاً أخرى نقد بها مذاهبه الشعرية والاجتماعية، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الأول والثاني من كتاب (البدائع).

(٢) الصنم: هو التمثال، ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب، وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق.

لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْبِكَ عَلَيْهِ عُودُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَزُودُهُ
يَا أَهْلَ الشُّوقِ لَنَا شَرَقٌ بِالْذَّمِّعِ يَفِيضُ مُورَدُهُ
يَهْوَى الْمُشْتَاقُ لِقَاءَ كُمو وَصُرُوفُ آلِ الدَّهْرِ تُبَعِّدُهُ

مَا أَحْلَى الْوَصْلَ وَأَعَذَبَهُ لَوْلَا الْأَيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بِالْبَيِّنِ وَبِالْهَجْرَانِ فَيَا لَفُؤَادِي كَيْفَ تَجْلُدُهُ

قصيدة شوقي

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحْمَ عُودُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهَّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُفِيدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُنَّه وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبِعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوِّقَةٍ شَجْنًا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ
كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرِكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَسَاكَ بَعْمُضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيْالَكَ مُسْعِدُهُ
الْحُسْنُ حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ وَالشُّوْرَةَ أَنَّكَ مُفَرِّدُهُ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطَّعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ
جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكُ خَلْدُكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرَتْ لِحْدُكَ أَشْهَدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرُكُهُ فَبِأَيِّ وَاسْتَكْبَرُ أَصِيدُهُ
وَهَزَزْتُ قَوَامَكَ أَعْطِفُهُ فَنَبَا وَتَمَنِّعُ أَمْلَدُهُ
سَبَبُ لِرِضَاكَ أَمَهَّدُهُ مَا بَالُ الْخَضِرِ يُعَقِّدُهُ

يَبْنِي فِي الْحُبِّ وَيُنْكَ مَا لَا يَقْدِرُ وَاشِ يُفْسِدُهُ
 مَا بِالْ عَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوانِ وَأُوصِلُهُ
 وَيَقُولُ تَكَادُ تُجَنُّ بِهِ فَأَقُولُ وَأُوشِكُ أُغْبِلُهُ
 مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سِلْمَتُ يَدِهِ
 نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَعْبِدُهُ
 حُسَادِي فِيهِ أُعْذِرُهُمْ وَأَحَقُّ بِعُذْرِي حُسَادُهُ
 قَسَمًا بِشَائِيَا لَوْلِيَّهَا قَسَمَ الْيَاقُوتِ مُنْضِدُهُ
 وَرَضَابُ يُوعَدُ كَوَثَرُهُ مَقْشُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
 وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَشْوَدُهُ
 وَقَوَامٍ يَرْوِي الْغُصْنَ لَهُ نَسَبًا وَالرَّمْحَ يُفْنِيهِ
 وَبِخَصْرِ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
 مَا نُحْتُ هَوَاكَ وَلَا خَطَرْتُ سَلَوَى بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض، وإنا لنجد الحصري تكلم عن
 طول الليل، وطيف الخيال، وخمر الرضاب، وسيف المقلة، وجناية العين، وحمرة
 الخد، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب. ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضني،
 وطيف الخيال، وجمال المحبوب، وجناية العين، وحسن القد والجيد، ودقة الخصر،
 والصبر على الوشاة، وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة
 من السلوان، فقصيدة شوقي إذاً أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإنا لنجد الحصري يقول :
 يَأْلِيلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
 رَقْدُ السُّمَّارِ وَأَرْقَاهُ أَسْفُ لِلْيَيْنِ يُرَدِّدُهُ

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْضَاهُ

ونجد شوقي يقول :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرَقْدُهُ	وبَكَاهُ وَرَحِمَ عُودُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقَاً إِلَّا رَمَقَاً	يُثْقِيهِ عَلَيْكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأَوُّهُ	وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبَعُهُ	وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيَعْلَمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ	شَجْنَاً فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية، لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرَقْدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحِمَ عُودُهُ

أرق من خطاب الليل في قول الحصري :

يَأْتِيْلُ الصَّبَّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

وقول شوقي في حيرة الحب وعذابه وفنائه :

حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقَاً إِلَّا رَمَقَاً	يُثْقِيهِ عَلَيْكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأَوُّهُ	وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري :

رَقَدَ السُّمَّارُ وَأَرْقَاهُ أَسْفُ لِلْيَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقول شوقي :

وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبَعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

أقرب في صدقه إلى الواقع من قول الحصري :

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْضَاهُ

وقول الحصري في تصيّد الطيف :

نَصَبْتُ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصَيِّدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنَصٌ لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيَدُهُ

أبرع من قول شوقي :

كَمْ مَدُّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيِّدُهُ
فَعَسَاكَ يَغْمُضُ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيْالَكَ مُسْعِدُهُ

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة، وهي تمنع الطيف : فليس في طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبته كلما مدّ له الأشرار.

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله :

كَمْ مَدُّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيِّدُهُ

لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن، وإن الحسن لمهيب الجناح^(١).

ويروقني قول شوقي :

مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَعْبِدُهُ
حُسَّادِي فِيهِ أَغْدَرُهُمْ وَأَحَقُّ بِغُذْرِي حُسْدُهُ

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه وَيَحْنُو عليه، في ظلمه وُعدوانه، ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون صلاةً للحسن، إن قَضَى الله أن نصلي له، كما يصلي فريق للشمس عند الشروق، والهوى — كما قيل — إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول :

(١) هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر :

حمى نفسه الحسن أضعاف ما حمى نفسه الجمر لما التهب

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
فإن الحسن لا يُعبد بأرق من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود
بالتفرد والجلال.

وقول الحصري :

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبْدُهُ
أروع وأبدع من قول شوقي :
وَرُضَابِ يُوعَدُ كَوَثْرُهُ مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذ نادر
المثال، وفيه وحده صورة شعرية رائعة، وما ردّدت إلا فتنّت به فتنة جديدة وظهر
لي منه معنى جديد، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه، ولا حدّ لقدرته على تصريف
القلوب.

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » في قوله :

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبْدُهُ
وما هذه العريضة يا صاح ؟ إنها الأشرار التي يقيدك بها اللحظ، وأنت تنهل
من وَرْدِهِ العذب الجميل !

وقول شوقي :

جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشَرْتُ لِحَدِّكَ أَشْهَدُهُ

أرق من قول الحصري :

يَا مَنْ جَحَدْتُ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَّاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن، وزاده تمكيناً في
النفس، على ما فيه من الابتدال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول :

لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْبِكَ عَلَيْهِ غُودُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ

ولا نجد هذه النعمة المحزنة في قصيدة شوقي. وإنما لتذكرنا بهذا البيت الحزين :

وَأَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي الَّذِي أُرْتَجِي مِنْكَ وَتُدْنِي أَجْلِي

مِظَانُ الضَّعْفِ

وإني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري :

صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبُهُ

لأن كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية^(١). والعرب تستملح « الدمية » في وصف المرأة الجميلة. والدمية هي الصورة المنقشة من الرخام، والجمع دُمى، قال بعض الأعراب :

وَإِنِّي لِأَهْدَى بِالْأَوَانِسِ كَالدُمَى وَإِنِّي بِأَطْرَافِ الْقَنَا لِلْعُوبِ
وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُنْجُهِتِي وَلَوْثَةِ أَغْرَابِيَّتِي لِأَدِيبِ

وكذلك أستضعف قول الحصري :

مَا أَحْلَى الْوَصْلَ وَأَعَذْبَهُ لَوْلَا الْأَيَّامُ تُكَادُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ قِيَا لَفُؤَادِي كَيْفَ تَجْلُدُهُ

وأضعف منه قول شوقي :

بَيْنِي فِي الْحُبِّ وَبَيْنَكَ مَا لَا يَقْدِرُ وَاشٍ يُفْسِدُهُ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْحِدُهُ

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين، وهو لا يزيد

(١) لكثرة ما ورد في ذم الأصنام، وقد أشرنا في هامش سلف إلى أن هذه الكلمة لا تزال حية على ألسنة أهل المغرب، وهم يقولون « صنم » حينما يشيرون إلى التمثال.

شيئاً عن الصوت العامي المشهور « كيد العواذل كايدي بس اسمع شوف ».

وكذلك لا قيمة لقوله :

وَبَخَصِرْ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ

وهي مبالغة مردودة، لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون
أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال :

وَقَوَامٌ يَرْوِي الْعُصْنَ لَهُ نَسَباً وَالرُّمَحُ يُفْنِيْدُهُ

كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال :

إِنِّي لِأُعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي وَأَظُنُّكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ

فإن هذا خيال فقهاء، لا خيال شعراء !

روعة الخيال

وإنه ليَجْمُلُ بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع،

وإننا لنستجيد قول الحصري :

يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيْرِيقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّبُهُ
كَلاَّ لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلْتُ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدَهُ

وإن البيت الأول لَمِنْ وَثَبَاتِ الْخِيَالِ، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع

ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي :

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِيَا الْأَضْلَعِ مَعْبَدُهُ

وللقارئ أن يلومنا في استجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضاً خيال

فقهاء، لا خيال شعراء. ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ

التي استملحها العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو، وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع غُنيت بتفصيله في غير هذا الحديث^(١)، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس، وكان خياله قريباً في الحسن من خيال الحصري، إذ توهم اللحظ سيفاً يكاد يغمده النعاس، وإني لمفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

وإنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا : فإن الحصري لم يَجْرِ في قصيدته إلا على الفطرة، وكان من ذلك أن رَضِيَ بعفو الخاطر. أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق، وكان من ذلك أن غني بترتيب المعاني، واختيار الألفاظ، وتنوع الأغراض. على أن هذا التكلف لم يمس بلا عيوب، فإنه لا معنى لقول شوقي :

وَبِخَالٍ كَادَ يُحْجُّ لَهُ لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أُسُودُهُ

ولا رونق لقوله :

وَتَمَتَّتْ كُلُّ مُقَطَّعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبَعْتُ تَشْهَدُهُ

الحكم

وللقارىء — إن شاء الحكم — أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن، ومظان الضعف، ومواقع الخيال : ليرى أيّ الشعارين أولى بالسبق، وأيهما أرجح في الميزان. وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب، فإننا لا نَعْنَى بالأشخاص، وإنما يعيننا أن ندرس الشعر، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف، والحسن والقبح. وكذلك ندرس البيان، ونحن نوازن بين الشعراء.

(١) تجد هذا البحث في كتاب « أثر الشعر في ربط الشعوب ».

البحث الرابع عشر

البحثري وشوقي

قلنا إن لشوقي كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء، ووازننا بين داليتيه ودالية الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحثري، فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة، ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولاً أن شوقي يتأثر البحثري منذ زمن بعيد، ويودّ لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحثرية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب « أم الحسين » :
النَّيْلُ فَجَّرَ مَشْرَعَيْنِ وَعَيْلَمًا وَتَفَجَّرَتْ يُمْنَاكِ خَمْسَةَ أَبْحُرِ
أَحْيَيْتَ فِي فَضْلِ الْمُلُوكِ وَعِزِّهِمْ مَا مَاتَ مِنْ أُمِّ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرِ
إِنَّ الَّذِي قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا فِي بُرْدَتِكَ أَعَادَ فِي الْبُحْثَرِي

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :
وَعَظَّ الْبُحْثَرِيَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَّتْنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ

حياة البحتري

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٣٠٦ بِمَنْبِج بين حلب والفرات. ومنبج — بالفتح، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة وجيم — بلد قديم طيب الهواء. وُلد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم : البُحتري، وأبو فراس. ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك، ولي بك يا أمير المؤمنين. قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

وقال وكيف ذلك، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك نُحْلِقُ أمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأحذو حذوه.

قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدوية
قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرٌ كُلُّهُ !

وفي التشويق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر، وقد خلى بها شُعْبَةً من فؤاده :
وَلَيْلَةٌ عَيْنِ الْمَرْجِ زَارَ خِيَالُهُ فَهَيَّجَ لِي شَوْقًا وَجَدَّدَ أَحْزَانِي
فَأَشْرَفْتُ أَعْلَى الدَّيْرِ أَنْظُرُ طَامِحًا بِالْمَحِ آمَاقٍ وَأَنْظُرُ إِنْسَانَ
لَعَلِّي أَرَى آيَاتَ مَنْبِجَ رُؤْيَةٍ تُسَكِّنُ مِنْ وَجْدِي وَتَكْشِفُ أَشْجَانِي
فَقَصَّرَ طَرْفِي وَأَسْتَهْلَ بِعَبْرَةٍ وَفَدَّيْتُ مَنْ لَوْ كَانَ يَدْرِي لَفَدَّانِي
وَمَثَلُهُ شَوْقِي إِلَيْهِ مُقَابِلِي وَنَاجَاهُ عَنِّي بِالضَّمِيرِ وَنَاجَانِي

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السرفي رقة البحتري، وجمال شعره، فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدوية، أثراً كبيراً في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب^(١)، ولأن البحتري كان كثير الحنين إلى منبج، وكان كثيراً ما يشيد بها في شعره ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي :

(١) انظر تفصيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الجرجاني في الجزء الثاني من كتاب : « النثر الفني ».

لَا أَنْسِينَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وَظِلَالٌ عَيْشَ كَانَ عِنْدَكَ سَجَسَجٍ
فِي نِعْمَةٍ أَوْطِنْتُهَا وَسَكَنْتُ فِي أَفْيَائِهَا فَكَأَنِّي فِي مَنَبَجٍ

بداية حياته

شبَّ البحرى وترعرع في منبج. وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل
والباذنجان ! !

قالوا « وكان منه ما كان في علوة التي شبَّ بها في كثير من أشعاره، وهي
بنت زريقة الحلبيّة، وزريقة أمها » ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبيّة أم
علوة كان لها شأن في عالم الجمال، وأن البحرى حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده
إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في مهد المرح، وتقلبت فوق أعطاف الدلال.
ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلّفوا لنا دُميّة لعلوة، وأرونا كيف كانت
هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد، وعلمته كيف تكون
الشكوى، وكيف يكون الأنين ! وإن الشعر لمدين لهذه الإلهة التي أوحى إلى
البحرى أن يقول بعد أن خلاها بالشام، وسكن العراق:

أَعِيدِي فِي نَظْرَةٍ مُسْتَشِيبِ	تَوَخَّى الْأَجَرَ أَوْ كَرِهَ الْأَثَمَا
تَرِي كِبْدًا مُحَرَّقَةً وَعَيْنًا	مُورَّقَةً وَقَلْبًا مُسْتَهَامَا
أَلَامٌ عَلَى هَوَاكِ وَلَيْسَ عَدْلًا	إِذَا أَحْبَبْتُ مِثْلَكَ أَنَّ الْأَمَا
لَقَدْ حَرَّمْتُ مِنْ وَصْلِي حَلَالًا	وَقَدْ حَلَلْتُ مِنْ هَجْرِي حَرَامَا
تَنَاءَتْ دَارُ عَلْوَةٍ بَعْدَ قُرْبِ	فَهَلْ رَكِبْتُ يُبْلِغُهَا السَّلَامَا
وَجَدَدَ طَيْفُهَا عَتَبًا عَلَيْنَا	فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِإِمَامَا
وَرُبَّتْ لَيْلَةٌ قَدْ بَتُّ أَسْقَى	بَعَيْنَيْهَا وَكَفَيْهَا الْمُدَامَا
قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَاعْتَنَقْنَا	وَأَفْنَيْنَاهُ ضَمًّا وَالتِّزَامَا
لَعْنُ أَضْحَتْ مَجْلِسُنَا عِرَاقًا	مُشْرِقَةً وَحِلَّتْهَا شَامَا
فَلَمْ أَحْدِثْ لَهَا إِلَّا وَدَادًا	وَلَمْ أَرْدَدْ بِهَا إِلَّا غَرَامَا

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحرى سلطان. ومن الوقار أن لا نعرض

لها في هذا الحديث، وقد بسطنا عنها القول في كتاب « مدامع العشاق » ويكفي أن نذكر أنموذجاً من شعره في وصف تلك النفس، وإنه ليقول :

هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى الظُّهْرَانِ مِنْ حَلَبٍ وَنَشْوَةٍ بَيْنَ ذَاكَ الْوَرْدِ وَالْآسِ
أُمْدٌ كَفِّي لِأَخَذِ الْكَاسِ مِنْ رَشَاءٍ وَحَاجَتِي كُلُّهَا فِي حَامِلِ الْكَاسِ
بِقُرْبِ أَنْفَاسِهِ أَشْفِي الْعَلِيلَ إِذَا دَنَا فَقَرَّبَهَا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بجمّص، وعرض عليه شعره. وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره. فلما سمع البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس. فلما تفرقوا قال له : أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك ؟ فشكا إليه خلة، فكتب إلى أهل مَعَرَّة النعمان يشهد له بالحدق ويوصيهم بإكرامه، قال البحتري « فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته » وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري، فأنشدني بيت أوس بن حَجَر :

إِذَا مُقَرَّمٌ مِنَّا ذَرَى حَدُّ نَابِهِ تَخْمَطُ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمٍ^(١)

وقال : نعت إليّ نفسي ! فقلت : أعيدك بالله من هذا ! فقال إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيفاً مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم، وهو من رهطه، فقال يابني : نعى نفسي إليّ إحسانك في كلامك، لأنّا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله. قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر

(١) الفحل المكرم هو الذي أقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة وقرمه، وتخمط الفحل : هدر. ومن المجاز : تخمط الرجل : تغضب وثار. والمراد هنا من تخمط الناب ظهوره وارتفاعه.

البحثري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر، حتى قالوا إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحثري : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي « أحسنت، أنت أمير الشعراء بعدي » فكان قوله أحب إليّ من جميع ما حويته.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحثري، فقد نوّه بها ابن رشيق، وساقها صاحب زهر الآداب، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا كذلك على أسلوب البحثري في حياته الأدبية، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه. وفيها أيضاً نوع من التربية نحب أن نسجّل في هذا الحديث. قال البحثري : كنت في حدثي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبعي، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة، تخيّر الأوقات، وأنت قليل الهموم، صِفْرٌ من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السّحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أيا، فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معاملة وشرف مقامه، ونصّ المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه : فإن الشهوة نغم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال البحثري : فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة^(١).

(١) السياسة هنا حسن التدبير.

ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهباً للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس ويلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأماكن الحالية. إلا أن أبا تمام — مع أنه مسبوق — وفق كل التوفيق حين قال « واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمته، فإن الشهوة نعم المعين » وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء كانوا شعراء أم كتاباً، أم مصورين، أم مثالين، لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة، وأكد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد، إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمدح، وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء، فلم يتكلم عن الرثاء، ولا الهجاء، ولا الفخر، ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتدال.

ولا يحسن القارئ أن في إقبال البحري على ما أوصاه به أستاذه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحري من نمط واحد.. كلا ! فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ، ولا يمثل الشاعر، لأننا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا بين المنزعين من الفرق البعيد، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب، فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلاً، وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن عناية البحري بوصية أستاذه بياناً لأسلوبه في رياضة نفسه، وتهذيب شعره، فلننظر هذه المناسبة، كيف يروض شوقي نفسه، وكيف يهذب شعره، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمته من شتى الأغراض، فقد صحبنا

شوقي وعاصرناه، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت، فستراه قليل الحديث، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع، لهذا الرجل الصموت، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين، ولكن وقد عرفت شوقي، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليل، وليلاه هي الشعر، وهو بالشعر مجنون، لا مغرم ولا مفتون، فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب.

يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه، وحنايا نفسه، وأعماق ضميره — دخلت عليه، وهو يتأهب لثناء عبد اللطيف الصوفاني، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد، ثم بغتني بهذه الكلمة : « الصوفاني بك معضلة من المعضلات، هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء ؟ » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه، ونفسه، وحسه، ووجدانه في شغل بما يعدّه لثناء الصوفاني بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديد تلك الشخصية، ثم انتظرت يوم التأين، فإذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية :

مَا كَانَ قُصّاً وَلَا زِيَاداً وَلَا سِحْرَ الْبَيَانِ جَاءَ
لَكِنْ إِذَا قَامَ قَالَ صِدْقاً وَجَانِبَ الزُّورِ وَالرِّيَاءِ

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفاً صادقاً حين قال :

« ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم، وينظم في المركبة، وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، وحيث يشاء، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادیء بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظره، وقد برقا وتواترت فيهما حركة الحجّرين، ثم بصره، وقد رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة — فاذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه، جميل البادرة، كعادته في

الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم تنقطع عنه مستظهِراً ما تم منه حافظاً لبقية المعنى الذي يضمّره، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمّت ونسيها شهراً، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن ييزهم — ولا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى، فأما المعنى فيجئ على مرامه، أو على أبعد من مرامه، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الأفرنج والأعراب وفلسفة الحقوق، وحقائق التاريخ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية، استقاهها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى فيه من نسج البحثري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم، وهي أنه نظم شوقي : ذلك شعر العبقرية والتفوق .»

ملاح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحثري وشوقي في قرض الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحثري كتاباً سماه « معاني الشعر »^(١) وترك كتاباً آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي — وإن لم يصنف كتباً في الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به، فقد كان البحثري يحتفي بإنشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين، ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم له، حتى نفر الناس

(١) قد يظن أن هذا كتاب في النقد، ولكننا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعالي.

منه، وعبث به أهل السفه، وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلماً يتحدث عن شعره، وقلماً ينشده، وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم، غير مأمون العواقب، وكثيراً ما آذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البليغ.

وفاء البحري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة الخلق وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي! فلنكتف بهذا التلميح، ولنذكر ما صيّر البحري مثلاً في الوفاء.

كان المتوكل — كما ذكر صاحب زهر الآداب — عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر ويقول له: أنت تتمنى موتي، وتنتظر وقتي! ويأمر الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين، وكان المنتصر معهم، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي: ألا تسمعي ساعة حتى أشكو إليك ما يمرُّ بي؟ قال بلى، وجعل يماطله ويطاوله، وغلق بُعَا الشرايى الأبواب كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل، وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل عاتقه، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه، فقتلا جميعاً، وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري «وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر.» — وللظالم الويل.

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين، وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحري، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافياً في ردعه.

عن رثاء مولاه، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : « ما قيلت
هاشمية أحسن منها ! وقد صرح فيها تصرّيح من أذهلته المصائب عن تخوف
العواقب » وفيها يقول :

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأَنَسَهُ	وَقُوضَ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ
تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً	فَأَصْبَتْ سَوَاءَ دُورُهُ وَمَقَابِرُهُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْقَصْرِ إِذْ رِيحَ سِرْبِهِ	وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَاذِرُهُ
وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهْتِكَتْ	عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهُ
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى	وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَتَهَجُّ زَائِرُهُ
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ	تَنُوبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهُ
تَخْفَى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ	وَأُولَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهُ
صَرِيحٍ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ خُشَّاشَةً	يَجُودُ بِهَا وَالْمَوْتُ حُمْرٌ أَظَاغِرُهُ
حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى	دَمًا بَدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمُ طَالِبٌ	مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتِرُهُ
فَلَا مُلِي الْبَاقِي ثَرَاثُ الَّذِي مَضَى	وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهُ

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك
أن البحترى كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، على أنه لم يقف
عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح
بن خاقان، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه:
تَدَارَكْنِي الْإِحْسَانُ مِنْكَ وَنَالَنِي عَلَى فَاقَةِ ذَاكَ النَّدَى وَالتَّطَوُّلُ
وَدَافَعْتَ عَنِّي حِينَ لَا الْفَتْحُ يُرْتَجَى لِدَفْعِ الْأَذَى عَنِّي وَلَا الْمُتَوَكِّلُ

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية :

مَضَى جَعْفَرٌ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوسَدٍ	وَبَيْنَ قَتِيلٍ فِي الدَّمَاءِ مُضَرَّجٍ
أَطْلُبُ أَنْصَارًا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ مَا	ثَوَى مِنْهُمَا فِي التُّرْبِ أَوْسَى وَخَزَرَجِي

وانظر كيف يقول، وقد بان بعض من يهوى:

عَسَى آيِسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يُوصَلُ وَدَهْرٌ تَوَلَّى بِالْأَجْبَةِ يُقْبَلُ

أَيَا سَكَنًا فَاتَ الْفِرَاقَ بِنَفْسِهِ
أَتَعْجَبُ لَمَّا لَمْ يَغْلُ جِسْمِي الضَّنَى
فَقَبْلَكَ بَانَ الْفَتْحُ عَنِّي مُودَّعًا
فَمَا بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذِي كُنْتُ أُرْتَجِي
وَمَا كُلُّ نِيرَانِ الْجَوَى تَقْتُلُ الْحِشَا
وَحَالَ التَّعَادِي دُونَهُ وَالتَّزْيِيلُ
وَلَمْ يَخْتَرْمْ نَفْسِي الْحِمَامُ الْمَعْجَلُ
وَفَارَقَنِي شَفْعًا لَهُ الْمُتَوَكِّلُ
وَلَا فَعَلَ الْوَجْدُ الَّذِي خِلْتُ يَفْعَلُ
وَمَا كُلُّ أَدْوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

تلك هي نفس البحتري، الذي عذبتة علوة في بداية حياته، وصهره الحزن على المتوكل في أخريات أيامه، وقد عرف القارئ عنه شيئاً فيه بعض الغناء، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف، ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك، والتفجع لنكبات الشعوب، قبل أن يرى كيف وصف البحتري إيوان كسرى، وكيف وصف شوقي قصر الحمراء.

البحث الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية، لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك، والتفجع للشعوب، إذ كانوا في بداية الحياة وكان الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه، وأهله، وذويه، فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب، فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يَسْتُرْ لها عَوْرَةً، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال، وإنما كان كتاب حكمة وموعظة، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية، لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس، ومن إليهم من الجبارة والطغاة،

فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض، لو كان القرآن كتاب فنّ وكتاب خيال.

على ان العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة، ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية، وإن شابوا ذلك بالتحسر على مدارس من معالم اللهو، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب، فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

نَامَ الْخَلِيُّ وَمَا أَحْسُ رُقَادِي
مِنْ غَيْرِ مَا سَقَمٍ وَلَكِنْ شَفَنِي
وَمِنْ الْحَوَادِثِ لَا أَبَالِكَ أَنِّي
لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوَى الَّذِي نَبَّأَنِي
إِنْ الْمَيِّةَ وَالْحُتُوفَ كِلَاهُمَا
لَنْ يَرْضِيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ

وَالْهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وَسَادِي
هَمٌّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فُؤَادِي
ضُرِبْتُ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَسْدَادِ
بَيْنَ الْعِرَاقِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادٍ
أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ
يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي
مِنْ دُونِ نَفْسِي طَارِفِي وَتِلَادِي

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين :

مَاذَا أُؤْمَلُ بَعْدَ آلٍ مُحَرَّقٍ
أَهْلَ الْخَوَزَنَةِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقِ
أَرْضٍ تَخَيَّرَهَا لِطَيْبِ مَقِيلِهَا
جَرَتْ الرِّيَاحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ
وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ
نَزَلُوا بِأَنْقَرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمُ
فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ

تَرَكَوْا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَآبَنُ أُمِّ دَوَادِ
فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ
مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال :

إِمَّا تَرَيَنِي قَدْ بَلَيْتُ وَغَاظَنِي
مَائِلَ مَنْ بَصْرِي وَمِنْ أَجْلَادِي^(١)

(١) الأجلاد : جمع جلد بالتحريك، وهو القوة.

وَعَصَيْتُ أَصْحَابَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا
فَلَقَدْ أُرُوْحُ عَلَى التَّجَارِ مُرَجَّلًا
وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةً
مِنْ خَمْرٍ ذِي نَظْفٍ أَغْنَى مُنْطَقِي
يَسْعَى بِهَا ذُو تَوَمَّتَيْنِ مُشْمَرٌ
وَالْبَيْضُ يَرْمِيَنَّ الْقُلُوبَ كَأَنَّهَا
يَنْطَقْنَ مَعْرُوفًا وَهْنٌ نَوَاعِمُ
وَأَطَعْتُ عَاذِلَتِي وَلَانَ قِيَادِي
مَذَلًا بِمَالِي لَيْنًا أَجْيَادِي
بِسُلَافَةٍ مُزَجَّتْ بِمَاءِ غَوَادِ
وَافَى بِهَا لِدِرَاهِمِ الْأُمَجَادِ
قَنَاتٌ أَنَامِلُهُ مِنْ الْفُرْصَادِ
أَذْحِي يَنْ صَرِيمَةٍ وَجَمَادِ
بَيْضُ الْوُجُوهِ رَقِيقَةُ الْأَكْبَادِ

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عينيته التي يقول فيها:
وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنِّي
أَفْنَيْنٌ عَادًا ثُمَّ آلٍ مُحَرَّقٍ
وَلَهْنٌ كَانَ الْحَارِثَانِ كِلَاهُمَا
لَا بَدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَانْتَظِرْ
وَلْيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً
لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرَيْنِي أَجْزَعُ
فَتَرَكْنَهُمْ بَدَدًا وَمَا قَدْ جَسَعُوا
وَلَهْنٌ كَانَ أَخُو الْمَصَانِعِ تَبَعٌ^(١)
أَبَارِضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تُصْرَعُ
يُنْكِي عَلَيْكَ مُقْنَعًا لَا تَسْمَعُ

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض من
الممالك والشعوب، لكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تُشدُّ إليها الرِّحال، كوقفة
البحثري عند رسوم الإيوان، ووقفة شوقي عند أطلال الحمراء.

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي استلم البحثري أحجاره، وطاف
بأركانه، كان مضرب المثل عند الأعراب، فقد قيل لأعرابي : كيف تصنع بالبادية
إذا انتصف النهار، وانتعل كل شيء ظله ؟ فأجاب : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي
أحدنا ميلاً فَيَرَفُضُ عَرَقًا كأنه الجمان، ثم ينصب عصاه، ويلقي عليها كساءه،
وتقبل الرياح من كل جانب، فكأنه في إيوان كسرى.

(١) المصانع : القصور.

وقد حُكيَ فيما نَقَلَ ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آله في عمارة بغداد، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين، ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملّة وديناً وقوماً أذهبوا ملك بانية لدينٍ ومُلكٍ عظيمٍ، فلم يصغ إلى رأيه وأمر بهدمه، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه فتركه، فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه، لئلا يقال إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة !

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة، وقد تكون خرافة تناقلها الناس، ولكنها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد.

أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس، والأندلس هي الفردوس المفقود، الذي يبكيه المسلمون، ولنتظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحري

وأريد بنفسية البحري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين همّ بوصف الإيوان، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداهما في بداية القصيدة، والثانية في النهاية، أما الأولى فهي الهرب من الهموم، ومن ظلم الأقارب، بالفرع إلى طُلُول الإيوان، ينسى في أكنافها حزنه وبثه، ويستودعها أساه وشجاءه، وذلك حيث يقول :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي	وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ ^(١)
وَتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَغَزَعَنِي الدَّهْدُ	رُ التِّمَاسَا مِنْهُ لَتَغْسِي وَنَكْسِي
بُلُغٌ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي	طَفَفَتْهَا الْأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ
وَبَعِيدٌ مَا يَنْ وَارِدِ رَفْهِ	عَلَّ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خِمْسٍ ^(٢)

(١) الجبس : هو الدنيء الجبان.

(٢) الخمس : شر الأظماء.

وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مُحْمُو
وَأَشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خُطَّةً غَبْنِ
لَا تَرْزُنِي مُزَاوِلًا لاختياري
وقديماً عهدتني ذَا هَنَاتِ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ نُبُوَّ ابْنِ عَمِّي
وَإِذَا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيًّا
لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ
بَعْدَ بَيْعِي الشَّامَ بَيْعَةً وَكُسِ
عِنْدَ هَذِي الْبُلُوَى فَتَنَكَرَ مَسِي^(١)
آيَاتِ عَلَى الدَّنِيَّاتِ شُمُسِ
بَعْدَ لَيْنٍ مِنْ جَانِبِيهِ وَأَنْسِ
أَنْ أَرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهَمُومُ فَوَجَّهْتُ
أَتَسَلَّى عَنْ الْحُظُوظِ وَأَسَى
ذَكَرْتِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي
تُ إِلَى أُبَيْضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دُرْسِ
وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان، وليست الدار داره ولا الجنس
جنسه، لأن لأهله نُعمى عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه، بما أمدوهم
به من الكتائب في أيام القتال، وذلك حيث يقول :

عُمِّرْتُ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارْتُ
فَلَهَا أَنْ أَعِينَهَا بِدُمُوعِ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ نُعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
أَيَّدُوا مُلْكَنَا وَشَدُّوا قَوَاهُ
وَأَعَانُوا عَلَى كَتَائِبِ أَرِيَا
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدُ أَكْلَفُ بِالْأَشْ
لِلتَّعْزِي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأْسِي
مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ
بِاقْتِرَابٍ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غُرْسِ
بِكُمَاةٍ تَحْتَ السَّنُورِ حُمْسِ^(٢)
طِ بِطَعْنٍ عَلَى النُّحُورِ وَدَعْسِ
رَافٍ طُرًّا مِنْ كُلِّ سِنَخٍ وَأُسِ^(٣)

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس، ويبيكي المجد
الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

(١) لا تَرْزُنِي : لا تمتحنني.

(٢) السنور : السلاح.

(٣) الأصل والجنس.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة منشورة تصف حسه ووجدانه، وهو يطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة، فإننا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل بك رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوث قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون :

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورّم لهم ربوع السلم وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة، وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدّد، والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط، فبلغت النفس بمرآة الأرب، وكحلت العين في ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرهما من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكركنك ويصبح بالهرم، فلا يتقارب غير العثق والكرم، طليطلة تطل على جسر البالي، واشبيلية تشبل على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال، فإنه أبلغ من جلي الأثر، وحيّا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، ومن قام في مآتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفري حين تحمل عنه الملا، وعطل من الخلى، ووكل بعد المتوكل للبللى، فرفع قواعده في السير، وبنى ركنه في الخبر، وجمع معالمة في الفكر، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن خلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بايوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه، وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه، وهو تحت كسرى في رصه ووصفه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد

الاندثار. قال صاحب (الفصح القسي في الفتح القدسي) بعد كلام : « فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحرى في وصفه، تجدوا الإيوان قد خرت شَعَفَاتُه وعُفِّرَتْ شُرَفَاتُه، وتجدوا سينية البحرى قد بقي بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها :
صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :
وَالْمَنَايَا مَوَائِلُ وَأَنْوِشُرُ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفَسِ^(١)
فكنت كلما وقفت بحجر، أو طُفْتُ بأثر، تمثلت بأبياتها، واسترحت من موائل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :
وَعِظَ الْبُحْثَرِيُّ إِيْوَانُ كِسْرَى وَشَفَّنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ
« ثم جعلت أروض القول على هذا الروي، وأعجله على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الرقيقة، وأنا أعرضها على القراء، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء »

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي، فهو يسجع ولا يكاد يُبين^(٢)، غير أنه قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة تسير مسير الأمثال، كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان : « يسري زائرها من حَرَمٍ إلى حَرَمٍ، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم ».

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل.
وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحرى فهو عنده « أبلغ من جَلَى الأثر، وحيّا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر » وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي، وكيف كان روح البحرى يُطيف به وهو يطوف بالحمراء.

(١) الدرفس : العلم، وهي كلمة فارسية، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية.

(٢) غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة، وكان يرى نفسه أكتب الناس، ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية، ولكننا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس.

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من
قصيدة البحترى هو قوله :

والمنايا موائل وأنوشـر وان يُزجي الصفوف تحت الدرفسـ

وكنا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان :

ليس يُدري أضع إنسٍ لجنٍّ سكنوه أم صنع جنٍّ لإنسـ

وقوله في بكائه :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرسـ

ولشوقي رأيه، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق.

البحث السادس عشر

حنين شوقي إلى مصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحري ابتداءً سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان، والتنكر لظلم الأقربين، وكان ذلك لأن نزعتة لم تكن اجتماعية، وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتداءً سينيته بقطعة وجدانية، تفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنما يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونه، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد، وإنه ليكي ملاعب شبابه، وعهود صباه، حين يقول في مطلع هذه السينية :

فَاذْكُرْ لِي الصُّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي	آخِثْلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي
صُورَتْ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَسْ	وَصِفَا لِي مُلَاوَةً مِنْ شَبَابٍ
سِنَّةٌ حُلُوءَةٌ وَلَذَّةٌ خَلْسِ	عَصَفَتْ كَالصُّبَا اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا	أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي
كُلَّمَا مَرَّتْ اللَّيَالِي عَلَيْهِ	رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقْسِي
مُسْتَطَارٌّ إِذَا الْبَوَاخِرُ رَنَّتْ	أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوْتُ بَعْدَ جَرَسِ

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى روعة

الحسن في قوله :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى مصر
أعضل من أن يطب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال :

كُلَّمَا مَرَّتِ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقْسِي
مُسْتَطَارًا إِذَا الْبَوَاخِرُ رَنَّتْ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ

وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق، أو هبّ النسيم، كما
كان يتحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطئ المحيط. وأين
وميض البرق، وهبوب الريح، من أصوات البواخر في غسق الليل ؟ ! — ثم قال :

يَا ابْنَةَ أَيْمٍ مَا أَبُوكِ بِخَيْلٍ مَالَهُ مُوَلَعًا بِمَنْعٍ وَحَبْسِ
أَجْرَامٍ عَلَى بِلَالِيهِ أَلَدُّ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجْسِ

والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرؤوها يوم
قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية،
لا قدر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة، فقد كنا نتغنى بقول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَالِيهِ أَلَدُّ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة، نُفرت عنها البلابل المغردة، ثم
صارت مأوى للبوم، ومقيلاً للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين، فكان
شهيد الحرية محمد بك فريد، يرسل الأمانى عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من
سلسيل النيل، ثم لاتجاب له طلبه، ولا يدنو منه مأمول، في حين أن بلاد الفراعنة
كانت مفتحة الأبواب لكل أثيم القلب، وقاح الوجه، خبيث اللسان ! ! وسيظل
قول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَالِيهِ أَلَدُّ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

سيظل هذا البيت ماثراً للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال

والأفنان، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل. أما قوله :
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجَسٍ
فهو زمية مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد، وسيظل غصة يشجي بها
بعض الخلق — ثم قال في خطاب الباخرة :

نَفْسِي مِرْجَلٌ وَقَلْبِي شِرَاعٌ بِهِمَا فِي الدُّمُوعِ سِيرِي وَأُرْسِي
وَأَجْعَلِي وَجْهَكَ « الْفَنَارَ » وَمَجْرَا لِي يَدَ « الشَّعْرِ » بَيْنَ رَمْلٍ وَمَكْسٍ
وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سُلْسِيلِ ظَمًا لِلْسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حِسِّي
بُضْبِحُ الْفِكْرُ وَالْمَسَلَّةُ نَادِي — وَبِالسَّرْحَةِ الزَّكِيَّةِ يُمَسِّي

وأي نفس يمثلها شوقي في هذا الشعر البديع، إنه والله يمثل النفس المصرية،
وحسبي أن أقول : النفس المصرية، وهل في الدنيا — ولولا التقى لأضفت إليها
الآخرة — وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناءه مثل وادي النيل ؟

إن الذي يعيش في مصر، وله ذوق شوقي وإحساسه، ليس بكثير عليه أن
يقول :

وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سُلْسِيلِ ظَمًا لِلْسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حِسِّي

ولقد كانت مصر، ولا تزال باباً من الفتنة لكل من يمسي وله فيها
رأي مُطَاع وبفضلها يقول فرعون :

« أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .
ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده، وهو يشاهد الأهرام : « أبهذه كفر
فرعون بربه ! ». فقال له أحد وزرائه : يا أمير المؤمنين إن الله يقول :
« وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ » .

فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.
وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة، وتغرس فيها من
الجبروت، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك، ويحبب إليه العدوان.
وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في هذه البلاد !

ثم يقول شوقي وهو يمثل الجزيرة والنيل :

وَكَاَنِّي أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيُّكَأً	نَعَمْتُ طَيْرُهُ بِأَرْخَمِ جَرَسٍ
هِيَ بَلْقِيسُ فِي الْخَمَائِلِ صَرْخُ	مِنْ عُبَابٍ وَصَاحِبٍ غَيْرِ نَكْسٍ
حَسْبُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّيْلِ عِرْساً	قَلْبُهَا لَمْ يُجَنِّ يَوْمًا بَعْرَسٍ
لَبَسْتُ بِالْأَصِيلِ حُلَّةً وَشِي	بَيْنَ صَنْعَاءَ فِي الثِّيَابِ وَقَسٍ ^(١)
قَدْهَا النَّيْلُ فَاسْتَحْتُ فَتَوَارَتْ	مِنْهُ بِالْجَسْرِ بَيْنَ عُرْيٍ وَلُبْسٍ
وَأَرَى النَّيْلَ كَالْعَقِيقِ بِوَادِي	وَإِنْ كَانَ كَوَثَرِ الْمُتَحَسِّي
أَبْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ذُو الْمَوَكِبِ الْفَخْمِ	الَّذِي يَحْسِرُ الْعُيُونُ وَيُخْسِي
لَا تَرَى فِي رِكَابِهِ غَيْرَ مَثْنٍ	بِجَمِيلٍ أَوْ شَاكِرٍ فَضْلَ غَرَسٍ

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه، بل عاد إلى هجيره من
النوح على مجد خوفو ورمسيس، وأخذ يقول :

وَأَرَى الْجِيزَةَ الْحَزِينَةَ ثَكْلَى	لَمْ تُفَقْ بَعْدُ مِنْ مَنَاخَةِ رَمْسِي ^(٢)
أَكْثَرَتْ ضَجَّةَ السَّوَاقي عَلَيْهِ	وَسُؤَالَ الْيَرَاعِ عَنْهُ بِهِمْسٍ
وَقِيَامَ النَّخِيلِ ضَفَرْنَ شَعْرًا	وَتَجَرَّدْنَ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسٍ ^(٣)
وَكَاَنَّ الْأَهْرَامَ مِيزَانُ فِرْعَوُ	نَ يَوْمٍ عَلَى الْجَبَابِرِ نَحْسٍ
أَوْ قَنَاطِيرُهُ تَانَقَ فِيهَا	أَلْفُ جَابٍ وَأَلْفُ صَاحِبِ مَكْسٍ
رُوعَةٌ فِي الضُّحَى مَلَاعِبُ جِنِّ	حِينَ يَغْشَى الدُّجَى جِمَاهَا وَيُغْشِي

وكذلك يحسب شوقي، وهو يندب مجد الفراعنة، أن ما في الطبيعة من ماء

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرما من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية.

(٢) يريد رمسيس.

(٣) السلس : من قولهم سلسلت النخلة إذا ذهب منها أصول السعف.

ونبات وجماد ييكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء.
والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لا بتسامه؛ وحين يغضب يحسب الكون
يكتئب لا كتئبه، ولعل هذه السذاجة هي أظرف ما في الشعراء؛ إذ كانت سمة
من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال :

وَرَهِيْنُ الرُّمَالِ أَفْطَسُ إِلَّا	أَنَّهُ صُنْعُ جَنَّةٍ غَيْرِ فُطْسِ
تَجَلَّى حَقِيقَةُ النَّاسِ فِيهِ	سَبْعُ الْخَلْقِ فِي أُسَارِيرِ إِنْسِي
لَعَبَ الدَّهْرِ فِي ثَرَاهُ صَيًّا	وَاللَّيَالِي كَوَاعِبًا غَيْرَ عُنْسِ ^(١)
رَكَبَتْ صَيْدُ الْمَقَادِيرِ عَيْنِيهِ	لِنَقْدِ وَمِخْلَبِيهِ لِفَرَسِ
فَأَصَابَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ كِسْرَى	وَهَرَقْلًا وَالْعَبْقَرِيَّ الْفَرَنْسِي

وهذا أيضاً خيال شعراء، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد
الحوادث، وأعدت مخليه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات لما يظن هيهات، والويل
لأمة تنتظر في خمود حتى يثأر لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقة،
إنما هو الفن يقضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول — رضي
الله عنه إن كان ولياً، وجل جلاله إن كان إلهاً — معبود قديم طالما قُدمت له
القرايين، ولا يزال المصريون يقيمون بما كان يقيم به آباؤهم من قبل، ويتشاءمون
مما كانوا يتشاءمون منه، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السائح والبارح، أسوة
بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين
ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالإشادة بما
عرف لهم من المعبودات، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول
في جملة من قصائده الطوال، والشاعر كالخطيب لا تهمة العقول إذا ظفر بالقلوب.

(١) عنس : جمع عانس، وهي الفتاة يطول مكثها في دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من عداد
الأبكار.

ثم عاد شوقي إلى قلبه، وقد غمره الحزن، فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين، وانظر كيف يقول :

يا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ	فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولاً	كَانَتْ الْحُوتَ طُولَ سَبْحٍ وَغَسٍّ ^(١)
غَرِقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ	أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاحُ لِجَسٍّ
فَلَكَ يَكْسِفُ الشُّمُوسَ نَهَاراً	وَيُسُومُ الْبُذُورَ لَيْلَةً وَكُسٍ
وَمَوَاقِيتُ الْأُمُورِ إِذَا مَا	بَلَعَتْهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعَكْسٍ
دُولٌ كَالرَّجَالِ مُرْتَهَنَاتٌ	بِقِيَامٍ مِنَ الْجُدُودِ وَتَغَسٍ
وَلِيَالٍ مِنْ كُلِّ ذَاتٍ سِوَارٍ	لَطَمَتْ كُلَّ رَبِّ رُومٍ وَفُرسٍ
سَدَّدَتْ بِالْهَلَالِ قَوْساً وَسَلَّتْ	خِنْجَراً يَنْفُذَانِ مِنْ كُلِّ تُرسٍ
حَكَمَتْ فِي الْقُرُونِ خَوْفُ وَدَارَا	وَعَفَتْ وَائِلًا وَالْوَتَّ بَعْبَسٍ
أَيْنَ مَرْوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْشٌ	أَمْوِيٌّ وَفِي الْمَغَارِبِ كَرْسِي

وقفه قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه إلى مصر، وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب، فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياءها حين قدّها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجزيرة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس، وأن السواقي لا تبحر ترسل على ذكره الدموع والأنين، وأن النخيل تجردت في الحزن عليه، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة، ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ولم يقنعه السكون إلى الخيال، فأخذ يزفر من جديد ويقول :

يَا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
وَأَيْنَ هَذَا الْقَرَارُ، يَا بَلْبَلُ النِّيلِ ! هَاتِهِ، هَاتِهِ، وَخُذْ مِنْ أَرْوَاحِنَا مَا تَشَاءُ !

(١) الغس : مرادف للسبح.

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولاً كَانَتْ الْحُوتَ طُولَ سَبَحٍ وَغَسَّ
غَرَقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاخُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاخُ لِحَسٍّ
فَلَكَّ يَكْسِفُ الشُّمُوسَ نَهَاراً وَيُسُومُ الْبُدُورَ لَيْلَةً وَكَسَّ

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة، وهي على جبروتها ألعوبة القدر وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي عقلتها لجة الخطوب، والتي غرقت حيث لا يصاخ لحس، ولا يصاخ بطافٍ أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الزاهب، والملك السليب. والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والشجى يبعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللاثمون !

ولم يصنع البحري هذا الصنيع، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من صُبابة عيشه، وما كان من غبته حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رآه نُبُو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانبين، ثم قال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهُمُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَبْيَضِ الْمَدَائِنِ عَنَسِي
أُتْسَلَّى عَنِ الْحُظُوظِ وَآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ

وهذا هو عين الاقتضاب، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة، وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة، ولكن المريب هو أن يزهد البحري في حسن التخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال. وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه، وأشهر ما له في هذا الأسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان، فقد ابتدأها بقطعة

من النسيب هي أيضاً عتاب، وذلك حيث يقول :

يَهُونُ عَلَيْهَا أَنْ أَبَيْتَ مَيْمًا
أَعَالِجُ شَوْقًا فِي الضَّمِيرِ مُكْتَمًا
وَقَدْ جَاوَزْتُ أَرْضَ الْعِرَاقِ وَأَصْبَحْتُ
حِمَى وَصَلِهَا مَذْ جَاوَرْتُ أَهْرَاقَ الْحِمَى
بَكَتْ حُرْقَةً عِنْدَ الْفِرَاقِ وَأَرْدَفْتُ
سُلُوءًا نَهَى الْأَحْشَاءُ أَنْ تَتَضَرَّمَا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرُ طَائِفٍ
يُلِمُّ بِنَا وَهْنًا إِذَا الرِّكْبُ هَوَّمَا

وفي هذه القصيدة يقول :

وَلَمْ أَعْرِفِ الذَّنْبَ الَّذِي سُوِّتَنِي لَهُ
وَلَوْ كَانَ مَا خُبِّرْتُهُ أَوْ ظَنَنْتُهُ
أَذْكُرُكَ الْعَهْدَ الَّذِي لَيْسَ سُودْدًا
أَقْرُبُ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلًا
لِي الذَّنْبُ مَعْرُوفًا وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا
وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ
فَأَقْتُلْ نَفْسِي حَسْرَةً وَتَنْدُمَا
لَمَا كَانَ غُرُوءًا أَنَّ الْيَوْمَ وَتَكْرُمَا
تَنَاسِيهِ وَالْوَدَّ الصَّحِيحَ الْمُسْلِمَا
إِلَيْكَ عَلَى أَنِّي إِخَالُكَ الْيَوْمَا
بِهِ وَلَكَ الْعُتْبَى عَلَيَّ وَأَنْعَمَا
وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَا

نقول : إن البحري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية، وإنما أثر الاقتضاب، ولا كذلك شوقي، فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول :

أَيْنَ مَرْوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ
سَقِمَتْ شَمْسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا
ثُمَّ غَابَتْ وَكُلُّ شَمْسٍ سِوَى هَاتِيكَ
وَعَظَ الْبُحْتَرِيُّ إِيوَانَ كِسْرَى
أَمْوِيٌّ وَفِي الْمَغَارِبِ كُرْسِي
نُورَهَا كُلُّ ثَاقِبِ الرَّأْيِ نَطْسِ
تَبْلَى وَتَنْطَوِي تَحْتَ رَمْسِ
وَشَفْتَنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

نقرر هذا، ثم نذكر أن البحري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي، لأن ظروف البحري، وقد ضاق به عيشه،

وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدري إذا عاد أيقّر قراره فيلقي عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد... ولو كان للبحثري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحاله إلى الإيوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال، ولكن الشاعر له « رسالة » يؤديها إلى أهل عصره، ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكانت « رسالة » شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد، وهم يودعون كل يوم فريقاً من أبنائهم الأحرار، ويستقبلون بالرغم منهم ما يُلقى إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار، وكان له في ذلك هذا البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل :

أَحْرَامٌ عَلَى بَلَائِلِهِ أَلَدُّ حُحْلَالٍ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ

وفي مقابله البحثري، وهو يتحدث عن نفسه :

وَأَشْتِرَائِي الْعِرَاقَ خُطَّةٌ غَبْنٍ بَعْدَ بَيْعِي الشَّامَ بَيْعَةً وَكَسٍ

ولكن أين هذا من ذاك ؟ ! وأين قول البحثري في عنف الدهر وجوره :
وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ

من قول شوقي في المعنى نفسه :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولًا كَانَتْ الْحُوتَ طُولَ سَبَحٍ وَغَسَّ
غَرِقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاحُ لِجَسٍّ

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.

ومطلع البحثري :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنُّ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ

فيه ضعف وانحلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع شوقي :
اِخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي فَأَذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي

وإن كنا لا ندري بمن يستجد، وقد نسي أيام صباه، ورحم الله ابن الأحنف
إذ يقول :

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنًا لِعَيْرِكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُّمُوعِ تُعَارُ

ويذكرون أن لُورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغني يقول « حبيبي
غاب، هاتوه لي يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على
مدلوله قال : « إن المصري لكسول، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه
الغائب ». وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الأنس في عهد الشباب،
وإنه لمَطلب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحري وشوقي

ولقد أخذ البحري : بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى، ويتحدث عن بُناته، ويعرض بسكان القفار من الأعراب، فيقول :

أَتَسَلَّى عَنْ الْحُطُوطِ وَآسَى	لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي	وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي
وَهُمُو خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ	مُشْرِفٍ يَخْسِرُ الْعُيُونُ وَيُخْسِي
مُغْلِقٌ بَابَهُ عَلَى جَبَلِ الْقَبْقِ	إِلَى دَارَتِي خِلَاطٍ وَمَكْسِ
حَلٍّ لَمْ تَكُنْ كَأُطْلَالِ سَعْدَى	فِي قِفَارٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْ لَا الْمُحَابَاةُ مِنِّي	لَمْ تُطَقِّهَا مَسْعَاةُ غَنَسٍ وَغَبْسِ
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدَّةِ	حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكَأَنَّ الْجِرْمَا زَ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ	وَإِخْلَاقِهِ بَيْنَهُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي	جَعَلَتْ فِيهِ مَاتِمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمِ	لَا يُشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بِلْبْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش والتهاويل، ولنا إليه عودة، فلنلاحظ الآن أن البحري يتحبس، وهو يبين عن أثر الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق، وترجع

هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمع عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد، ولهذا يقول في هدوء :

حَلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالٍ سَعْدَى فِي قِفَارٍ مِّنَ الْبَسَائِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مَنِّي لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعُوبَسِ

وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليلي ونؤى عفراء ! ولم يجد شوقي ما يضطره إلى مثل هذه المواربة، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب، في بلاد إسلامية مجموعة الأهواء، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالْبَرْقُ طَرْفِي وَبَسَاطِ طَوَيْتُ وَالرَّيْحُ عَنِّي
أَنْظِلُمُ الشَّرْقَ فِي (الْجَزِيرَةِ) بِالْغُرِّ بِ وَأَطْوِي الْبِلَادَ حَزْنًا لِدَهْسِ
فِي دِيَارٍ مِّنَ الْخَلَائِفِ دَرْسِ وَمَنَارٍ مِّنَ الطَّوَائِفِ طَمْسِ
وَرُبًّا كَالْجِنَانِ فِي كَنْفِ الزَّيْتُونِ خُضِرٍ وَ فِي ذَرَا الْكَرْمِ طُلْسِ
لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرَى قُرْطَبِي لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ آلِدَّهْرِ خَمْسِي
يَا وَقَى اللَّهَ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسِي
قَرْيَةً لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ تُمَسِّكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِي
غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمُحِيطِ وَغَطَّتْ لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلْسِ
رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَاتَى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ
فَتَجَلَّتْ لِي الْقُصُورُ وَمَنْ فِيهَا مِنْ الْعِزِّ فِي مَنَازِلِ قُعْسِ
مَاضَتْ قَطُّ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَذِّ لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِنَجْسِ

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك. ونحن نستعيد قول البحتري :

ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

ولعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستعيد كذلك قوله :

نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدَّةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكَانَ الْجُرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْأَنْسِ وَإِخْلَاقِهِ بَيِّنَةً رَّمْسِ

وفي هذين البيتين دقة وخيال، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل :
« أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه : « بنية رمس ». فأما قوله :
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَاتِمًا بَعْدَ عُرْسٍ
فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، يتحكم فيها البلى، وتبطش بها أيدي العفاء.
ونستجيد قول شوقي :

لَمْ يَرْغُبِي سِوَى ثَرَى قُرْطُبِيٍّ لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
ولمس العبرة من المعاني الدقيقة. وقد بلغ غاية الرفق، وهو يقول في
تحية هذا الثرى :

يَا وَقَى اللَّهِ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسَى
ونستجيد كذلك قوله :

رَكِبَ الدَّهْرَ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَآتَى ذَلِكَ الْجَمَى بَعْدَ حَدْسٍ
يصف تلك البقعة بالدروس، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره
الدهر، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس، وتلك وثبة من وثبات الخيال.

ثم أخذ البحري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال :
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا وَالْمَنَائَا مَوَائِلَ وَأَنُوشِرَوَانَ
كِيَّةَ آرْتَعَتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرسٍ يُزْجِي الصُّنُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
فِي أَخْضَرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْفَرٍ يَخْتَالُ فِي صَبِغَةٍ وَرْسِ
وَعِرَاكِ الرَّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي خَفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضٍ جَرَسِ
مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلٍ رُمَحٍ وَمُليحٍ مِنَ السُّنَانِ بُرْسِ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ حُرْسِ
يَغْتَلِي فِيهِمْ آرْتِيَابِي حَتَّى تَقْرَأَهُمْو يَدَايَ بِلَمْسِ

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، يذكر أنه شهد في الإيوان صورة
كسرى، وهو يحاصر أنطاكية وأنتك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة
الفرس على الروم، وكيف يرتاع المرء، وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو

ونجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة، لا يخطر ببالك أنها صورة، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال، والمنايا موائل أمامك، فيما أنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثبات، وما هم عليه من إثارة الخفوت، بين مُشيح بالرمح، ومُليح بالسنان، وانظر كيف يقول :

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ
يَغْتَلِي فِيهِمْ آرْتِيَابِي حَتَّى تَقْرَأَهُمْو يَدَايَ بِلَمْسِ

فهو يراهم جدّ أحياء، وإن لم يُسمع لهم صوت، لأن في سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة، ثم يُغلب على حسه فيرتاب فيما يراه : فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال !، والمصور الحاذق هو الذي يُسبغ على صورهِ أثواب الحياة. ولقد أذكر أنني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة، ولم أكد أملاً منها عيني حتى خلتها تتقلب، وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحري في الوصف، وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور :

وَكَأَنِّي بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْتاً فِيهِ مَالُ الْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسِ
قُدْساً فِي الْبِلَادِ شَرْقاً وَغَرْباً حَجَّه الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهِ وَقَسِ
وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالَةُ وَ (النَّا) صرُّ) نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفَسِ
يُنْزِلُ التَّاجَ عَنْ مَفَارِقِ (دُونِ) وَيُحَلِّي بِهِ جَبِينَ (الْبَرْنِسِ)
سِنَّةً مِنْ كَرِيٍّ وَطَيْفٍ أَمَانِ وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنْيسِ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحْسِ
وَرَقِيقٍ مِنَ الْبُيُوتِ عَتِيقِ جَاوَزَ الْأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ خُرْسِ
أَثَرٍ مِنْ (مُحَمَّدٍ) وَتُرَاثِ صَارَ (لِلرُّوحِ) ذِي الْوَلَاءِ الْأَمْسِ
بَلَغَ النَّجْمَ ذُرْوَةً وَتَنَاهَى بَيْنَ (تَهْلَانِ) فِي الْأَسَاسِ وَ (قُدْسِ)
مَرْمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَاطِرُ فِيهِ وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتْرِيْسِي

وَسَوَارٍ كَانَهَا فِي أَسْتَوَاءٍ أَلْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طَرَسٍ
فَتْرَةُ الدَّهْرِ قَدْ كَسَتْ سَطْرِيهَا مَا أَكْتَسَى الْهُدْبُ مِنْ فُتُورٍ وَنَعَسٍ
وَيَحْهَهَا كَمْ تَزَيَّنْتَ لِعَلِيمٍ وَاحِدِ الدَّهْرِ وَاسْتَعَدَّتْ لَخَمْسٍ
وَكَأَنَّ الرِّفِيفَ فِي مَسْرَحِ الْعَيْ مِنْ مُلَاءٍ مُدْنَرَاتُ الدِّمَقْسِ
وَمَنْبَرٌ تَحْتَ (مُنْدَرٍ) مِنْ جَلَالِ يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدْسٍ
وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رِيًّا لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ قُسٍّ
وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو لِلْمُسِ وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو لِلْمُسِ

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه النفثة البحرية من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحري وجد في الإيوان صورة الحرب بين الفرس والروم، وصورة الحرب تهر النفس، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة. أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن، لم يذكر أكانت في وصف الجنة، أم في الدعوة إلى القتال؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية، الوادعة الهادئة، لا يصلح إلا للكهول، والويل للأمم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية، ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحري :
وَالْمَنَايَا مَوَائِلُ وَأَنْوِشَرُ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ

وبين قول شوقي :
وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالَةُ وَالنَّارُ صِرُ نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفْسِ

وشوقي يصف ما رآه، فلا لوم عليه ولا تثريب، وصدق من قال :
فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رَمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب. ولم يظلم أحدٌ أهل الشرق، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب « الأخلاق

عند الغزالي « وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب، وحيّا الله أولئك الشياطين، فهم ملائكة هذا الجيل، وإن رذائل القوة لخير من فضائل الضعف، لو يعلم الشرقيون.

ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسمية يستبق إليها طلاب الرزق، وللرزق أبواب ! ! يدل على هذا قوله :

سِنَّةٌ مِنْ كَرَى وَطَيْفٌ أَمَانٍ وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنْيسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحَسِّ

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك، وما فيه من آثار العقول، ليس إلا سنة من الكرى، وطيفاً من الأمان.

ويعجبني قوله في وصف القصر :

مَرْمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَظِرُ فِيهِ وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِي
وَسَوَارٍ كَانَهَا فِي اسْتِوَاءٍ أَلْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طُرْسِ

وإن كان تشبيهه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال، والفرق بعيد بين الحسن الفاتن، والجمال الرائع، فجمال النهر في الليالي المقمرة فيه حسن وفتنة، وفيه أيام السرار، روعة وجلال.

وقول شوقي :

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رِيًّا وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو لِلْمَسْرِ

مأخوذ من قول البحري :

يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى تَقْرَأَهُمْو يَدَايَ بِلَمْسِ

وبيت البحري أجود في معناه، وهو كذلك يقتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب.

وقول شوقي بعد ذلك الوصف :
صَنْعَةَ (الدَّاحِلِ) الْمُبَارَكِ فِي الْعُرِّ بِ وَآلٍ لَهُ مَيَّامِينَ شُمْسِ
فيه ضعف، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة، وما أغنى الشعر عن مثل
هذا التذييل !!

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحري وشوقي

رأينا كيف وصف البحري ما رآه في الإيوان من رسم الواقعة بين الفرس والروم، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبغ بها في الإيوان، فقال :

قَدْ سَقَانِي وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبْوَالَعُو	ثِ عَلَى الْعُسْكَرَيْنِ شَرْبَةً خَلَسِ
مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ	أَضْوَاءَ اللَّيْلِ، أَوْ مُجَاجَةً شَمْسٍ
وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُورُوا	وَارْتِيحاً لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّي
أَفْرِغَتْ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ	فَهِيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى إِبْرُويـ	زَ مُعَاطِيٍّ وَالْبَلَهَبُذُ أَنْسِي
حُلْمٌ مُطَبَّقٌ عَلَى الشُّكِّ عَيْنِي	أَمْ أَمَانٍ غَيْرَنَ ظَنِّي وَحَدْسِي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي، لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول، كما فعل البحري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد، إذ لا تقتضيها الموازنة، ولا يدعو إليها التفضيل، ونحن نستملح قوله :

مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ أَضْوَاءَ اللَّيْلِ أَوْ مُجَاجَةً شَمْسٍ

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال، وعجز هذا البيت

يشفع لصدره، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء :

وتراها إذا أجذت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسي
أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبته إلى كل نفس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب ! ولا تنس أنه يقول (من كل قلب) وأنها لذلك (محبوبته إلى كل نفس) فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحري فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله ! — أن كسرى نديمه، والبلهذ أنيسه، وكيف ثاب إلى رشدته، وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غيرن ظنه وحده ! وفي هذا التردد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال :
وَكَانَ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْ
يَتَظَنَّى مِنَ الْكَآبَةِ أَنَّ يَيْ
مُزَعَجًا بِالْفِرَاقِ عَنْ أَنْسِ الْف
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْ
فَهُوَ يُيْدِي تَجَلُّدًا. وَعَلَيْهِ
لَمْ يَعْبه أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيبِ
مُشْمَخِرٌ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتُ
لَا بَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْ
لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لَجْنٍ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنَّ لَمْ

عَة جَوَّبٌ فِي جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ
لِدُو لِعَيْنِي مُصْبِحٍ أَوْ مُمَسِّي
عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا يَتَطْلِقُ عِرْسِ
مُشْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكْبُ نَحْسِ
كَكَلْ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي
بَاجٍ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَقْسِ
رُفِعَتْ فِي رُؤُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ
صِرُّ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بَرْسِ
سَكْنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنِّ لَإِنْسِ
يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ يِنْكَسِ

وفي هذه القطعة نجد البحري يتمثل الإيوان في صورة الحب أترعت الليالي

كأسه بأنس أليفه، ثم أزعجته بالفراق، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل،
ثم أرهقه بالطلاق، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح،
أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح
مثار الشجى، ومبعث الأسى، بعد أن كان من مرابع الغزلان، وملاعب الحور
الحسان ١١ وانظر كيف يقول:

فَهُوَ يَدِي تَجَلُّدًا وَعَلَيْهِ كَلْكُلٌ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صورته البحري « كائناً حياً »
أناخ الدهر عليه بكلكله، وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز،
وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت
الوجد، وتثير دفين الإحساس، فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني أي شيطان،
أو أي ملاك، أوحى إلى البحري : أن الإيوان أصبح — وقد استلّت منه ستور
الدمقس وبسط الديباج — شبيهاً بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك
من الثياب، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة جيناً وتغريك بالفتون أحياناً ؟
ونحن نعيد القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف، فهذا والله ما نفهمه من قول
البحري

لَمْ يَعْبه أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيبِاجِ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلّاه كالغادة
المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر، أم من سكر الدلال... وما نريد
أن نزيد ! وللقارئ أن يتأمل حسن الأداء في قوله :

عَكَّسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْـ مُشْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكَبُ نَحْسِ

فإنه لم يقل : « بات المشتري فيه كوكب نحس » وإنما قال : « بات المشتري
فيه، وهو كوكب نحس ». وكلمة : « وهو » لها ما لها من الفضل في تأكيد
المعنى وتقريره، عند علماء المعاني... وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات
الإيوان :

لَا بَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْ صِرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بَرُسِ

فإن كلمة « من » لها هنا موقع جميل، وهي أدل على التقليل من التنوين !...
أما قوله :

لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِّجَنٍّ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب،
وهي خرافة قديمة، تزخر بها الأساطير، وهي كذلك مورد من موارد الخيال —
وكان من المستهجن أن يعقب البحري هذا البيت الفرد بقوله :

غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنَّ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ يَنْكُسِ

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد... وقد عاد إلى وصف ما في
الإيوان فقال :

فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقَوُ	مَ إِذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى	مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزُّحَامِ وَخُنْسِ
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ الْمَقَاصِي	رِ يُرَجَّحْنَ بَيْنَ حَوْ وَلُغْسِ
وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْسِ	سِ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ
وَكَأَنَّ الَّذِي يُرِيدُ اتِّبَاعاً	طَامِعٌ فِي لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ
عُمَرْتُ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارَتْ	لِلتَّعْزِي رِبَاغُهُمْ وَالتَّأْسِي
فَلَهَا أَنَّ أَعْيَنَهَا بِدُمُوعِ	مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد
البحري في أعطاف الإيوان. والبحري بهذا الوصف فنان، يقول على علم ويعرف
ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة « كأن » موقعها الجميل في قوله :

وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزُّحَامِ وَخُنْسِ

وقوله :

وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ الْمَقَاصِي رِ يُرَجَّحْنَ بَيْنَ حَوْ وَلُغْسِ

وقوله :

وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْسِ سِ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ

وقد دلت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة، فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

نفثة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يكي الحمراء بعد وصفها فقال :
مَنْ لِحَمْرَاءَ جُلَلَتْ بِغُبَارِ الدَّهْرِ كَسْنَا الْبَرْقَ لَوْ مَحَا الضُّوْءُ لَحْظًا
حِصْنُ غِرْنَاطَةِ وَدَارُ بَيْتِي الْأَحَدِ جَلَلِ الثَّلْجُ دُونَهَا رَأْسَ شِيرَى
سَرْمَدٍ شَيْبُهُ وَلَمْ أَرِ شَيْبًا مَشَتْ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ الْحَمْدِ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ عَرَصَاتٍ تَخَلَّتِ الْخَيْلُ عَنْهَا
وَمَعَانٍ عَلَى اللَّيَالِي وَضَاءَ لَا تَرَى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى الثَّا
نَقَلُوا الطَّرْفَ فِي نَضَارَةِ آسٍ وَقَبَابٍ مِنْ لَا زَوْرَدٍ وَتَبَرٍ
وَحُطُوطٍ تَكْفُلْتُ لِلْمَعَانِي وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءَ
لَا الثَّرِيَّا وَلَا جَوَارِي الثَّرِيَّا مَرْمَرٌ قَامَتْ الْأُسُودُ عَلَيْهِ
تَشْرُ الْمَاءَ فِي الْحِيَاضِ جَمَانًا رِ كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرْءٍ وَنُكْسٍ
لَمَحَتْهَا الْعُيُونُ مِنْ طُولِ قَبْسٍ قَبْدًا مِنْهُ فِي عَصَائِبِ بَرْسٍ
رَاءَ مَشْيِ النَّعِيِّ فِي دَارِ غُرْسٍ سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسٍ
وَأَسْتَرَا حَتَّ مِنْ اخْتِرَاسٍ وَعَسٍ لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِيِّ تَكَرَّارَ مَسٍ
رِيحَ سَاعِينَ فِي خَشْوَعٍ وَنُكْسٍ مِنْ نُقُوشٍ وَفِي عُصَارَةِ وَرْسٍ
كَالرُّبَا الشَّمُّ بَيْنَ ظِلٍّ وَشَمْسٍ وَلَا لَفَاطِهَا بِأَزْيَنِ لُبْسٍ
مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ ظِبَاءٍ وَخُنْسٍ يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ أَنْسٍ
كَلَّةَ الظَّفَرِ لَيِّنَاتِ الْمَجَسِّ يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبِ مُلْسٍ

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر، وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث، والإفصاح عن

عسف الخطوب، ويكاد يستنطق الموت، وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق.. وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين براء ونكس، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج إليه أحفاد بناته، فيعدونه ويمنونه، لو تنفع الأماني، أو تصدق الوعود، ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفه ابن زياد؟ ولكن أين فتوة العرب، وأين شباب الزمان؟

وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس، فهذا أيضاً خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس :
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشِّي الْبُرِّ فِي السَّقَمِ
ما لنا ولهذا التكلف؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق، على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس، أروع من تشبيه أثر الخمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم، وقول شوقي :
مَشَّتِ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ الْحَمْدِ رَاءَ مَشْيِ النَّعْيِ فِي دَارِ عُرْسِ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرِ وَأَنْسِ
فيه روعة، وفيه جلال، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان... أما قوله :

وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءَ مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ ظِلَاءِ وَخُنْسِ
لَا الثَّرِيَّا وَلَا جَوَارِيَ الثَّرِيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ أَنْسِ
فهو وصف انفراد به، ولم يعرض لمثله البحتري، وكان عجباً أن يغفل عن إirاده، فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب، من كل ممشوقة القد، مجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفراد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة، ولا أعبر بغير ذلك، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس، ويرونه حسبهم من نعم

الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال :

بَعْدَ عَرْكِ مِنَ الزَّمَانِ وَضُرْسِ	آخِرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ
بَادَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ أَسْرِ وَحَسِّ	فَقَرَاهَا تَقُولُ : رَايَةُ جَيْشِ
بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِخَسِّ	وَمَفَاتِيحُهَا مَقَالِيدُ مُلْكِ
عَنْ حِفَاطِ كَمَوَكِبِ الدُّفَنِ خُرْسِ	خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كَتَائِبِ صُمِّ
تَحْتَ آبَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشِ أَمْسِ	رَكِبُوا بِالْبَحَارِ نَعْشاً وَكَانَتْ
لِمُشْتٍ وَمُحْسِنٍ لِمُخْسٍ	رُبَّ بَانٍ لِهَادِمٍ وَجُمُوعِ
لِجَبَانٍ وَلَا تَسْنَى لِجَبْسِ	إِمْرَةِ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَأْتِي
وَهِيَ خُلِقَ فَإِنَّهُ وَهْيُ أَسِّ	وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمِ

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد إذ كانت إمرة الناس لا تتسنى لجبس، ولا تتأتى لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضرس. والحق أن فتح العرب للاندلس كان من الأحداث الخطيرة، وكان الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ما شبّ في صدورهم من نار العداوة والبغضاء، ولا ما شجر بينهم على الملك من خلاف، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين، كما يتوهم الفاتحون، وإنما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين في خفاء، كما تفتك على ضعفها الجراثيم، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة، فإذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك، وتطيح من هولها العروش. فان كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ! ألم تثار تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوسائس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيره كالخرقة البالية لا تصلح لزينة، ولا ستر، ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح ! القوة هي كل شيء في الوجود، والقوة فوق الحق، فإن أردت أن تحيا فتسلح

لهذه الحياة، والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب !

وكذلك كان العرب، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء، فكان عرشاً، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشاً، وما تغير البحر، ولكن تغير الناس، ركبوه أول مرة وهم فاتحون، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار :

يَا دِيَاراً نَزَلْتُ كَالْخُلْدِ ظِلًّا	وَجَنَى دَانِيَاً وَسَلَسَالِ أَنْسِ
مُحْسِنَاتِ الْفُصُولِ لَا نَاجِرْفِي	هَهَا بِقَيْظٍ وَلَا جُمَادَى بِقَرَسِ
لَا تُحِسُّ الْعُيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا	غَيْرَ حُورٍ حَوْ المَرَّاشِفِ لُغْسِ
كُسَيْتِ أَفْرُحِي بِظِلِّكَ رِيشاً	وَرَبَا فِي رُبَاكَ وَآشَدَّ غَرْسِي
هُمْ بَنُو مِصْرَ لَا الْجَمِيلُ لَدَيْهِمْ	بِمُضَاعٍ وَلَا الصَّنِيعُ بِمَنْسِي
مِنْ لِسَانٍ عَلَى ثَنَائِكَ وَقَفِ	وَجَنَانٍ عَلَى وَلَائِكَ حَبْسِ
حَسْبُهُمْ هَذَا الطُّلُولُ عِظَاتِ	مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الدُّهُورِ وَدَرْسِ
وَإِذَا فَاتَكَ التَّفَاتُ إِلَى الْمَا	ضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ التَّأْسِي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات، فقد طال الحديث، إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس، وغنمنا معها « قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المذهب حسين شوقي، وباليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين.. !

وسيدكر القارئ بعد هذا كله أني أوازن بين البحري وشوقي، وسيسأل أيهما أشعر ؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.
أما أنا فقد حكمت، والسلام^(١).

(١) بمناسبة سينية البحري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوي وضع قصيدة سينية عن : « أبي الهول » كان فيها معنى المعارضة للبحري، وإن لم يقل ذلك، وهي قصيدة جيدة، نختار منها قوله :

البحث التاسع عشر

البوصيري وشوقي

للوصيري قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شوقي بقصيدة سماها « نهج البردة » وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام، فقد غني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن، ودرء ما يُوجّه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص، وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه، فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أمة كالحديد صلب المحس	= نبئ الناس يا أبا الهول أنا
وبلونا الشعوب من كل جنس	لم يعبنا أنا بلتنا شعوب
بيد الله كل كأس بكأس	كل من ساءنا أذقناه سوءاً
واسألوا الفرس عن مصاب الفرس	فاسألوا الروم ما دهى الروم فينا
قد مضغنا ما بين ناب وضررس	أهم تلك ذات ناب وضررس
من حمى الله في حظيرة قدس	فنتيت كلها ونحن بقينا.

وللهراوي قصيدة أخرى سينية هي بلا شك من وحي البحري، وهي قصيدته التي وقف بها على دار الشيخ محمد عبده في عين شمس، وكان من الحتم أن نشير إلى ذلك لنبين كيف سرت أنفاس البحري إلى شعراء هذا الجيل.

حياة البوصيري

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج. كان أحد أبويه من (أبو صير)، والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة، وقيل : (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري، وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف وبياشر الشرقية بلبس^(١).

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجرّي في شعره النكت المستملحة. وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره، وأحسبه من الصادقين، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال، وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمر، وأن من الكتاب طائفة تنسكت وعُدّت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت، وتأكل مال الأيتام، ويذكر أن القضاة خانوا الأمانة، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث، ويذكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق، ونحن أولى الأخذين، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر، ومن سوانا هم الغاصبون، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف أجمعين.

وفي ذلك يقول :

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدَمِينَ	فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ خَيْرًا أَمِينًا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ	مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عُمَرَى سِينَا
فَكُتَابُ الشُّمَالِ هُمُ جَمِيعًا	فَلَا صَحِبْتُ شِمَالَهُمُ الْيَمِينَا
فَكَمْ سَرَقُوا الْغَلَالَ وَمَا عَرَفْنَا	بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعَيْنَا
وَلَوْ لَا ذَاكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ مُرْدًا	كَأَغْصَانِ يَمَلْسُ وَيَنْحَنِينَا
وَقَدْ طَلَعْتُ لِبَعْضِهِمْ ذُقُونُ	وَلَكِنْ بَعْدَ مَا حَلَقُوا ذُقُونَا

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ، وله قبر مشهور في الاسكندرية ينقل به مسجده الشهير تدارس به العلوم الدينية.

وَأَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ جَائِلَاتٌ
وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ
أَمْوَلَايَ الْوَزِيرِ غَفَلَتْ عَمَّا
تَنْسَكُ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ
تَفَقَّهْتَ الْقُضَاةُ فَخَانَ كُلُّ
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالٍ مِصْرٍ
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ
وَقَالَ الْقَبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرٍ
وَحَلَلْتَ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ
وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةَ إِلَّا شَرِيكُ
أَغَارَ عَلَى قُرَى (فَاقُوسَ) مِنْهُ
وَصَيَّرَ عَيْنَهَا حَمَلًا وَلَكِنْ
وَأُصْبَحَ شُغْلُهُ تَحْصِيلَ تَبَرٍ
وَقَدَّمَهُ الَّذِينَ لَهُمْ وَصُولٌ
وَفِي دَارِ الْوِكَالَةِ أَيُّ نَهْبٍ
فَقَامَ بِهَا يَهُودِيٌّ خَبِيثٌ
إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ
وَشَاهِدُهُمْ إِذَا اتَّهَمُوا يُؤَدِّي

كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا
وَكُلُّ اسْمٍ يَخْطُؤا مِنْهُ سِينَا
يَتَمُّ مِنَ اللَّئَامِ الْكَاتِبِينَا
مِنَ الزُّهَّادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَا
وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ السُّحْتِ الْبُطُونَا
أَمَانَتُهُ وَسَمَّوْهُ الْأَمِينَا
سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا
بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْآخِذِينَا
وَإِنَّ سِوَاهُمُوهُمْ غَاصِبُونَا
لَهُمْ مَالُ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَا
لَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَتَخَطَّفُونَا
بِجَوْرِ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجُفُونَا
لِمَنْزِلِهِ وَغَلَّتْهَا خَزِينَا
وَكَانَتْ رَأُوهُ مِنْ قَبْلِ نُونَا
فَتَمَّمَ نَقْصَهُ صَلَةُ الدِّينَا
فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِيْنَا
يُسُومُ الْمُسْلِمِينَ أَذَى وَهُونَا
تَلَقَّفْتَ الْقَوَافِلَ وَالسُّفِينَا
عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينَا

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين، والناس ييغضون الموظفين حين يُعرفون بالطمع والاستبداد. ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود، وهي كذلك شاهد على عيوب الإدارة في ذلك الحين.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية

راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أَهْوَى وَالْمَشِيبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ	وَالْتَّصَابِي بَعْدَ الْمَشِيبِ رُعُونَهُ
أَبَتْ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ	إِنَّ حُبِّي لَا يَدْخُلُ الْقَيْنِيَّةَ
كَيْفَ أَغْصِي الْهَوَى وَطِينَةُ قَلْبِي	بِالْهَوَى قَبْلَ آدَمَ مَعْجُونَهُ
سَلَبَتْهُ الرُّقَادُ يَيْضَةً خِذِرٍ	ذَاتُ حُسْنٍ كَالدُّرَّةِ الْمَكُونَهُ
سُمِّتَهَا قُبْلَةً تُسَرُّ بِهَا النَّفْسُ	سُ فَقَالَتْ كَذَا أَكُونُ حَزِينَهُ
قُلْتُ لَا بُدَّ أَنْ تَسِيرِي إِلَى الدَّاءِ	رِ فَقَالَتْ عَسَى ! أَنَا مَعْجُونَهُ !
قُلْتُ سِيرِي فَإِنِّي لَكَ خَيْرٌ	مِنْ أَبِي رَاحِمٍ وَأُمِّ حُنُونَهُ
أَنَا نَعَمَ الْقَرِينِ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي	نَ حَلَالاً وَأَنْتِ نَعَمَ الْقَرِينَهُ
قَالَتْ أَضْرِبْ عَنْ وَضَلٍ مِثْلِي صَفْحاً	وَأَضْرِبِ الْخَلَّ أَوْ يَصِيرَ طَحِينَهُ
لَا أَرَى أَنْ تَمَسَّنِي يَدُ شَيْخٍ	كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لَطَشْتِي مَشِينَهُ
قُلْتُ إِنِّي كَثِيرُ مَالٍ فَقَالَتْ	هَبْكَ أَنْتَ الْمُبَارِزُ الْقَارُونَهُ

وهذا أيضاً شعر ضعيف، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا

الشيخ رضي الله عنه وأرضاه !

وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها إلى ناظر الشرقية، وكانت له

حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته، فكتب على لسانها إليه :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي شَهِدْتُ	أَخْلَاقَهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلٌ
مَا كَانَ ظَنِّي يَبْعُنِي أَحَدٌ	قَطُّ وَلَكِنْ صَاحِبِي جَاهِلٌ
لَوْ جَرَسُوهُ عَلَيَّ مِنْ سَفَهٍ	لَقُلْتُ غَيْظاً عَلَيْهِ يَسْتَاهِلُ
أَقْصَى مُرَادِي لَوْ كُنْتُ فِي بَلَدِي	أَرْعَى بِهَا فِي جَوَانِبِ السَّاحِلِ
وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَجِلُّ لَكُمْ	أَخْذِي لِأَنِّي مِنْ سَيِّدِي حَامِلٌ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات، وردَّ إليه الحمارة، ولم يكن فيها

من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله،

وهي قصيدة طريفة، يذكر فيها أنه فقير، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون، وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال، فأشارت عليها بضربه، ومنتف ذقنه شعرة شعرة. وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير :

حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولِي عُسْرَةٍ
عَائِلَةٍ فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ
جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْرَةِ
كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَةً
مَا بَرَحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّةُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ النَّشْرَةَ
تَنْزَهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخُضْرَةِ
قَمْحٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فُطْرَةٌ
فِي كَفِّ طِفْلٍ أَوْ رَأْوَا تَمْرَةً
بِشَهْقَةٍ تَتَّبِعُهَا زَفْرَةٌ
قَطَعْتَ عَنَّا الْخُبْزَ فِي كَرَّةٍ
بَدِرْهُمْ وَرِقٍ وَلَا نُقْرَةٍ
تَخْدُمُهُمْ يَا أبتِ سُخْرَةٍ
وَالْأُخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَةِ
وَصَبْرَهَا مِنِّي عَلَى الْعُسْرَةِ
كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّةُ !
تَخْلُفُ مِنْكَ وَلَا فَتْرَةٍ
أَوْ انْتِفِيهَا شَعْرَةً شَعْرَةً
فَإِنَّ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَةٌ
طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَةٌ
فَجَاءَتِ الزَّوْجَةَ مُجْتَرَّةُ
فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِأَجْرَةٍ

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّنَا
فِي قِلَّةٍ نَحْنُ وَلَكِنْ لَنَا
أَحَدْتُ الْمَوْلَى الْحَدِيثَ الَّذِي
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ
إِنْ شَرِبُوا فَالْبُئْرُ زِيرٌ لَهُمْ
لَهُمْ مِنَ الْخُبْزِ مَسْلُوقَةٌ
أَقُولُ مَهْمَا آجَتَمَعُوا حَوْلَهَا
وَأَقْبَلَ الْعَيْدُ وَمَا عِنْدَهُمْ
فَارْحَمَهُمْ إِنْ عَايَنُوا كَعَكَةً
تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْ نَحْوَهَا
كَمْ قَائِلٍ يَا أَبْتَ مِنْهُمْ
مَا صِرْتَ تَأْتِينَا بِفَلْسٍ وَلَا
وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمُّهُمْ أُخْتَهَا
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النَّسَا
قُومِي أَطْلُبِي حَقِّكَ مِنْهُ بِلَا
وَإِنْ تَأْبَى فَخُذِي ذَقْنَهُ
قَالَتْ لَهَا مَا هَكَذَا عَادَتِي
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً
وَهَوَّنْتُ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا
فَقَاتَلْتَنِي فَتَهَدَّدْتَهَا

وَحَقُّ مَنْ حَالَتْهُ هَذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ أَمْرَهُ
وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية، ولا تزال بقاياها موجودة في
بلييس^(١).

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام،
ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا
النوع، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيد، فإن قصائد الكميت بن زيد في
مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المولّدون، وقد مدح الرسول
في حياته، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها :

بَانتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولٌ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدْ مَكْبُولٌ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الظَّرْفِ مَكْمُولٌ

ومدحه الأعشى بداليتة التي يقول فيها :

فَأَقْسَمْتُ لَا أُرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجِي حَتَّى تُتْلَقِي مُحَمَّداً
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لِعُسْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى، ويظنها من وضع الرواة، وهي
على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية، وكذلك بانت سعاد، لأن المدح الذي
جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئاً عن غيره من المدح الذي جرى
في ذلك العهد موجهاً إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شتمائل النبي وسرد
ما في الرسالة من المحاسن الباقية، ودفع ما وُصِمَ به الرسول من النقائص والعيوب.
وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقرباً إلى الله، وهي عند الصوفية من
جملة الأوراد.

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب : « المدائح النبوية، في الأدب العربي »
والمؤلف يفلس أحياناً فينقل معانيه من كتاب إلى كتاب، وهي ليست بسرقة، لأنها تشبه نقل
الدنانير من جيب إلى جيب في الثوب الواحد، أليس كذلك ؟ بلى، أيها المؤلف !

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة، فقال : « كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه علي صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة، فقممت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت أيها ؟ فقال : التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ، ورأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته، وألقى علي من أنشدها بردة. فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام ».

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، كأكثر الصوفية، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها، أو قصيدة ينشدها، كما برئ البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية — لا سمح الله — ما استغنى بالبردة عن الطبيب ! ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم، فقد كان الرمنحشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن... ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة « ﷺ » خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية : فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر، وما حوت الأشجار من ورق، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطير

والأسماء والأنعام، وعدد الجن والإنس والأملاك، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ومذ حشروا، وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد:

فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرُقُونَ بِهَا
أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أُوذِرُوا
مِلَّةَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ جَبَلٍ
وَالْفَرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَمَا حَضَرُوا
مَا أَعَدَّ اللَّهُ مَوْجُوداً وَأَوْجَدَ مَعَهُ
لِدَوَامٍ صَلَاةً دَوَاماً لَيْسَ تُنْهَضُ
تَسْتَعْرِقُ الْعَدَّ مَعَ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا
تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِي وَلَا تَنْزُرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب «دلائل الخيرات».

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك، ولهذا الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكراً لحج الخديو السابق سنة ١٢٢٧ هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحاً وجيزاً بيناً، قال في نهايته: «ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه، وفصل معجمه، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه، وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصص»

التي يوماً إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره، لطال القول وتجاوز القصد».

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز إن شاء أيده وإن شاء نفاه^(١). ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى « أن القرآن ليس بشعر، وما هو من الشعر في شيء، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزن مقفى يدل على معنى، فأين الوزن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتحيا الشعراء من معانيه، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ » ثم قال: « فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت »، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين !!

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ونهج البردة، وإنا لنترجو أن يكون في هذا التمهيد بعض العناء.

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام، وساجلنا في جريدة البلاغ، وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح، ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح، وكان الشيخ سليم رحمه الله غنياً بفضل الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل، ولكن هذا ما وقع. وليت شعري كيف نطمئن إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق خبراً قامت الشواهد على صحته، ونحن شهود العصر الذي وقع فيه. ولهذا القصة تفاصيل يراها القارئ في كتاب: « أكواب الشهد والعلقم » فليرجع إليها هناك.

البحث العشرون

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منحاه، وتلك عادة عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجيل، وإن كان من قدمائهم من نالها بلام، كالمثنبي إذ يقول :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مُتِّيمٌ ؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول، فكان مريدوهم يؤولونه ويرونه موجهاً إلى الذات الإلهية، أو الحضرة النبوية، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب ييسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كتب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم، من المجون، وجعلوه نوعاً من الرمز والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية، وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح بما يجري بين عشاق الأشباح، إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة : وهي افتتاح الشعر بالنسيب، وهي عادة لم يقلع عنها شوقي إلى الآن، وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في « مشروع ملنر » فقد افتتحها بهذه الأبيات :

أَثْنِ عِنَانَ الْقَلْبِ وَأَسْلَمْ بِهِ مِنْ رَبِّ الرَّمْلِ وَمِنْ سِرِّهِ

وَمِنْ تَنْثِي الْغَيْدِ عَنْ بَانِهِ مُرْتَجَّةَ الْأَرْدَافِ عَنْ كُتْبِهِ
ظَبَاؤُهُ الْمُنْكَسِرَاتُ الظُّبَا يَعْلِبْنَ ذَا اللَّبِّ عَلَى لُبِّهِ
بِيضُ رِقَاقُ الْحُسْنِ فِي لَمْحَةٍ مِنْ نَاعِمِ الدُّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ
ذَوَابِلُ النَّرْجِسِ فِي أَصْلِهِ يَوَانِعُ الْوَرْدِ عَلَى قُضْبِهِ
زِنٌّ عَلَى الْأَرْضِ سَمَاءُ الدُّجَى وَزِدْنِ فِي الْحُسْنِ عَلَى شُهِبِهِ
يَمْشِينَ أَشْرَاباً عَلَى هَيْئَةٍ مَشَى الْقَطَا الْأَمِنْ فِي سِرْبِهِ
مِنْ كُلِّ وَسْطَانٍ بَغِيرِ الْكَرَى تَنْتَبِهُ الْآجَالُ مِنْ هُدْبِهِ

وهي قصيدة طويلة، ثلثها في النسيب. ويذكر شوقي أنه قالها كارهاً، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً من المنحة التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر أنني رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد. ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء، ولا تقل كان الأدب يقضي بتجنب هذا النهج في المدائح النبوية، فقد شبب كعب ابن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول، فما لامة النبي، ولا أنكرها عليه أصحابه، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه مجرى المحاكاة والتقليد، فإننا نراه يقول في مطلع البردة :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِصْمٍ

وذو سلم : واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت، وفيه يقول كثير :

أَمِنْ آلِ سَلَمَى دِمْنَةً بِالذَّنَائِبِ إِلَى الْمَيْثِ مِنْ رَيْعَانِ ذَاتِ الْمَطَارِبِ
يَلُوحُ بِأَطْرَافِ الْأَجْدَةِ رَسْمُهَا بِذِي سَلَمٍ أَطْلَالُهَا كَالذَّوَاهِبِ

وكاظمة : جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول

بعض الشعراء :

يا حَبْدًا الْبَرْقُ أَكْنَفِ كَاطِمَةٍ يَسْعَى عَلَى قَصَرَاتِ الْمَرْخِ وَالْعُشْرِ
لِلَّهِ دُرٌّ يُبَوِّتُ كَانَ يَعَشُّهَا قَلْبِي وَيَأْلُفُهَا أَنْ طُيِّبَتْ بَصْرِي
فَقَدْتُهَا فَقَدْ ظَمَّانٍ إِذَا وَتَهُ وَالْقَيْظُ يَقْدِفُ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالشَّرْرِ
أُمْنِيَّةُ النَّفْسِ أَنْ تَزْدَارَ ثَانِيَةً وَحَالَنَا وَالْأَمَانِي حُلُوءُ الثَّمَرِ

وإضم : واد بـجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة، وفيه يقول سلامة

ابن جندل :

يَا دَارَ أَسْمَاءَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ إِضْمٍ بَيْنَ الدَّكَادِكِ مِنْ قُوٍّ فَمَعْصُوبٍ
كَانَتْ لَهَا مَرَّةً دَارًا فَغَيَّرَهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ بِسَافِي الثَّرْبِ مَجْلُوبٍ

وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصريته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلت رؤوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد، ولسع، وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق، ولذلك نجد التلكف ظاهراً في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم، ونحسبه اختارها للقافية، كما اختار « إضم » لهذا الغرض، وأين هذا الوجد المتكلّف من قول مَنْ شُغِلَ عَنْ أَرُونَدَ ببغداد :

وَقَالَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَيْنَ أَبْنُ أُخْتِنَا أَلَا خَبَرُونَا عَنْهُ حُيْتُمُو وَفَدَا
رَعَاهُ ضَمَانُ اللَّهِ هَلْ فِي بِلَادِكُمْ أَخُو كَرَمٍ يَرْعَى لِذِي حَسَبٍ عَهْدَا
فَإِنَّ الَّذِي خَلَفْتُمُوهُ بِأَرْضِكُمْ فَتَى مَلَأَ الْأَحْشَاءَ هِجْرَانُهُ وَجَدَا
أَبْعَادُكُمْ تُنْسِيهِ أَرُونَدَ مَرْبَعًا أَلَا خَابَ مَنْ يَشْرِي بِبَغْدَادَ أَرُونَدَا
فَدَتُهُنَّ نَفْسِي ! لَوْ سَمِعْنَ بِمَا أَرَى رَمَى كُلُّ جَيْدٍ مِنْ تَنْهَدِهِ عِقْدَا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليداً،

ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية، وحن إلى مغنى من مغاني النيل^(١)،... ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال :
رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ يَبْنِي الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
وإنما أطلق نفسه من ربكة التقليد، فلم يتحدث عن نجد، ولا عن تهامة، وإن غلبت عليه بعض الأخيصة العربية، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف، ويظلون لا عاصم لهم من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال :
أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
فإن قوله : « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد، فانه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.
ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة « على القاع » في قول شوقي :
« ريم على القاع بين البان والعلم »

أما قوله :

« أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ »
ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع، وفيه براعة استهلال، وهو كذلك غاية في حسن الأداء.

وقول البوصيري :

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفَفَا هَمَّتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ أَسْتَفِقُ يَهُمِ
فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقه، وقد انتقل قبل أن يتم المعنى فقال :

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتَمٌ مَا يَبْنِي مُنْجِمٌ مِنْهُ وَمُضْطَرَمٌ

(١) في كتاب (المدايح النبوية) توجيه لكلام البوصيري فارجع إليه هناك.

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أُرِقَتْ لِذِكْرِ الْبَانِ

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.

وقد يُستجاد قوله :

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدَ خَطِيئَةً وَضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدِّكَ

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال. فانا نجد البوصيري

يقول :

نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى فَأَرْقَنِي وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِ

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين
يَا نَاعَسَ الطَّرْفِ لَأَذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا أَشْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى
أَفْدِيكَ الْفَاءَ وَلَا أَلُو الْخِيَالَ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ يَا
سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعُشَّاقِ لَ

والفرق بعيد بين قول البوصيري :

« نعم سرى طيف من أهوى فأرقني »

وبين قول شوقي :

« سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا »

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع
نَظْرَةً فَأَبْتَسَامَةً فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلَقْ

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول البوصيري
« والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقي :

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا : انه نظرة سينائية، ولكن قد يتفق أحياناً أن
القلوب بأسرع من ذلك، وللقلوب وثبات أسرع من البرق.

يَانَاعِسَ الطَّرْفِ لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا أَشْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى فَنَمِ

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون... وفي قوله :
أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا أَلُو الْخَيَالَ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ
صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب : فهو يغري المحبوب بالبخل، ويغري
طيفه بالجود، وسماحة الطيف بابًا إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين :
يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلَمْ

ويقول شوقي :
يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدْرٌ لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلَمْ
وبيت شوقي أجمل، وقوله : « الهوى قدر » من أبدع ما قيل في دفع العذل
والملام^(١).

أما قوله : « لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود في معناه من قول
الشريف الرضي :
أَقُولُ لِلْأَيْمِ الْمُهْدِي مَلَامَتَهُ ذُقِ الْهَوَى وَإِنْ أَشْطَعْتَ الْمَلَامَ لَمْ

ومن قول ابن الفارض :
دَعْ عَنْكَ تَعْنِيفِي وَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى فَإِذَا عَشِيقَتَ فَبَعْدَ ذَلِكَ عَنَّفِرِ

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله :
عَدَّتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَرٍ عَنْ الْوَشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية :

« وعد ومكتوب علي ومقدر عاجلين »

ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي « والهوى قدر ».

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة، وهو يقول في حوار لائمه :
لَقَدْ أَنْلْتُكَ أَذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ وَرُبَّ مُتَّصِتٍ وَالْقَلْبُ فِي صَمَمٍ

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته، ولكنها قد تزعزعه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذناً غير واعية، وقلباً غير سميع، ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء تُرجى منه السلامة، ووصف لائمه بنصح الجيب حين قال :

مَحْضَتْنِي النَّصَحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُدَالِ فِي صَمَمٍ

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب، فلنقف قليلاً عند المعاني التي انفرد بها شوقي، وإنا لنستجيد قوله :

رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جَوْذِرَ أَسَدٍ يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَذْرِكَ سَاكِنَ الْأَجَمِ

وهذا معنى قديم، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء، فهو لا يذكر أن الجؤذر رماه، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جؤذر، والقضاء خبير بأنواع النصال !

وقد بلغ الرفق في قوله :

لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رَمِي
جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَيْدِي جُرْحُ الْأَحِبَّةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ
رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ إِذَا رُزِقْتَ التَّمَّاسَ الْعُذْرُ فِي الشُّمِّ

والبيت الأخير يمت إلى ما قبله بصلة ضعيفة، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تُعد من جملة الذنوب، والذي يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية، فما هذا المن على الجمال !

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحُجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صحب حبيبته فقال :
 مِنَ الْمَوَائِسِ بَانَاً بِالرُّبَا وَقَنَاءً
 اللَّاعِبَاتِ بِرُوحِي السَّافِحَاتِ دَمِي
 السَّافِرَاتِ كَأَمْثَالِ الْبُذُورِ ضُحَى
 يُغْرِنَ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلِيِّ وَالْعَصَمِ
 الْقَاتِلَاتِ بِأَجْفَانٍ بِهَا سَقَمٌ
 وَلِلْمَنِيِّهٖ أَسْبَابٌ مِنَ السَّقَمِ
 الْعَاثِرَاتِ بِأَلْبَابِ الرَّجَالِ وَمَا
 أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 الْمُضْهِمَاتِ خُدُوداً أَصْفَرَتْ وَجَلَتْ
 عَنْ فِتْنَةٍ تُسْلِمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ
 الْحَامِلَاتِ لَوَاءِ الْحُسْنِ مُخْتَلِفاً
 أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مُنْقَسِمِ
 مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ أَوْ سَمْرَاءٍ زُيِّنَا
 لِلْعَيْنِ وَالْحُسْنُ فِي الْآرَامِ كَالْعَصَمِ
 يُرْعَنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبِ
 إِذَا أَشْرَنَ أَشْرَنَ اللَّيْثُ بِالْغَنَمِ
 وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَمْتُ الْفُؤَادَ رُبَاً
 يَرْتَعَنُ فِي كُنُسِهِ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستلمح منها قوله :
 الْعَاثِرَاتِ بِأَلْبَابِ الرَّجَالِ وَمَا أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 فقد جعلهن يمشين على القلوب، فيعثرن بقلب بعد قلب، وإن لم يسلمن من
 عثرات الدلال، وهن يتخطرن في الضحى، وعند الأصيل...

وأستجيد كذلك قوله :
 يُرْعَنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبِ إِذَا أَشْرَنَ أَشْرَنَ اللَّيْثُ بِالْغَنَمِ

فقد وصفهن بالخفر والحياء، وذكر أنهن يُرغن حين تسمو إليهن العين، والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهیوب، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفريات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب... وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته :

يَابَتْ ذِي اللَّبْدِ الْمَحْمِيَّ جَانِبُهُ	الْقَاكِ فِي الْغَابِ أُمُّ الْقَاكِ فِي الْأُطْمِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ	أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخَيْمِ ^(١)
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ	وَأَخْرَجَ الرَّيْمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرَمَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ سُمرِ الْقَنَا حُجْبٍ	وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ
لَمْ أَغْشَ مَعْنَاكِ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرَى	مَعْنَاكِ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنها لصناع ! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس، وتعبس الدنيا حين يعبس، ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظلية تتشنى أو غُصناً يُميد.

وقول شوقي :

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ	أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخَيْمِ
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ	وَأَخْرَجَ الرَّيْمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرَمَ

أجود في معناه من قول الطغرائي :

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ	وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاءٌ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ
يَحْمُونَ بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ اللَّدَانِ بِهِ	سُودَ الْعَدَائِرِ حُمَرَ الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن يَنْبَتَ الغصن من السيف الذكر، ويخرج الریم من الضرغامه القرم !

(١) يرى الدكتور طه حسين أن أخيلة شوقي خلعت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن البان والعلم، ومضرب الخيم، وأن قوله « يا بنت ذي اللبد » يذكرونا بقول ابن هانيء :
يا بنت ذي السيف الطويل نجاده أكذا يجوز الحكم في ناديك

وقول شوقي :

بيني وبينك من سُمرِ القَنَا حُجُبٌ ومثلها عَفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعَصَمِ
لَمْ أَغْشَ مَعْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرِيٍّ مَعْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ
أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي :

نَوْمٌ نَاشِئَةٌ بِالْجَزَعِ قَدْ سُقِيتْ نَصَالُهَا بِمِيَاهِ الْغُنْجِ وَالْكَحْلِ (١)
قَدْزَادَ طِيبَ أَحَادِيثِ الْبِكَرَامِ بِهَا مَا بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخْلِ
تَبِيتُ نَارُ الْهَوَى مِنْهُنَّ فِي كِبَدٍ حَرَى وَنَارُ الْقَرَى مِنْهُمْ عَلَى الْقَلْلِ
يَقْتُلْنَ أَنْضَاءَ حُبٍّ لَأَحْرَاكَ بِهِمْ وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالْإِبْلِ

قصيدة البارودي

ونريد أن نلّم الإمامة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وهي ميمية طويلة ضمّنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبنّاها كما قال على سيرة ابن هشام. والبارودي شاعر فحل، يعتز به تاريخ الأدب في مصر، وقد نوازن بينه وبين أبي فراس. ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رمي إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي، ليكون الموضوع أوفى، وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتمييز... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال :

يَارَائِدَ الْبَرْقِ يَمِّمُ دَارَةَ الْعَلَمِ وَآخِذُ الْغَمَامِ إِلَى حَيٍّ بِذِي سَلَمِ
وَإِنْ مَرَرْتَ عَلَى الرُّوحَاءِ فَامْرِ لَهَا أَخْلَافَ سَارِيَةٍ هَتَّانَةِ الدِّيمِ
مِنَ الْغِزَارِ اللَّوَاتِي فِي حَوَالِبِهَا رِيَّ النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمِ
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكْسُو عَارِي الْأَكَمِ
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَّةٍ الْعَلَمِ

(١) الغنج : حلاوة العينين.

أَدْعُو إِلَى الدَّارِ بِالسُّقْيَا وَبِي ظَمًا
مَنَازِلُ لِهَوَاهَا بَيْنَ جَانِحَتَيْ
إِذَا تَنَسَّمْتُ مِنْهَا نَفْحَةً لَعِبَتْ
أَدِرُّ عَلَى السَّمْعِ ذِكْرَاهَا فَإِنَّ لَهَا
عَهْدٌ تَوَلَّى وَأَبْقَى فِي الْفُؤَادِ لَهُ
إِذَا تَذَكَّرْتُهُ لَأَحْتَ مَخَايِلُهُ
فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ رَقَّتْ شَمَائِلُهُ
تَكَاءُ ذَنْبِي خُطُوبٌ لَوَزَمْتِ بِهَا
فِي بَلَدَةٍ مِثْلَ جَوْفِ الْعَيْرِ لَسْتُ أَرَى
لَا أُسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلْقٍ
إِذَا تَلَفْتُ حَوْلِي لَمْ أَجِدْ أَثَرًا
فَمَنْ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِي لُبَانَتَهَا

أَحَقُّ بِالرِّيِّ لِكِنِّي أَخُو كَرَمٍ
وَدِيعَةٌ سِرُّهَا لَمْ يَتَّصِلْ بِفَمِي
بِالصَّبَابَةِ لِعَبِّ الرِّيحِ بِالْعَلَمِ
فِي الْقَلْبِ مَنَزَلَةٌ مَرْعِيَّةٌ الذَّمِ
شَوْقًا يَفُلُّ شَبَابَةَ الرَّأْيِ وَالْهَمِ
لِلْعَيْنِ حَتَّى كَأَنِّي مِنْهُ فِي حُلْمٍ
فَعَادَ بِالْوَصْلِ أَوْ أَلْقَى يَدَ السَّلَمِ
مَنَاكِبَ الْأَرْضِ لَمْ تَثْبُتْ عَلَى قَدَمٍ
فِيهَا سِوَى أُمِّ تَحْنُو عَلَى صَنَمٍ
وَلَا أَلَدُّ بِهَا إِلَّا عَلَى أَلَمٍ
إِلَّا خَيَالِي وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى كَلِمِي
أَوْ مَنْ يُجِيرُ فُؤَادِي مِنْ يَدِ السَّقَمِ

وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المغاني العربية، ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول إليه لتحسبه نسي المعنى الأصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء، وهذا هو الغرض الأول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم، فقال :

مِنْ الْغَزَارِ اللَّوَاتِي فِي حَوَالِهَا
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ

رِئُ التَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمٍ
بُرْدًا مِنَ النُّورِ يَكْسُو عَارِي الْأَكَمِ
يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَّةٍ الْعَلَمِ

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل، أو ألقى يد السلم، فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاءده من الخطوب، وما مني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر به إلا على قلق، ولا يلذُّ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله، ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل، نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

البحث الحادي والعشرون

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية : إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارىء حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين، ومن هنا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية، فإننا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين، ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول :

كَأَنَّ حُمُولَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَرٍ
عَدْوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ عُقَابَ الْمَاءِ حَيْزُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ

وتراه يهّم بالحديث عن نفسه فيقول :
وَإِنِّي لَأُمْضِي الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِهِوَ جَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي
ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتاً، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول :
وَلَسْتُ بِحَلَالِ الثَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَانَهُ مِنْهُلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول :
شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
تَنْفِي الرِّيحِ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٍ يَعَالِيلُ

وتراه يقول في بُعد محبوبته :

أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ

وكان هذا كافياً في الابانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي تبلغه تلك الأرض ينحو عشرين بيتاً. ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من استعطاف الرسول فقال :

تَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنِّيَّهَا وَقَوْلُهُمْو إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْو فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنٍ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أُعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَرْتِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذِيبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء، وكيف انتقل من الحديث عن وجده إلى الحديث عن غربته. ولنذكر الآن شاهداً آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ مع الصديق وصفاً لا زُخرف فيه إذ قال : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ

إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴿١﴾

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال : « كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين. قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه رأنا، قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! ».

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وَحْشِيَّتَيْنِ فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً مَعَهُمْ قَسِيَهُمْ وَعَصِيَهُمْ تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد، وقال رجل آخر : الغار ! فقال أمية بن خلف : « ما أَرَبُكُمْ فيه، وعليه من نَسَج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يُولد محمد (١) »

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة « هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره إلى الاشارة بفضل الله ورحمته، ووصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال : إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي هذه الحادثة، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال :
فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرَمَا
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى
وَهُمْ يَقُولُونَ مَا فِي الْغَارِ مِنْ أَرَمٍ (٢)
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسَجْ وَلَمْ تَحْمِ

(١) راجع وضع النهج.

(٢) أي لا أثر فيه.

وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطْمِ

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.

أما شوقي فقد قال :

سَلْ غُصْبَةَ الشَّرِكِ حَوْلَ الْغَارِ حَائِمَةً
هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءُ أَمْ سَمِعُوا
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ
فَأَذْبَرُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ
لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارَيْنِ مَا سَلِمَا
تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَتَرَا
لَوْلَا مُطَارَدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَحْمِ
هَمْسَ التَّسَايِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أُمِّ (١)
كَالْغَابِ وَالْحَائِمَاتِ الزُّغْبُ كَالرَّحْمِ
كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقْمِ
وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحَ اللَّهِ لَا يُضْمِ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً مخيفاً يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود، وللقارئ أن يتأمل قوله :

فَأَذْبَرُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ

فإنه من أجمل ما شبّه فيه المحسوس بالمعقول. أما البارودي فقد قال :

وَجَاءَهُ الْوَحْيُ إِذَا نَا بِهَجْرَتِهِ
فِيمَمِ الْغَارِ بِالصَّدِيقِ فِي الْعَسَمِ (٢)
فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ حَتَّى تَبَوَّاهُ
مِنْ الْحَمَائِمِ زَوْجَ بَارِعِ الرَّنَمِ
بَنَى بِهِ عُشَّهُ وَآخُتْلَهُ سَكْنًا
يَأْوِي إِلَيْهِ غَدَاةَ الرِّيحِ وَالرَّهَمِ

(١) من قرب.

(٢) في الظلام.

إِنْ فَانَ مَا جَمَعَ الْمِقْدَارُ بَيْنَهُمَا
 إِلَّا لِسِرِّ بَصْدِرِ الْعَارِ مُكْتَتِمٍ
 كِلَاهُمَا دَيْدَبَانٌ فَوْقَ مَرْبَاةٍ
 يَرْغَى الْمَسَالِكُ مِنْ بُعْدٍ وَلَمْ يَنْمِ
 إِنْ حَنَ هَذَا غَرَامًا أَوْدَعَا طَرَبًا
 بِاسْمِ الْهَدِيلِ أَجَابَتْ تِلْكَ بِالنَّعْمِ
 يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهِيَ جَائِمَةٌ
 فِي وَكْرَهَا كُرَّةٌ مَلَسَاءَ مِنْ أَدَمِ (١)
 إِنْ رَفَرْتُ سَكَنْتُ ظِلًّا وَإِنْ هَبَطْتُ
 رَوْتُ غَلِيلَ الصَّدَى مِنْ حَائِرِ شِيمِ
 مَرْقُومَةُ الْجِيدِ مِنْ مِسْكِ وَغَالِيَةِ
 مَخْضُوبَةِ السَّاقِ وَالْكَفَّينِ بِالنَّعْمِ
 كَأَنَّمَا شَرَعَتْ فِي قَانِيٍّ سَرِبَ
 مِنْ أَدْمُعِي فَعَدَتْ مُحَمَّرَةَ الْقَدَمِ
 وَسَجَّفَ الْعَنْكَبُوتُ الْعَارَ مُخْتَفِيًا
 بِخِيَمَةٍ حَاكَهَا مِنْ أُبْدَعِ الْخِيَمِ
 قَدْ شَدَّ أَطْرَافَهَا فَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ
 بِالْأَرْضِ لَكِنَّهَا قَامَتْ بَلَا دَعَمِ
 كَأَنَّهَا سَابِرِي حَاكُهُ لَبِقُ
 بِأَرْضِ سَابُورَ فِي بُحْبُوحَةِ الْعَجَمِ
 وَارْتَفَمَ الْعَارِ عَنْ عَيْنٍ تَلُمُ بِهِ
 فَصَارَ يَحْكِي خَفَاءَ وَجْهٍ مُلْتَثِمِ
 فَيَا لَهُ مِنْ سِتَارِ دُونِهِ قَمَرٌ
 يَجْلُو الْبَصَائِرَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمِ

فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ مُعْتَكِفًا
كَالدُّرِّ فِي الْبَحْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ فِي النَّسَمِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَ الْإِرْجَافُ وَآخَتْ رَقَّتْ
أَكْبَادُ قَوْمٍ بِنَارِ الْيَأْسِ وَالْوَغَمِ
أَوْحَى الرَّسُولُ بِإِعْدَادِ الرَّجِيلِ إِلَى
مَنْ عِنْدَهُ السَّرُّ مِنْ نِجْلٍ وَمِنْ حَشَمِ
وَسَارَ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ مَبَازِيهِ
يَوْمٌ طَيِّبَةٌ مَأْوَى كُلِّ مُعْتَصِمِ

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه، وتكلم عن حراسة الحمامتين، ورعايتهما للمسالك البعيدة، وهجرهما النوم، وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين، وكيف كانت مرقومة الجيد، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطرافها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الراي حلة سابرية، إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع، واستسلام إلى الخيال، وكذلك كان يفعل الأقدمون.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب، لأنه ساير الحوادث وفقاً لما قصه ابن هشام، ولا كذلك شوقي والبوصيري، فقد أطاعا الخواطر الطارئة، وقدما بعض الحوادث على بعض، وتكلما عن النبي ﷺ وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر الميلاذ. ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت باباً لفقد الشعر في أكثر القصيدة، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وَأَمَّ طَيْبَةَ مَسْرُوراً بِعُودَتِهِ
ثُمَّ اسْتَهَلَّتْ وَفُودُ النَّاسِ قَاطِبَةً
فَكَانَ عَامَ وَفُودٍ كُلَّمَا أَنْصَرَفَتْ
وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ تَتْرَى لِلْمُلُوكِ بِمَا
وَأَمَّ غَالِبَ أَكْنَافِ الْكَدِيدِ إِلَى
وَحِينِ خَانَتْ جُدَامٌ فَلَّ شَوْكَتَهَا
وَسَارَ مُنْتَحِيًا وَاْدِي الْقَرَى فَمَحَا
وَأَمَّ خَيْرَ عَبْدُ اللَّهِ فِي نَفَرٍ
وَيَمَّمْ أَبْنُ أُنَيْسٍ عَرَضَ نَخْلَةٍ إِذْ
ثُمَّ اسْتَقْلَّ أَبْنُ حِصْنٍ فَاخْتَوَتْ يَدُهُ
وَسَارَ عَمُرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي
وَعَزَّوَتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ وَاحِدَةً
وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحياناً إلى الغموض،

ولا ترجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه، وانظر كيف يقول،

وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد :
إِنِّي وَإِنْ مَالِي دَهْرِي وَبَرَّحَ بِي
لثَابِتُ الْعَهْدِ لَمْ يَحُلْ قُوَى أَمَلِي
لَمْ يَتْرِكْ الدَّهْرُ لِي مَا أُسْتَعِينُ بِهِ
هَذَا يُحِبُّ مَذْحِي فِي الرُّسُولِ وَذَا

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير، أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمنية
دفنتها الحوادث في صدر الشاعر، وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد إلى القصص
من جديد، ولعل أغرب ما وقع له من « النظم » اعتذاره عن افتتاح قصيدته

بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول :
فَهَاكِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةٌ
وَسَمَّتُهَا بِاسْمِكَ الْعَالِي فَالْبَسْتُهَا
غَرِيبَةً فِي إِسَارِ الْبَيْنِ لَوْ أُنِسْتُ
تُهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيًّا الْآسِ وَالْبَرَمِ
ثُوبًا مِنَ الْفَخْرِ لَا يَبْلَى عَلَى الْقَدَمِ
بِنَظَرَةٍ مِنْكَ لَا سَتَعْنَتْ عَنِ النَّسَمِ

لَمْ أَلْتَزِمْ نَظْمَ حَبَّاتِ الْبَدِيعِ بِهَا
وَأِنَّمَا هِيَ آيَاتُ رَجَوْتُ بِهَا
نَثَرْتُ فِيهَا فَرِيدَ الْمَدْحِ فَانْتِظَمَتْ
صَدْرُتُهَا بِنَسِيبِ شَفِّ بَاطِنُهُ
لَمْ أَتَّخِذْهُ جُزَافاً بَلْ سَلَكَتُ بِهِ
تَابَعْتُ كَعْباً وَحَسَاناً وَلِي بِهِمَا
وَالشُّعْرُ مَعْرُضُ الْبَابِ يَرُوجُ بِهِ
فَلَا يَلْمِنِي عَلَى التَّشْبِيبِ ذُو عَنَتٍ

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد
الحوادث، ويغلب فيها الشعر عند الوصف، وعند مناجاة الوجدان.

سَمِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيري والبارودي وشوقي في التسمي باسم النبي
عليه الصلاة والسلام، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد
البوصيري يقول :

إِنْ آتِ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُتَّقِصٍ
فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي
ونجد شوقي يقول :

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي
وكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرُّسُولِ سَمِي

ونجد البارودي يقول :

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِي فَأَعْتَلَيْتُ عَلَى
وَكَيْفَ أَرْهَبُ ضَيْماً بَعْدَ خِدْمَتِهِ
أَمْ كَيْفَ يَخْدُلُنِي مَنْ بَعْدَ تَسْمِيَّتِي

والبوصيري هو صاحب الفكرة، وقد تبعه البارودي، ولحقهما شوقي، وتلك
مسألة فيها نظر كما يقولون !

البحث الثاني والعشرون

التخلص والاقتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الاقتضاب، ويكثر التخلص في شعر المحدثين، كما يكثر الاقتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق : وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى، ثم رجع إلى ما كان فيه، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وَكَفَكْتُ مِنِّي عِبْرَةً فَرَدَدْتُهَا إِلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَائِعُ
عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلَكِنْ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال :

فَبْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

(١) الشغاف : هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كاللحجاب.

يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا^(١) تَطْلُقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ

فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه فقال :

أَتَانِي — أُبَيَّتَ اللَّعْنُ^(٢) — أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
ثم اطرء ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة...

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب، ثم يرجع إلى المدح، كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي فيه منقطعاً، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :

ظَلَمْتُكَ ظَالِمَةَ الْبَرِيِّ ظُلُومٌ	وَالظُّلْمُ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ مَذْمُومٌ
زَعَمْتُ هَوَاكَ عَفَا الْعَدَاةَ كَمَا عَفَتْ	مِنْهَا طُلُوعٌ بِاللَّوَى وَرُشُومٌ
لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى	أَجَلٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلَا عَدْتُ	نَفْسِي عَلَى إِلْفِ سِوَاكَ تَحُومٌ

ثم قال ذلك :

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شَبَابَةَ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ

ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وما هم بسبيله : دع ذا، وعدّ عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بإنّ المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلاً بما قبله، ولا منفصلاً بقوله : (دع ذا)، و (عدّ عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرأ وانقطاعاً، وكان البحري كثيراً ما يأتي به نحو قوله :

(١) السليم : هو الملدوغ، سمي بذلك تفاقلاً بسلامته. كما قيل في الصحراء مفازة.
(٢) تحية جاهلية عاشت حيناً ثم ماتت، وكانت في الأغلب مما يخاطب به الملوك، ولو خاطبت بها اليوم واحداً من ملوك عصرك لاتهموك بقلة الذوق.

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَىٰ لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلٌ
إِنْ الرَّعِيَّةُ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكَّلُ
فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب.

أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاوراة العذول :

إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ الشُّهْمِ
فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ
مِنْ جَهْلَهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى
ضَيْفِ أَلَمِ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوقِرُهُ
كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكُتْمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجْمِ
فَلَا تَرُمُ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهْوَتِهَا
إِنَّ الطَّعَامَ يُقْوِي شَهْوَةَ النَّهْمِ
وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَخَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ
إِنَّ الْهَوَىٰ مَا تَوَلَّى يُضْمِرُ أَوْ يَصِمِ
وَرَاعِيهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تَسْمِ
كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةَ لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ التَّخَمِ

وَأَسْتَغْفِرُ الدَّمَعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ أَمْتَلَتْ
مِنْ الْمَحَارِمِ وَالزَّمِ جَمِيعَةَ النَّدَمِ
وَحَالَفَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِيَهُمَا
وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتَّهِمِ
وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكماً
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ
لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقْمٍ
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ
وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
وَلَا تَرَوِّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً
وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أَصُمِ
ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَيَّ
أَنْ ائْتَمَرْتُ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذ لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فانا نغفر له هذه الإطالة، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس، وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده، فقد رأيناها يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته فيقول :

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لَمْ يَسَاوُوكَ فِي عُلَاكَ وَقَدْ حَا لَ سَنَا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَا
إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ الْمَاءُ

وكأنما جراه شوقي في افتتاح همزيته فقال :
وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى وَالسُّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري ؟ إن الفرق لبعيد ! وإن كان في
تعبير البوصيري شيء من الجفاء، في حق الأنبياء.

وأعود فأذكر أنني أستمح قول البوصيري في رياضة النفس :
وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة : فإن النفس يضر بها
الزهد، كما يطغيها الترف، كالجسم ترديه المسغبة، كما تضره البطنة.

وأستجيد كذلك قوله :
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ وَمَا آسَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ آسَقِمِ

وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه، وخلوص دعوته من شوائب
الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضاً حسن التخلص إذ قال :
لَيْتَ الْقَطَا جِئْنَ سَارَتْ غُدْوَةٌ حَمَلْتُ عَنِّي رَسَائِلَ أَشْوَاقِي إِلَى إِضْمِ
مَرَّتْ عَلَيْنَا خِمَاصاً وَهِيَ قَارِبَةٌ مَرَّ الْعَوَاصِفِ لَا تَلْوِي عَلَى إِرَمِ
لَا تُدْرِكُ الْعَيْنُ مِنْهَا حِينَ تَلْمَحُهَا إِلَّا مِثَالاً كَلْمَحِ الْبَرْقِ فِي الظُّلَمِ
كَأَنَّهَا أَحْرَفُ بَرْقِيَّةٍ نَبَضَتْ بِالسَّلَكِ فَانْتَشَرَتْ فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
لَا شَيْءَ يَسْبِقُهَا إِلَّا إِذَا اعْتَقَلَتْ بَنَاتِي فِي مَدِيحِ الْمُصْطَفَى قَلَمِي

وهذا التخلص مستمح مقبول، ومُضِيّ الشاعر في وصف القطاة إيثاراً للأسلوب
القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء
من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين، ومن سائرهم من المحدثين، وبيان ذلك
أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة شعرية تكاد
تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال، وتكون لهذا الوصف قيمة أي قيمة

حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة. ومن أمثلة ذلك قول أبي صعتره
البولاني :

فَمَا نُطْفَةُ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ جَنَّبَتَا الْجُودِيَّ وَاللَّيْلُ دَامِسُ^(١)
فَلَمَّا أَقَرَّتْهُ اللَّصَابُ تَنَفَّسَتْ شَمَالٌ بِأَعْلَى مَائِهِ فَهُوَ فَارِسُ^(٢)
بِأَطْيَبِ مِنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ وَلَكِنِّي فِيهَا تَرَى الْعَيْنُ فَارِسُ

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشارة بعدوبة
ذلك الثغر الشهّي المذاق، ويمثل هذا قول عاتكة المريّة وكانت كما قال صاحب
زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وَمَا طَعْمُ مَاءٍ أَيْ مَاءٍ تَقُولُهُ تَحَدَّرَ عَنْ غُرٍّ طَوَالِ الذَّوَائِبِ
بِمُنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنٍ وَادٍ تَقَابَلَتْ عَلَيْهِ رِيَّاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
نَفْتُ جَرِيَّةِ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مُتُونِهِ فَمَا إِنَّ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بِأَطْيَبِ مِمَّنْ يَقْصِرُ الطَّرْفَ دُونَهُ تُقَى اللَّهُ وَأَسْتَحْيَاءُ بَعْضِ الْعَوَاقِبِ

فإن لها من وصف الماء في عدوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضاً
خاصاً هو الاشارة بجمال الحياء وطيب العفاف.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد :

وَمَا وَجَدُ أَغْرَائِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا
صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَنْتِ
تَمَنْتِ أَحَالِيْبَ الرِّعَاءِ وَخَيْمَةً
بِنَجْدٍ فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَنْتِ
إِذَا ذَكَرْتَ مَاءَ الْعِضَاهِ وَطِيْبِهِ
وَبَرْدَ الْحَصَى مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرَنْتِ
بِأَوْجَدَ مِنْ وَجْدٍ بَرِيًّا وَجَدْتُهُ
غَدَاةَ غَدُونَا غُدُوَّةً وَأَطْمَأَنْتِ

(١) الجودي : الجبل.

(٢) اللصاب : الشعب الصغير في الجبل.

فَإِنْ يَكُ هَذَا عَهْدَ رِيَّا وَأَهْلِيهَا
 فَهَذَا الَّذِي كُنَّا ظَنُّنَا وَظَنَّتْ
 وَأَرُوْع مِنْ هَذَا قَوْلُ الْأَبْيُورْدِيِّ^(١) :
 وَمَا أُمُّ سَاجِي الطَّرْفِ مَالٌ بِهِ الْكَرَى
 عَلَى عَذَابَاتِ الْجِزْعِ تَحْسَبُهُ قَلْبًا
 تُرَاعِي بِأُحْدَى مُقْلَتَيْهَا كِنَاسَهَا
 وَتَرْمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظْرًا غَرَبًا
 فَلَا حَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ
 كَأَنَّ الرِّيحَ الطَّلَقَ الْبَسَهُ عُصْبًا
 فَمَالَتْ إِلَيْهِ وَالْحَرِيصُ إِذَا غَدَتْ
 بِهِ سَوْرَةُ الْأَطْمَاعِ لَمْ يُحْمِدِ الْعُقْبَى
 وَأَنَسَهَا الْمَرْغَى الْخَصِيبُ فَصَادَفَتْ
 مَدَى الْعَيْنِ فِي أَرْجَائِهِ بَلَدًا خِصْبًا
 فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ
 طَلَاهَا فَالْفَتْهُ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبًا
 أُتِيحَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ
 يَخُوضُ إِلَى أَوْطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبًا
 فَوَلَّتْ عَلَى ذُعُرٍ وَبِالنَّفْسِ مَا بِهَا
 مِنَ الْكَرْبِ لَا لُقِيَتْ فِي حَادِثِ كَرْبًا
 بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا
 لِبَيْنٍ فَلَمْ تَشْرُكْ لِيذِي صَبْوَةٍ لُبًّا
 وَكَانَ يَكْفِي أَنْ يَشَبَّهُ الشَّاعِرَ وَجَدَهُ بِفِرَاقٍ مَحْبُوبَتِهِ بِلَوْعَةِ الظُّبْيَةِ يَغْتَالِ رَشَاهَا
 الذَّائِبُ، وَلَكِنْ هَذِهِ الصُّورَةُ الشَّعْرِيَّةُ الَّتِي وَضَعَهَا لِلغَزَالَةِ المَرْوُوعَةِ الْمُتَلَاعَةِ جَعَلَتْ
 الْمَعْنَى أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، وَأَمْلَكَ لِلْقَلْبِ، وَأَرُوْعَ لِلْوَجْدَانِ.

(١) تجد تفصيل هذه المعاني الوجدانية في كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطبيعة في
 أنفس الشعراء ».

ولنتقل بعد ذلك إلى شوقي، وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب،
فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضرع الدنيا من
المبكيات، وما تُجنُّ من ظلمات الخطوب، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة
النفس وفقرها إلى الأخلاق، وكذلك يقول :

يَا نَفْسُ دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ
فُضِّي بِتَقْوَاكَ فَاهَا كُلَّمَا ضَحِكْتَ
مَخْطُوبَةٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
لَا تَحْفِلِي بِجَنَاهَا أَوْ جِنَائَتِهَا
كَمْ نَائِمٍ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
كَمْ ضَلَلْتُكَ وَمَنْ تُحْجِبُ بِصِيرَتِهِ
يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا
صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
تَطْعَى إِذَا مُكِّنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوَى
إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلُ
أَلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى
إِذَا خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري وإن

قول شوقي :

لَا تَحْفِلِي بِجَنَاهَا أَوْ جِنَائَتِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحْمِ

لأشرف معنى وأسمى خيلاً من قول البوصيري :

وَأَحْسَنَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ

فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ التَّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يُصَلِّ ولم يَصُمْ سوى الفرض، وأنه يَأْسَى على أن لم يتزوَّد نافلة قبل الموت، وأنه لذلك ظلم سُنَّة من أحياء الظلام حتى تورَّمت قدماه، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليزدرف ما دُرف شوقي من الدمع.

وأين شوقي من البوصيري ؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط، وكان يحسن أن يقول :

رَمَضَانُ وَلَّى هَاتِيهَا يَا سَاقِي مُشْتَاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتَاقٍ

ومن هنا سُنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارّة، ويرمي بذلك الندم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب، وانظر كيف يقول :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمٍ

وكان شوقي أوفر الناس إحساساً بخطر ذنبه، وكرم ربه، حين قال :

وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

البحث الثالث والعشرون

المعجزات

لنا في المعجزات رأي خاص، لا يسمح به ظرف الزمان، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض، وقد يثير فتنة نحن عنها أغنياء^(١)، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري، وشوقي، والبارودي من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتدمر من إلحاح المعاندين ولحاجتهم في طلب المعجزات، إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل، وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية، تنفر منها القلوب، وتأبأها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عزّ شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء :

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً. وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا

(١) ومع ذلك سمح الزمن وأبدينا بعض الآراء بصراحة في كتاب « المدائح النبوية » حين حللنا بردة البوصيري، وحين نقدنا قصة المولد النبوي، وقد بدأ الناس يفهمون أن الاسلام في غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل.

تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا،
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْقِكَ حَتَّى تُنْزَلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٠﴾

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئاً؛ وأن الأمر كله لله،
وأن في القرآن هدىً وتبصرةً لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة
العنكبوت :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول
البوصيري :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُؤْصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تَخْبِيرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

وتبعه شوقي فقال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِيدُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقَدَمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة
في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص، ويليهِ البوصيري، أما البارودي
فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل، وقد اشترك البوصيري والبارودي في
الحديث عن سجود الأشجار، وسعيها إلى الرسول، فقال البوصيري :

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمِ
كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ

وقال البارودي :

أَتِلْكَ أُمَّ حِينَ نَادَى سَرَحَةً فَآتَتْ
حَنْتَ عَلَيْهِ حُنُوُّ الْأُمِّ مِنْ شَفَقِ
جَاءَتْهُ طَوْعاً وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا
إِلَيْهِ مَنُشُورَةُ الْأَغْصَانِ كَالْجُمَمِ
وَرَفَرَفَتْ فَوْقَ ذَاكَ الْحُسْنِ مِنْ رَحِمِ
عُودِي وَلَوْ خُلِّيتَ لِلشُّوقِ لَمْ تَرَمِ

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام، فقال :
فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْعَى الْبُهِمَ طَافَ بِهِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّ صَدْرَهُ بِيَدِ
وَبَعْدَمَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا
مَا عَالَجَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيَخْلُصَ مِنْ
فَيَالَهَا نِعْمَةً لِلَّهِ خَصَّ بِهَا
شق صدر النبي وهو غلام، فقال :
شَخْصَانِ مِنْ مَلَكَوتِ اللَّهِ ذِي الْعِظَمِ
رَفِيقَةٍ لَمْ يَسِتْ مِنْهَا عَلَى أَلَمِ
تَوَلَّىَا غَسَلَهُ بِالسَّلْسَلِ الشِّيمِ
شَوْبِ الْهَوَى وَيَعِي قُدْسِيَّةَ الْحَكَمِ
حَبِيبُهُ وَهُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلِمِ

وشقُّ الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه بالسلسيل ليس من المعجزات لأن المعجزة تكون للإقناع، وهو لم يدعُ إلى ربه في طفولته حتى يكون للإقناع مجال، وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس، والله يختص برحمته من يشاء، وقد مر البارودي بهذه الأسطورة مرَّ الطيف، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال، فقد صور النبي فيها صورة رائعة، وتمثَّل فيها لطف الله به، وإحسانه إليه، وتكريمه إياه، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ، ليرى كيف ابتدأ القصص في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي ﷺ قال :
« وَكُنْتُ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُتَبَدِّدٌ
مِنْ أَهْلِي فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَتْرَابِ لِي مِنَ الصَّبِيَّانِ إِذَا أَنَا بِرَهْطٍ ثَلَاثَةٍ مَعَهُمْ
طَشْتُ بَرَهْرَهَةً مِنَ الذَّهَبِ مَلَانِ ثُلُجَاءَ، فَأَخَذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي، وَانْطَلَقَ
أَصْحَابِي هَرَاباً حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى شَفِيرِ الْوَادِي، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّهْطِ وَقَالُوا :
مَا أَرُبُّكُمْ مِنْ هَذَا الْغَلَامِ ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا، هَذَا ابْنُ سَيْدِ قَرِيشٍ، وَهُوَ مُسْتَرْضِعٌ

فينا، غلام يتيم ليس له أب فما يَرُدُّ عليكم قتله، وماذا تصيرون من ذلك ؟
 فإن كنتم لا بُدَّ قاتليه فاختراروا منا أيُّنا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا
 هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحIRON جواباً انطلقوا
 مسرعين إلى الحيِّ يُؤذنونهم وَيُسْتَصِرُّونهم على القوم، قال : فعمد أحدهم
 فأضجعني إلى الأرض إضجاعاً رقيقاً ثم شق بطني ما بين مفرق صدري
 إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مَسّاً، ثم أخرج أحشاء بطني
 فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام الثاني
 منهم فقال لصاحبه : تَنَحَّ عنه، فنحاه عني، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج
 قلبي وأنا أنظر إليه، فصدَّعَه ثم أخرج منه مُضْغَةً سوداء فرمى بها، ثم
 أَمَرَ يده يمينه منه، وكأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم من نور في يده يحار
 الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلاً نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم
 أعاده مكانه فوجدت بَرْدَ الخاتم في قلبي دهرأ، ثم قال الثالث : تَنَحَّ عنه،
 فنحاه عني، فأمر يده على مفرق صدري إلى مُنتهى عانتي، فالتأم ذلك
 الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً، ثم
 قال للأول الذي شق بطني: زنه بعشرين من أمته فوزني فرجحتهم، ثم
 قال : زنه بمائة من أمته فوزني فرجحتهم، ثم قال : زنه بألف من أمته
 فوزني فرجحتهم، ثم قال : دَعُه فوالله لو وَزَنْتَه بأمته لَرَجَحْتَهُمْ. قال :
 ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عيني، ثم قالوا : لا تُرْعَ،
 فإنك لو تدري ما يُرادُ بك من الخير لَقَرَّتْ به عيناك. قال : فبينما نحن
 كذلك إذ أقبل الحيُّ بحذافيرهم، فإذا ظئري أمام الحيِّ تهتف بأعلى صوتها،
 وتقول واضعيفاه ! فانكبوا عليَّ وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي، وما
 بين عيني — يعني الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما أنت
 بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ! ثم قالت ظئري :
 وايتيماه ! ! استضعفت من بين أصحابك فَقُتِلَتْ لضعفك ! قال فانكبوا عليَّ
 وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني — يعني الملائكة —
 وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك

من الخير لقرئت به عيناك ! فوصل الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرتني
أمي — وهي ظئري — قالت : لا أراك إلا حيا بعد ! فجاءت حتى انكبت
عليّ، ثم ضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إني لفي حجرها قد
ضمتني إليها، وإن يدي لفي يد بعض الملائكة، وجعل القوم لا يرونهم،
قال : فقال بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ، أو طائفٌ من الجن
فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت يا هذا ما بي شيء
مما تذكرون، إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح، ليست لي فلتة، فقال أبي
— وهو زوج ظئري — ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ إني لأرجو أن
لا يكون يابني بأس، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فلما انصرفوا
بي قصّوا عليه قصتي، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فإنه هو أعلم
بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه القصة، وأمرني من أوله إلى آخره،
فوثب إليّ وضممني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقتلوا
هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليئدّلن دينكم،
وليسفهنّ عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بدين لم تسمعوا
بمثله ! قال : فعمدت ظئري إليه فانتزعتني من حجره، وقالت : لآنت أغته
وأجن ! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به، فاطلب لنفسك من
يقتلك، فإنّا غير قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت
مُفَزَّعاً مما فعل بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى غانتي
كأنه الشراك^(١) .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكّن القارئ من نقده وتمييزه، ولنجعله على
بينة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فترينا فيه عبارته، إذ كانت عبارة
ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير،
ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث، فإن طريقة القصص التي سلكها قد تدل
على أنه موضوع، وذلك قوله : « روى شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء.

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعَنَّ البارودي بوصف القرآن كما عُني به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقَرَى لَيْلاً عَلَى عِلْمِ
فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السداجة. وعبارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية. وقوله :

فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

غير واضح المدلول، لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن، لأنه لا يهْمُ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل... أما قوله:

فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

فهو بيت يمدح به شخص، ولا يُقَرَّظُ به كتاب، وقد كان الشاعر

عَمُوا وَصَمُّوا فَأَعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ
مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ
وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهْبِ
حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٌ

تُسْمَعُ وَبَارِقَةُ الْإِنْدَارِ لَمْ تُشْمِ
بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْوَجَّ لَمْ يَقُمْ
مُنْقَضَةً وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنْمٍ
مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمٍ

وقال في الهمزية :

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَوْلَا
وَعَدَا كُلُّ بَيْتِ نَارٍ وَفِيهِ
وَعُيُونٌ لِلْفُرسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا

آيَةُ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءُ
كُرْبَةً مِنْ حُمُودِهَا وَبَلَاءُ
نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

ويقول شوقي في نهج البردة :

وَحَلَّ كِسْرَى وَإِيوَانًا يُدِلُّ بِهِ
هَوَى عَلَى أَثَرِ النَّيرَانِ وَالْأُيُمِ

ويقول في الهمزية :

ذُعِرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ فَزُلْزِلَتْ
وَالنَّارُ خَاوِيَةٌ الْجَوَائِبِ حَوْلَهُمْ
وَالْآيُ تَسْرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ

وَعَلَتْ عَلَى تَيْجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ
جَبْرِيلُ رَوَّاحٍ بِهَا غَدَاءُ

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادةً بتلك الخوارق، وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيلة، وهو يتكلم عن هذه الموضوعات، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة، وسرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية .

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات، وأن شوقي أبعد نظراً من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وحمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة، وانقضاض الشهب على الأصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر، وكلها في حاجة إلى تمحيص، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعَنَّ البارودي بوصف القرآن كما عُنيَ به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقِرَى لَيْلاً عَلَى غَلَمٍ
فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السداجة. وعبارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية. وقوله:

فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ

غير واضح المدلول، لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن، لأنه لا يهْمُ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل... أما قوله:

فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

فهو بيت يمدح به شخص، ولا يُقرَّطُ به كتاب، وقد كان الشاعر

يرمي إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق، ولكنه لم يوفق إلى حسن الأداء..

وقوله بعد ذلك :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُوصُوفِ بِالْقِدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحديثه، وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى، لأن إخبار القرآن عن عاد وعن إرم، ليس حجة إلا عند المسلمين، أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار، بَعْدَ أَمْنِ اللَّبْسِ والتزوير...

أما قوله :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

فهو بيت القصيد، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية، وكان هو المرجع حين يَجِدُ الخلاف، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين، أما نبع الماء من بين يدي الرسول، وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له، وما إلى ذلك من المعجزات، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة، وهي مخشّية الضرر، قبل أن تكون مَرْجُوءة النفع، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَامِ
رَدَّتْ بَلَاغُتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ الْعُيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنْ الْحَرَمِ

كلمة صدق، ويكفي أن تقرأ القرآن بحَيِّدَةٍ ونزاهةٍ لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتابٌ خَطَرٌ رهيب، يحمل عَدُوهُ على الإيمان به، والخشوع لديه. ولو صَحَّتْ — لأصَحَّتْ — أَرَاغِيفُ الْمُلْحِدِينَ من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود.

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ .
بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الظَّالِمُونَ ﴾ .

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز :

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ	وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا	وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ	لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَأَعْتَصِمِ
إِنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَى	أَطْفَاتُ نَارٍ لَطَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّبَمِ
لَا تَعْجَبَنَّ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنْكِرُهَا	تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَازِقِ الْفَهْمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ	وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال، وهو غاية في تقرير المكابرين...

أما شوقي فقد قال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَأَنْصَرَمَتْ	وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ	يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقِدَمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ	يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود ألا يكتفي شوقي في وصف القرآن

بهذه الأبيات...، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال :

يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً	حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهْمِ
حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ	فِي كُلِّ مُنْتَشِرٍ فِي حُسْنِ مُنْتَظَمِ
بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ	تُحْيِي الْقُلُوبَ وَتُحْيِي مَيِّتَ الْهِمَمِ

وقول شوقي :

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ	يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقِدَمِ
--	--

أروع من قول البوصيري :

فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا	وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ
--	---

وقول البوصيري :
 إِنَّ تَثْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظِيٍّ أَطْفَأَتْ حَرًّا لَظِيٍّ مِنْ وَرْدِهَا الشَّبِيمِ
 فيه ضعف، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله، وهو تهذيب النفوس،
 وتثقيف العقول، إلى غرض ضئيل وهو اتخاذ ورداً من أوراد الصباح أو المساء،
 كنا فعل المتأخرون.

وقوله :
 حَلَّيْتُ مِنْ عَطَلٍ جَيِّدٍ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْتَثِرٍ فِي حُسْنٍ مُنْتَظِمٍ
 غير جيد المعنى، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة
 البيان، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من
 الشُمُول، وجودة الوصف لاتم إلا بتجديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عُني العرب كثيراً بوصف الحرب، فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة،
 والتمدح بآثار المجاهدين، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عدلٌ على تلك النزعة
 الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل، فقد اختار أبو تمام قطعاً
 قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق، وفعل مثل ذلك في الفكاهات
 والمُلح والنسيب، ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمدح : وهي الفنون التي
 تترجم النفس العربية، وتكشف عما فيها من مطويّ النوازع، ومكنون الميول،
 وكذلك مُهَّدَت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك،
 وما اقتحم من الحروب، وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملّة ولم يميز بعض الغزوات
 عن بعض، وهو يتكلم عن أخبار القتال، فوصفه للحرب وصفٌ فَضْفَاضٌ يصلح
 لبوساً لكل موصوف. وانظر كيف يقول :
 رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بَعْثِهِ كَنْبَاءُ أَجْفَلَتْ غُفْلًا مِنْ الْغَنَمِ

ما زَالَ يَلْقَاهُمُو فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ
 وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغِيبُونَ بِهِ
 تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا
 كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ
 يَجْرُ بَحْرٌ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِغَةٍ
 مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ
 حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ
 وَإِنَّهُ لَيَحْسُنُ أَنْ نَسْجَلَ إِعْجَابَنَا بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِ الْمُجَاهِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ

الرسول :

هُمْ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ
 مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُضْطَدمٍ
 وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا
 فُصُولُ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحْمِ
 الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ
 مِنْ الْعِدَا كُلِّ مُسَوِّدٍ مِنَ اللَّمَمِ
 وَالْكَاتِبِينَ بِسْمِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ
 أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
 شَاكِي السَّلَاحِ لَهُمْ سِيْمَا تُمَيِّزُهُمْ
 وَالْوَرْدُ يَمْتَارُ بِالسِّيْمَا مِنَ السَّلَمِ
 تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُو
 فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلِّ كَمِي

وقد يُسْتَضَعَفُ قَوْلُهُ :

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبَتْ رُبَاً
 مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ
 طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقَاً
 فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبُهْمِ

أما البارودي — جعل الله له لسان صدق في الآخرين — فقد وصف الحرب
وصفاً حياً صارخاً يبعث ميت العزم، ويثير مدفون الصيال، وما ظنك بجندي
سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين همّوا ببناء الصروح الشواخ ليبلغوا أسباب
السموات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلال أجمل من الهدى، وغَيّ أهدي
من الرشاد !

ولننظر كيف يقول :

قَامَ النَّبِيُّ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُعْتَرِماً
بِجَحْفَلٍ لِحُجُوعِ الشَّرْكِ مُخْتَرِمٍ
تَبْدُو بِهِ الْبَيْضُ وَالْقَسْطَالُ مُنْتَشِرٌ
كَالشُّهْبِ فِي اللَّيْلِ أَوْ كَالنَّارِ فِي الْفَحْمِ
لَمْعُ السُّيُوفِ وَتَضْهِالُ الْخُيُولِ بِهِ
كَالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ فِي مُغْدَوْدِقِ هَزَمٍ
عَرْمَرَمٌ يَنْسِفُ الْأَرْضَ الْفَضَاءَ إِذَا
سَرَى بِهَا وَيَدُكُ الْهُضْبَ مِنْ خَيْمٍ
فِيهِ الْكُمَاةُ الَّتِي ذَلَّتْ لِعِزَّتِهَا
مَعَاطِسٌ لَمْ تُذَلَّ قَبْلُ بِالْخُطَمِ
مِنْ كُلِّ مُعْتَرِمٍ بِالصَّبْرِ مُحْتَرِمٍ
لِلْقَرْنِ مُلْتَبِزِمٍ فِي الْبَأْسِ مُهْتَرِمٍ
طَالَتْ بِهِمْ هِمَمٌ نَالُوا السَّمَاءَ بِهَا
عَنْ قُدْرَةٍ وَعُلُوِّ النَّفْسِ بِالْهِمَمِ
بَيْضٌ أَسَاوِرَةٌ غُلَبٌ قَسَاوِرَةٌ
شُكْسٌ لَدَى الْحَرْبِ مِطْعَامُونَ فِي الْأَزَمِ
طَابَتْ نَفُوسُهُمْ بِالْمَوْتِ إِذْ عَلِمُوا
أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي يَتَّعُونَ فِي الْعَدَمِ
سَاسُوا الْجِيَادَ فَظَلَّتْ فِي أَعْيَتِهَا
طَوَّعَ الْبَنَانَةَ فِي كَرٍّ وَمُقْتَحَمِ

تَكَادُ تَفْقَهُ لَحْنَ الْقَوْلِ مِنْ أَدَبٍ
وَتَسْبِقُ الْوَحْيَ وَالْإِيمَاءَ مِنْ فَهْمٍ
كَأَنَّ أَذْنَهَا فِي الْكَرِّ أَلْوِيَّةٌ
عَلَى سَفِينٍ لِأَمْرِ الرَّيْعِ مُرْتَسِمٍ
مِنْ كُلِّ مُنْجَرِدٍ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ
بَيْنَ الْعَجَاجِ هُوِيَّ الْأَجْدَلِ اللَّحْمِ
وَالْيَيْضُ تَرْجُفُ فِي الْأَغْمَادِ مِنْ ظَمَأٍ
وَالشُّمْرُ تَرْعُدُ فِي الْأَيْمَانِ مِنْ قَرَمٍ
مِنْ كُلِّ مُطَرِدٍ لَوْلَا عِلَاقَتُهُ
لَسَابَقَ الْمَوْتَ نَحْوَ الْقَرْنِ مِنْ ضَرَمٍ
كَانَهُ أَرْقَمَ فِي رَأْسِهِ حُمَةً
يَسْتَلُّ كَيْدَ الْأَعَادِي بِابْنَةِ الرَّقَمِ
فَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى أَنْفَ عَلَى
أَرْبَاضٍ مَكَّةَ بِالْفُرْسَانِ وَالْبُهَمِ
وَلَفَّهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ يُشَدُّ عَلَى
أَرْكَانِ رُضْوَى لِأَضْحَى مَائِلَ الدَّعَمِ
فَاقْبَلُوا يَسْأَلُونَ حِينَ رَأَوْا
أَنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى النَّدَمِ
رِيعُوا فَذَلُّوا، وَلَوْ طَاشُوا لَوَقَّرَهُمْ
ضَرْبٌ يُفَرِّقُ مِنْهُمْ مَجْمَعَ اللَّمَمِ

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال، وإنك لتعجب حين ترى البارودي يفتن
في تصوير الحرب، وهو يتحدث عن الغزوات غزوةً، غزوةً وانظر كيف
يقول مثلاً في يوم بدر :
يَوْمٌ تَبَسَّمَ فِيهِ الدِّينُ وَانْهَمَلَتْ
عَلَى الضَّلَالِ عُيُونُ الشُّرْكِ بِالسَّجَمِ

أَبْلَى عَلَيَّ بِهِ خَيْرَ الْبَلَاءِ بِمَا
حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ هَمٍّ
وَجَالِ حَمَزَةٍ بِالصَّمْصَامِ يَكْسُوهُمْ
كَسَاءً يُفَرِّقُ مِنْهُمْ كُلَّ مُزْدَحَمٍ
وَعَادَرَ الصَّحْبُ وَالْأَنْصَارُ جَمْعَهُمْ
وَلَيْسَ فِيهِ كَمِيٌّ غَيْرُ مُنْهَزِمٍ
تَقَسَّمَتْهُمْ يَدُ الْهَيْجَاءِ عَادِلَةً
فَالْهَامُ لِلْبَيْضِ وَالْأَبْدَانُ لِلرَّخَمِ
كَأَنَّمَا الْبَيْضُ بِالْأَيْدِي صَوَالِجَةٌ
يَلْعَبْنَ فِي سَاحَةِ الْهَيْجَاءِ بِالْقِمَمِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَمِيٌّ غَيْرُ مُنْجَدِلٍ
عَلَى الرِّغَامِ وَعُضُوءٍ غَيْرِ مُنْحَطِمٍ
فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ وَالْحَرْبُ مُسْعِرَةٌ
حَتَّى غَدَا جَمْعُهُمْ نَهْبًا لِمُقْتَسِمٍ
قَدْ أُمْطَرْتَهُمْ سَمَاءُ الْحَرْبِ صَائِبَةً
بِالْمَشْرِفِيَّةِ وَالْمُرَّانِ كَالرُّجَمِ
فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ صَلَفٍ
وَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ فَخْرٍ وَمِنْ شَمِّ
جَاؤُوا وَلِلشَّرِّ وَسَمٌّ فِي مَعَاطِسِهِمْ
فَارْغُمُوا وَالرَّدَى فِي هَذِهِ السَّيِّمِ
مَنْ عَارَضَ الْحَقَّ لَمْ تَسْلَمْ مَقَاتِلُهُ
وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْأَخْطَارِ لَمْ يَنْجُ

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ما تقضي به
الحروب من غلبة الغضب وشمول العُيُوس، ولننظر كيف يقول :

الْبَدْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمٍ
شُمُّ الْجِبَالِ إِذَا طَاوَلَتْهَا أَنْخَفَضَتْ وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسَمَتْهَا تَسِيمُ

وَاللَّيْثُ دُونَكَ بَأْسًا عِنْدَ وَثْبَتِهِ
تَهْفُو إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتَهَا
مَحَبَّةُ اللَّهِ الْقَاهَا وَهَيْئَتُهُ
كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّقْعِ بَدْرٌ دُجَى
بَدْرٌ تَطْلُعُ فِي بَدْرِ فَعُرَّتُهُ
إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَاكِي السَّلَاحِ كَيْمِي
فِي الْحَرْبِ أَفِيدَةُ الْأَبْطَالِ وَالْبُهِمِ
عَلَى آبِنِ آمِنَةٍ فِي كُلِّ مُضْطَرَمٍ
يُضِيءُ مُلْتَثِمًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَثِمِ
كَغَرَّةِ النَّصْرِ تَجْلُو دَاجِي الظُّلَمِ

وهذا شعر جميل، لكنه أرق من أن يُوصَفَ به ذوو البأس وهم يقارعون الهول في ميدان الجلال، ويعجبني قوله في وصف الغزاة:

مَهْمَا دُعِيَتْ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا
عَلَى لِيَاكٍ مِنْهُمْ كُلِّ مُنْتَقِمِ
مُسَبِّحٍ لِلِقَاءِ اللَّهِ مُضْطَرِمِ
لَوْ صَادَفَ الدَّهْرَ يَبْغِي نَقْلَةً فَرَمَى
بِيضٌ مَفَالِيلُ مِنْ فِعْلِ الْحُرُوبِ بِهِمْ
كَمْ فِي التُّرَابِ إِذَا فَتَشْتَ عَنْ رَجُلٍ
لَوْ لَا مَوَاهِبُ فِي بَعْضِ الْأَنَامِ لَمَّا
تَرَمِي بِأَسْدٍ وَيَرَمِي اللَّهُ بِالرُّجْمِ
لِلَّهِ مُسْتَقْتَلٍ فِي اللَّهِ مُعْتَزِمِ
شَوْقًا عَلَى سَابِحِ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِمِ
بِعَزْمِهِ فِي وَحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرِمِ
مِنْ أَسِيفِ اللَّهِ لَا الْهِنْدِيَّةِ الْخُزْمِ
مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ
تَفَاوَتْ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيَمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي إشارة خفيفة حين قال:

ذَاقُوا الرَّدَى جُرْعًا فَاسْتَسَلَّمُوا جَزْعًا لِلصُّلْحِ وَالْحَرْبِ مَرْقَاةً إِلَى السَّلَامِ
أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد، وأفصح عنها إفصاحاً يُرضي المنصف ويكبح جهل الكنود، ولننظر كيف يقول:

قَالُوا غَزَوْتَ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا
جَهْلٌ وَتَضْلِيلُ أَحْلَامٍ وَسَفْسَطَةٌ
لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوٌ كُلُّ ذِي حَسَبٍ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّه بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ
لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاؤُوا لِسَفْكِ دَمٍ
فَتَحْتَ السَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
تَكْفَلُ السَّيْفُ بِالْجُهَّالِ وَالْعَمَمِ
ذُرْعًا وَإِنْ تَلَقَّه بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية، فقد كانت دين سلام وإنحاء، ولكنها لم تقم إلا بالسيف، وفي هذا يقول :

سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْغَرَاءَ كَمْ شَرِبَتْ
طَرِيدَةُ الشَّرِكِ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا
لَوْ لَا حُمَاةُ لَهَا هَبُوا لِنُصْرَتِهَا
بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْعِلْمِ
فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالاً سَاطِعَ الْحَدَمِ
بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفَقِ وَالرَّحْمِ

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد، فقال :

عَلَّمْتَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ
لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلدُّوَلَاتِ فِي زَمَنِ
تِلْكَ الشُّوَاهِدُ تَتَرَى كُلَّ آوَنَةٍ
بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَاعْتَلَتْ سُرُرٌ
حَتَّى الْقِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الدِّمِ
مَا طَالَ مِنْ عُمْدٍ أَوْ قَرٍّ مِنْ دَعَمِ
فِي الْأَعْصِرِ الْعُرْلَا فِي الْأَعْصِرِ الدُّهُمِ
لَوْلَا الْقَذَائِفُ لَمْ تُكَلِّمْ وَلَمْ تُصَمِّ

المدنية الاسلامية

وقد انفرد شوقي بالافصاح عن جلال المدنية الاسلامية، وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان، وفي ذلك يقول :

دَعُ عَنْكَ رُومًا وَآتِينَا وَمَا حَوَاتَا
وَخَلَّ كِسْرَى وَإِيُونَا يُدِلُّ بِهِ
وَأَتْرُكُ رَعْمَسِيْسَ إِنَّ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ
دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ
مَا ضَارَعَتْهَا بَيَانًا عِنْدَ مُلْتَأَمٍ
وَلَا آخَتَوَتْ فِي طِرَازٍ مِنْ قِيَاصِهَا
مِنَ الدِّينِ إِذَا سَارَتْ كَتَائِبُهُمْ
وَيَجْلِسُونَ إِلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ
يُطَاطِئُ الْعُلَمَاءُ الْهَامَ إِنْ نَبَسُوا
كُلَّ الْيَوَاقِيْتِ فِي بَغْدَادَ وَالتُّومِ
هَوَى عَلَى أَثَرِ النِّيرَانِ وَالْأُيُمِ
فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ
دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلَقَتْ يَدَ السَّلَمِ
وَلَا حَكَّتْهَا قَضَاءٌ عِنْدَ مُخْتَصِمِ
عَلَى رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصِمِ
تَصَرَّفُوا بِحُدُودِ الْأَرْضِ وَالتَّخْمِ
فَلَا يُدَانُونَ فِي عَقْلِ وَلَا فَهْمِ
مِنْ هَيْبَةِ الْعِلْمِ لَا مِنْ هَيْبَةِ الْحُكْمِ

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام، وما كان لهم من الأثر في حياة الدين. ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله :

وَأَتْرُكُ رَعْمَسِيَّسَ إِنَّ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ

فإنه من فرائد الأمثال... ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري سما في المدائح النبوية سُموّاً لم يُوفَقْ إلى معشاره في سائر شعره؛ وهذا أثرٌ لصدق العاطفة، بخلاف صاحبيه، فإن شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ، وصدق شوقي حين قال :

الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعٌ لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
مَدِيحُهُ فِيكَ حُبٌّ خَالِصٌ وَهَوَى وَصَادِقُ الْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلِمِ

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج : « سابق حلبة الشعراء العامرين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين » كما قال أبو حيان.

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره، ولكننا رأينا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه في ذلك الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدنا أبا علي؟ فقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يافكون! قال: هات إذاً. فأنشده رائيته المشهورة:

أَجَارَةَ يَتَيْتِنَا أَبُوكِ غُيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ

فاهتز لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنية. وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الأمصار، وعارضها كثير من الشعراء، منهم أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي — وسنيسط عنه القول — ومنهم حسان بن نمر المعروف بعرقلة الدمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر كما فعل أبو نواس حين توجه بقصيدته إلى الخصيب،

وفيها يقول :

عَسَى مِنْ دِيَارِ الظَّالِمِينَ بَشِيرُ
لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي بَعْدَهُمْ وَتَكَاثَرَتْ
وَكَمْ بَيْنَ أَكْنَافِ الثُّغُورِ مُتِيمُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ بِالْمَاطِرُونَ قَطَعْتُهَا
سَقَى اللَّهُ مِنْ سَطْرًا وَمَقَرًا مَنَازِلًا
وَلَا زَالَ ظِلُّ النَّيِّرِينَ فَإِنَّهُ
وَيَا بَرْدَى لَا زَالَ مَأْوِكَ بَارِدًا
أَبَى الْعَيْشُ إِلَّا بَيْنَ أَكْنَافِ جَلْقِ
وَكَمْ بِحِمَى جَيْرُونَ سِرْبُ جَاذِرِ
وَلَكِنْ سَأُخَوِّيه إِذَا سِرْتُ قَاصِدًا
وَمِنْ جَوْرِ أَيَّامِ الْفِرَاقِ مُجِيرُ
هُمُومِي وَلَكِنَّ الْمُحِبَّ صَبُورُ
كَيْبُ غَزَتُهُ أُعَيْنَ وَثُغُورُ
وَيَوْمٍ إِلَى الْمَيْطُورِ وَهُوَ مَطِيرُ
بِهَا لِلنَّدَامَى نَظْرَةٌ وَسُرُورُ
طَوِيلُ وَيَوْمُ الْمَرْءِ فِيهِ قَصِيرُ
وَمَاءُ الْحَيَا مِنْ سَاحَتِكَ نَمِيرُ
وَقَدْ لَاحَ فِيهَا أَشْمُسُ وَبُدُورُ
حَبَائِلُهُنَّ الْمَالُ وَهُوَ نَفُورُ
إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الصَّلَاحُ أَمِيرُ

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله :

إِلَّا فَرَعَى اللَّهُ الصَّبَا مَا أَبْرَهُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافُ يَرِفُ ظِلَالُهُ
وَإِذْ نَحْنُ فِيمَا بَيْنَ إِخْوَانٍ لَذَّةٍ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلَاعِبِ
فَالْحَاطِنَا بَيْنَ النَّفُوسِ رَسَائِلُ
عَقَدْنَا جَنَّا لَيْلَنَا بِنَهَارِنَا
وَقُلْنَا لَسَاقِينَا أَدْرَهَا فَإِنَّمَا
فَطَافَ بِهَا شَمْسِيَّةٌ لَهْيَّةٌ
إِذَا مَاشَرَبْنَاهَا أَقْمَنَا مَكَانَنَا
وَحَيًّا شَبَابًا مَرٌّ وَهُوَ نَضِيرُ
عَلَيْنَا وَسَلَسَالُ الْوَفَاءِ نَمِيرُ
عَلَى شَيْمٍ مَا إِنْ بِهِنَ نَكِيرُ
بِهَا اللَّهْوُ خِدْنُ وَالشَّبَابُ سَمِيرُ
وَرِيحَانُنَا بَيْنَ الْكُؤُوسِ سَفِيرُ
وَطَرْنَا مَعَ اللَّذَاتِ حَيْثُ تَطِيرُ
بَقَاءُ الْفَتَى بَعْدَ الشَّبَابِ يَسِيرُ
لَهَا عِنْدَ الْبَابِ الرَّجَالُ تُوُورُ
وَضَلَّتْ بِنَا الْأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمام الساجعة :

وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ عُمَرَ ظَلَامِهَا
شَعَلْتُ بِهَا قَلْبِي وَمَتَّعْتُ نَاطِرِي
صَنَعْتُ بِهَا صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ
إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ
وَنَعَمْتُ سَمْعِي وَالْبَنَانُ طُهُورُ
وَجِيرَتِهِ، وَالْعَادِرُونَ كَثِيرُ

فَمَا رَاعَنَا إِلَّا خَفِيفُ حَمَائِمٍ
تُجَاوِبُ أَتْرَابًا لَهَا فِي خَمَائِلٍ
نَوَاعِمُ لَا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ
تَوَسَّدُ هَامَاتٍ لَهْنٍ وَسَائِدًا
كَأَنَّ عَلَى أُعْطَافِهَا مِنْ حَبِيبِكُهَا
خَوَارِجُ مِنْ أَيْلٍ دَوَاحِلُ غَيْرِهِ
إِذَا غَارَ لَتَهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ كَانَمَا
فَلَمَّا رَأَيْتُ الصُّبْحَ قَدْ رَفَّ جِيدُهُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الذَّيْلِ تَيْهَا وَإِنَّمَا

لَهَا بِهَا بَعْدَ الْحَيْنِ صَفِيرُ
لَهْنٍ بِهَا بَعْدَ الْحَيْنِ صَفِيرُ
وَلَا دَائِرَاتِ الدَّهْرِ كَيْفَ تَدُورُ
مِنْ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ
تَمَائِمٍ لَمْ تُعْقِدْ لَهْنٌ سُيُورُ
زَهَاةٍ مِنْ ظِلِّ سَابِغٍ وَغَدِيرُ
عَلَى صَفَحَتَيْهَا سُندُسٌ وَحَرِيرُ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْجِ الظَّلَامِ سُتُورُ
يَتِيهِ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهُوَ قَدِيرُ

ومن الوفاء أن ننوّه بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه، وهو يقول :
وَلِي شِيمَةٌ تَأْبَى الدَّنَايَا وَعَزْمَةٌ
إِذَا سِرْتُ فَلِلْأَرْضِ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا
فَلَا عَجَبٌ أَنَّ لَمْ يَصُرْنِي مَنْزِلُ
هَمَامَةٍ نَفْسٍ لَيْسَ يَنْفِي رِكَابَهَا
مَعْوَدَةٌ أَنْ لَا تَكُفَّ عِنَانُهَا
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أُذُنٌ سَمِيعَةٌ
وَفَيْتُ بِمَا ضَنَّ الْكِرَامُ فِرَاسَةً
وَأَصْبَحْتُ مُحْسُودَ الْجَلَالِ كَأَنِّي
إِذَا صُلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلُوءِهِ

تَرُدُّ لَهَا الْجَيْشَ وَهُوَ يَمُورُ
مَرَادٌ لِمُهْرِي وَالْمَعَاوِلُ دُورُ
فَلَيْسَ لِعُقْبَانِ الْهَوَاءِ وَكُورُ
رَوَاحٍ عَلَى طُولِ الْمَدَى وَبُكُورُ
عَنِ الْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَتِمَّ أُمُورُ
وَعَيْنٌ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ بَصِيرُ
بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ
عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي الزَّمَانِ أَمِيرُ
وَإِنْ قُلْتُ غُصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظان الابتذال.

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلاً عن نفرة جارتة منه، وانصرافها عنه، وأن يذكر مادار بينه وبين زوجته من الحوار حين هم بالرحيل، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ثم عاد فتكلم عن هيئته، وما أعد للسلم والحرب، وما له من طيب العنصر وكرم الأخلاق، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين :

وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتُكَ بِالْمُنَى وَأَنْتَ بِمَا أُمَلْتُ فِيكَ جَدِيرٌ
فَإِنْ تُؤَلِّيَ مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ وَإِلَّا فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورٌ

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها، فنذكر أولاً أنه حاور جارتة بقوله :

أَجَارَةَ بَيْتِنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
وَإِنْ كُنْتَ لَا خِلْمًا وَلَا أَنْتَ زَوْجَةٌ فَلَا بَرَحْتُ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ

وليس في صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء، وعبارة « أجارة بيتنا » ثقيلة على السمع، وهي كذلك غير واضحة المدلول، أو هي تحتاج على الأقل إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد ببيتي جارتة بيت السكن وبيت النسب وقد يريد غير ذلك، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — أنني كنت أناقش الأستاذ محمد الهياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للأدب، فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة بيتنا أبوك غيور » لقد كان يكسر التاء من « بيتنا » ظناً منه أن هذا اسم مكان^(١) ! !

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الأول بقوله :

(١) عاتبنا الأستاذ أبو بكر المنفلوطي على هذه الدعابة التي مست أخاه ولكننا لا نرى بأساً من تسجيل بعض هفوات من عرفناهم من الأدباء، وهي مع ذلك لا تغض من المنفلوطي الكاتب، فقد شغل الشبان في عصره، وكان بلا جدال من أقطاب البيان.

وَإِنْ كُنْتُ لَا حِلْمًا وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ فَلَا بَرَحْتُ دُونِي عَلَيْكَ سُورٌ

فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب أن تكون مرجع هواه، ثم يصرح بأنها ليست زوجة ولا صديقة، فيضطرك إلى أن تسأله : وإلام تقصد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور » ؟ ثم يغلب عليه ضيق الصدر، وقلق النفس، فيقول :

وَجَاوَرْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورٌ
فَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةٍ لَأَزِبِ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ قَدِيرٌ

وهو بهذا يتملل من أسر فؤاده وحبس أمانيه في تلك البقعة التي لم يقرّ لقلبه فيها قرار، ولم تنعم عينه فيها بغير لأاء النجوم، حين تأنس العيون بالعيون، وتسكن القلوب إلى القلوب.. ! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء، وخطرات النفوس، فقال :

وَإِنِّي لِطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ ضَمِيرٌ

والزجر هنا ليس معناه الردع، وإنما هو من زجر الطير. وأصله أن يرمي الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به، فإن ولّاه في طيرانه ميامنه تفاعل به، وإن ولّاه مياسره تطاير منه، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العين، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به وقسوتها عليه، وإن لم تصرح بالقطيعة، ولم تعلن الصدود... ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة، بل شبّه نظرته بنظرة العقاب في سكون الريح، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأَرغب، فقال :

كَمَا نَظَرْتُ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ لَهَا

عُقَابٌ بِأَرْسَاغِ الْيَدَيْنِ نَدُورٌ

طَوَتْ لَيْلَتَيْنِ الْقُوتَ عَنْ ذِي ضَرُورَةٍ

أَزْيَغَبَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرٌ

فَأَوْفَتْ عَلَى غُلْيَاءٍ حِينَ بَدَأَ لَهَا

مِنْ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمُورُ

تَقَلُّبُ طَرْفًا فِي حِجَا جِي مَعَارَةٍ
مِنْ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ سُرُورُ

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته، إذ هي تقليد صريح لأسلوب الأعراب، ويظهر أن أبا نواس كان يُعنى في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد وهو يتحدث عن الصهباء، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين، من كل رخم الصوت، أو أصبح الوجه، أو عذب الحديث، وهو الذي يقول :

قَدْ أَسْحَبُ الزُّقَّ يَا بَابِي وَأُكْرِهُهُ
حَتَّى لَهُ فِي أُدِيمِ الْأَرْضِ أُخْدُودُ
لَا أُرْجِلُ الرَّاحَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا

حَادٍ بِمُتَّحِلِ الْأَشْعَارِ غَرِيْدُ
فَاسْتَنْطِقِ الْعُودَ قَدْ طَالَ السُّكُوتُ بِهِ

لَنْ يَنْطِقَ اللَّهُوْ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ
ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته، وصدق فراسته، إلى الحديث عن حوار زوجه، فقال :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي عَزِيْزُ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتُهَا بِوَادِرٍ جَرْتُ فَجَرَى مِنْ جَرِيْهِنَّ عَبِيرُ
ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيْكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيْبُ أَمِيرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار، ويرجع جمالها إلى ما فيها من وضوح الفكرة وسلامة التعبير، وانظر الصدق في قوله:

أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد والمناقب، لكل من جُنَّ له الدهر فظفر بإثارة من الملك أو زاد بسطة في المال — وقوله :

ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

من الأبيات المختارة، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات المستملحة، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت : إذا يكثر حسادها، وتبلغ أملها. وأمر له بألف دينار، ثم قال في مدح الخصيب :

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا فَأَيُّ فَتَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
فَمَا جَارَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

وليس لهُذين البيتين قيمة أدبية، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير الناس على الإطلاق، وأن الجود لا يجوزه، ولا يحل دونه، وإنما يصير حيث يصير، إلى ما هناك من وثبات الخيال. وقد نال منه الضعف والاسفاف حين قال :
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي سُودُودًا مِثْلَ سُودُودِ يَحِلُّ أَبُو نَصْرِ بِهِ وَيَسِيرُ
ولكنه وفق كل التوفيق حين قال :

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فإنه يصف الخصيب بالسعي لئيل السمعة الحسنة، والصيت البعيد، ويصفه مع هذا بضبط النفس، والحذر من عاديات النوائب، وجائزات الخطوب، ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير إلا إذا خطا في حكمه وملكه خطوات الحذر الهيب، الذي يتوقع في كل لحظة أن يتنكر له الدهر، وأن تثور من حوله الأقدار... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين، وتنكيله بالعابثين بأمن الناس، فقال :

وَأَطْرَقَ حَيَّاتُ الْبِلَادِ لَحْيَةً خَصِيبِيَّةَ التَّصْمِيمِ حِينَ تَسُورُ
سَمَوْتَ لِأَهْلِ الْجَوْرِ فِي حَالِ أَمْنِهِمْ فَأَضْحَوْا وَكُلُّ فِي الْوَثَاقِ أُسِيرُ
إِذَا قَامَ غَنَّتُهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر في ذلك العهد كانت تقاسي شيئاً من الاضطراب، وكانت لذلك طُعْمَةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء، وأي سُخر آلم للنفس، وأوجع للقلب، من قول أبي نواس في أحد فتيان مصر وهو يرسف في الصَّفَاد :

إِذَا قَامَ غَنَّتُهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال :
فَمَنْ يَكُ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِي فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَبِيرُ
وَمَا زِلْتُ تُؤَلِّيهِ النَّصِيحَةَ يَا فِعَا إِلَى أَنْ بَدَأَ فِي الْعَارِضِينَ قَتِيرُ
إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَأَمَّا كَفَيْتُهُ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِالْكَفَاءِ تُشِيرُ

وهذا من أجمل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك،
وفي هذه القصيدة قطعة آخرها الشاعر، وكانت أولى بالتقديم، وهي وصف رحلة
الشعراء إلى الخصيب، ونحن نسرد هذه القطعة تنميماً للموضوع، ونصرح بأنها
رديئة في العبارة، وفي السياق. قال :

رَحَلْنَا بِنَا مِنْ عَقْرُقُوفٍ وَقَدْ بَدَأَ مِنْ الصُّبْحِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ شَهِيرُ
فَمَا نَجَدَتْ بِالْمَاءِ حَتَّى رَأَيْتُهَا مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَبَاغِ تَغُورُ
وَعُمُرُنْ مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشَرَبَةٍ وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكَ الصَّبَاحِ زَمِيرُ
وَوَافِينَ إِشْرَاقًا كَنَائِسَ تَذْمُرِ وَهُنَّ إِلَى رُغْنِ الْمُدْحَنِ صُورُ
يَوْمُومَنْ أَهْلَ الْغُوطَتَيْنِ كَانَمَا لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْغُوطَتَيْنِ ثُورُ
وَقَاسِينَ لَيْلًا دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكَدْ سَنَا صُبْحِهِ لِلنَّاظِرِينَ يُنِيرُ
وَأَصْبَحْنَ بِالْجَوْلَانِ يَرْضَخْنَ صَخْرَهَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاجِهِنَّ شَطُورُ
وَأَصْبَحْنَ قَدْ فَوَّزْنَ مِنْ نَهْرِ فُطْرُسِ وَهُنَّ عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ زُورُ
طَوَالِبُ بِالرُّكْبَانِ غَزَّةَ هَاشِمِ وَفِي الْفَرَمَا مِنْ حَاجِهِنَّ شُقُورُ

واستأنف مدح الخصيب، فقال :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا عَلَى رَكْبِهَا أَنْ لَا تَزَالَ مُجِيرُ
مِنْ الْقَوْمِ بَسَامٌ كَانَ جَبِينَهُ
سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِي ضَوْؤُهُ وَيُنِيرُ
زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفُ وَالرُّمْحُ فِي الْوَعَى
وَفِي السَّلْمِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ

جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدِي كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
وَمِنْ دُونَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غُيُورُ
لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَانَهُمْ
إِذَا اسْتُؤْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ

وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في
قصيدة ابن درّاج.

البحث السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يافكون، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس، ولكننا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الأدب والفلسفة والتشريع، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرق، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق، وسنرى كيف بذأ أبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين : فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطاً إلى نشاط، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته فيما كان يعني به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون.

وهذه رسالة أبي الوليد الشقندي — التي وضعها في تفضيل برّ الأندلس على بر العدو، والتي أثبتتها المقرئ طيب الله ثراه في نفح الطيب — تدل على رغبة الأندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، وإني لذاكر ما جاء عن الشعر والشعراء، لأضع يد القارئ على أثر هو في جملة ثمره لما كان من التنافس بين

قرطبة وبغداد، ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود^(١).

قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله :

وَلَيْلٍ بِسَدِّ النَّهْرِ أَنْسًا قَطَعَتْهُ
نَضَّتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَابٍ مُنْعَمٍ
بَذَاتِ سِوَارٍ مِثْلٍ مُنْعَطِفِ النَّهْرِ
فَيَا حُسْنَ مَا انْشَقَّ الْكِمَامُ عَنِ الزَّهْرِ

وقوله في أبيه :

سَمِيذَعٌ يَهَبُ الْآلَافَ مُبْتَدِئًا
لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يُقْبِلُهَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ يُلْفَى وَهُوَ يَعْتَذِرُ
لَوْلَا نَدَاهَا لَقُلْنَا إِنَّهَا الْحَجَرُ

ومثل ابنه الرضى في قوله :

مَرُّوا بِنَا أَصْلًا مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ
لَا غَرَوْا إِنْ زَادَ فِي وَجْدِي مُرُورُهُمْ
فَأَوْقَدُوا نَارَ قَلْبِي أَيَّ إِيقَادٍ
فَرُؤْيَةُ الْمَاءِ تُذَكِّي غُلَّةَ الصَّادِي

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب ؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل، وأحب إلى الاسماع من حبيب وصل، التي منها :

أَثْمَرَتْ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ مُلُوكِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشِقُ مُثْمَرًا
وَصَبَّغَتْ دِرْعَكَ مِنْ دِمَائِ كُمَاتِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرًا

(١) جاء في نفح الطيب ص ٧٧٨ ما نصه : « قال ابن سعيد، أخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبته أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن فجرت بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم نزاع في التفضيل بين البرين. فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدو، ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم. فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بر كم بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدو ؟ فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل منكما رسالة في تفضيل بره، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً وأرجو إذا احلينا له فكر كما يصدر منكما ما يحسن تخليده ففعلاً ».

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقل — مع طولها — أرق منها في التشبيب، وهي التي يقول فيها^(١) :

كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَضْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد وإصابته الغرض حين استحسِن المعتمد قول المتنبي :

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْعُيُونُ بِنَظَرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعَيِّ الْمَطِيِّ وَرَازِمُهُ

فارتجل :

لَيْنُ جَادَ شِعْرُ ابْنِ الْحُسَيْنِ فَإِنَّمَا تُجِيدُ الْعَطَايَا وَاللَّهَا تَفْتَحُ اللَّهُهَا
تَنَبَّأَ عُجْبًا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بَأَنَّكَ تَرَوِي شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي : هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام، الذي إن مدح الملوك قال قوله :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى^(٢) وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضُمَّنُ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ بِتَقْصِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ
مُجِيرُ الْهُدَى وَالْدِّينِ مِنْ كُلِّ مُلْجِدٍ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِلضَّلَالِ مُجِيرُ^(٣)

وإن ذكر الغربة عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال :

(١) ارجع إلى هذه القصيدة في كتاب : « مدامع العشاق ». فقد أثبتناها كلها هناك، وقد عارضها شوقي بنونية مطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نأسي لواديك أم نشجى لوادينا
(٢). التوى : الهلاك.

(٣) اختار الشقندي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج، ولكننا اكتفينا بذكر هذه الأبيات لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية، وقد قال الشقندي في التعقيب على ما اختاره :

« وأنا أقسم بما حوته هذه الأبيات، من غرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم ونائر ».

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعًا بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ
أَتَفَرَّقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةٌ نَاهِبِ
وَلَيْنَ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلٍ فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آئِبِ
هَلْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ بَدْرًا طَالِعًا فِي الْأُفُقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبِ

وان شبه قال :

لِمَعَاقِلٍ مِنْ سَوَسَنِ قَدْ شَيَّدَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بِنَاءَهَا فَوْقَ الْقُضْبِ
شُرَفَاتُهَا مِنْ فِضَّةٍ وَحُمَاتُهَا حَوْلَ الْأَمِيرِ لَهُمْ سُيُوفٌ مِنْ ذَهَبِ

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به السحر،
ويطيب به الزهر، وهو أبو عمرو بن فرج في قوله :

وَطَائِعَةُ الْوَصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ فَبَاتَتْ دِيَاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةَ الْقِنَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ لَهَا دَوَاعِي
فَمَلَّكَتُ النَّهْيَ حُجَّابَ شَوْقِي لِأَجْرِي بِالْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي
وَبْتُ بِهَا مَبِيتَ السَّقْبِ يَظْمًا فَيَمْتَعُهُ الْعُكَّامُ مِنَ الرِّضَاعِ^(١)
كَذَلِكَ الرُّوضُ مَا فِيهِ لِمِثْلِي سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَاءِ مُهْمَلَاتٍ فَاتَّخَذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي

وهل بلغ أحد من مشبي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللماي :

عَارِضٌ أَقْبَلَ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَتَهَادَى كَتَهَادِي ذِي الْوَجَى
بَدَّدَتْ رِيحُ الصَّبَا لَوْلُوهُ فَأَنْبَرَى يُوقِدُ عَنْهُ سُرُجَا

ومثل قول أبي حفص بن برد :

وَكَاَنَّ اللَّيْلَ جِينَ لَوَى ذَاهِبًا وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
كِلَّةٌ سَوْدَاءُ أَحْرَقَهَا غَامِدٌ أُسْرَجَ مِصْبَاحَا

(١) - السقب : ولد الناقة. والعكام : ما يعكم به.

وهل منكم من وصف ما تحدثه الحمرة، من الحمرة على الوجنة، يمثل قول الشريف الطليق :

أَصْبَحْتُ شَمْساً وَفُوهُ مَغْرِباً وَيَدُ السَّاقِي الْمُحْيِي مَشْرِقاً
وَإِذَا مَا غَرَبْتُ فِي فَمِهِ تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقاً

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر على كل إنسان.

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُو حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار واستلبه بلطف استلاب الشمس لرضاب ظل الأسحار، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ويغني في الارتياح، عن شرب الراح، وهو ابن شهيد في قوله:

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ وَنَامَ وَنَامَتْ عُيُونُ الْحَرَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى رِقْبَةٍ دُنُو رَفِيقِي دَرَى مَا التَّمَسِ
أَدَبُ إِلَيْهِ دَبِيبَ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَى وَأَرَشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسِ
فَبِتْ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِماً إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الْعَلَسِ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه، فعارض الصهيل بالنهاق، وقابل العذب بالزعاق، فقال ويا ليلته سكت:

وَنَفَّضْتُ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ حُبَابِ وَرُكْنِي خِيفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ

وأنا أقسم لو زار جمل محبوبه له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن، المنفض للعيون، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في وقوله :

قَالَتْ لَقَدْ أَغْيَيْتَنَا حِجَّةً فَأَتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّاهِرُ
وَأَسْقَطَ عَلَيْنَا كُسُوطِ النَّدَى لَيْلَةً لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصراً، المتقدمين قدراً، حيث نقل السعي إلى محبوبته، فقال — ويا ليلته لم يزل يقول مثل هذا فبمثله ينبغي أن

يُتَكَلَّمُ، وَمِثْلُهُ يَلِيْقُ أَنْ يُدَوِّنَ :
وَوَاعَدْتُهَا وَالشَّمْسُ تَجَنَّحُ لِلنَّوَى
بِزَوْرَتِهَا شَمْسًا وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِي
فَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى
وَطَوْرًا كَمَا مَرَّ النِّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ
فَعَطَّرَتْ الْآفَاقَ حَوْلِي فَأَشْعَرْتُ
بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرْفُ يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْيِيلِ آثَارَ سَعِيهَا
كَمَا يَتَقَصَّى قَارِئُ أَحْرِفِ السَّطْرِ
فَبِتُّ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى
تَبَّهَ بَيْنَ الْغُصْنِ وَالْحَقْفِ وَالْبَدْرِ
أَعَانِقُهَا طَوْرًا، وَأَلْتَمِ تَارَةً
إِلَى أَنْ دَعَيْنَا لِلنَّوَى رَايَةَ الْفَجْرِ
فَفَضْتُ عُقُودًا لِلتَّعَانُقِ بَيْنَنَا
فِيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَتْرُكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

وهل منكم من مُقَيَّدٍ بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال — وهو ابن اللبانة :
بِنَفْسِي وَأَهْلِي جِيرَةً مَا اسْتَعْتَهُمْ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا وَأَنْشَيْتُ مُعَانَا
أَرَأَشُوا جَنَاحِي ثُمَّ بَلَّوْهُ بِالنَّدَى فَلَمْ أُسْتَطِعْ مِنْ أَرْضِهِمْ طَيْرَانَا

ومن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان فقابل ذلك بقطع
مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وضاح :

هَلْ كُنْتُ إِلَّا طَائِرًا بِفَنَائِكُمْ فِي دَوْحِ مَجْدِكُمْ أَقُومُ وَأَقْعُدُ
إِنْ تَسْلُبُونِي رِيَشَكُمْ وَتَقْلُصُوا عَنِّي ظِلَالَكُمْ فَكَيْفَ أُغَرِّدُ

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الشجر بالأقاح، وتشبيه
الزهر بالنجوم، وتشبيه الحدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع
يصير خلقه في الأسماع جديداً، وكليله في الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب،

وأعرب عن فهمه بحسن تخليه أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق إذ قال :

وَأَغْيَدِ طَافَ بِالْكُؤُوسِ ضُحَى
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا شَقَائِقَهُ
وَحَثَّهَا وَالصَّبَاحُ قَدْ وَضَحَا
قُلْنَا وَأَيْنَ الْأَقَاخُ قَالَ لَنَا
وَأَسُهُ الْعَنْبَرِيُّ قَدْ نَفَحَا
فَظِلُّ سَاقِي الْمُدَامِ يَجْحَدُ مَا
أَوْدَعْتُهُ ثَعْرَ مَنْ سَقَى الْقَدَحَا
قَالَ فَلَمَّا تَبَسَّمِ افْتَضَحَا

وقال :

أَدِيرَاهَا عَلَى الرَّوْضِ الْمُنْدَى
وَكَأْسُ الرَّاحِ تَنْظُرُ عَنْ حَبَابِ
وَحُكْمُ الصُّبْحِ فِي الظُّلُمَاءِ مَاضِي
وَمَا غَرَبَتْ نُجُومُ الْأُفُقِ لَكِنْ
يُنُوبُ لَنَا عَنْ الْحَدَقِ الْمِرَاضِ
نُقْلِنَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ

وقال :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضَحَتْ
زُرْتُهَا وَالْغَمَامُ يَجْلُدُ مِنْهَا
يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ
قُلْتُ مَا ذَنْبُهَا، فَقَالَ مُجِيباً
زَهْرَاتِ تَرُوقُ لَوْنُ الرَّاحِ
سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمَلَاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه، وما يتعلق بذلك، فانتهى إلى غاية السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق بن خفاجة القائل :

وَعَشِيٍّ أَنْسٍ أَضْجَعْتَنِي نَشْوَةٌ
خَلَعَتْ عَلَيَّ بِهَا الْأَرَاكَةُ ظِلَّهَا
فِيهَا يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدَمِّتُ
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةٌ
وَالْغُصْنُ يُصْغِي وَالْحَمَامُ يُحَدِّثُ
وَالرَّعْدُ يَرِثِي وَالْغَمَامَةُ تَنْفُثُ

والقائل :

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءِ
مُتَعَطِّفٍ مِثْلُ السَّوَارِ كَانَهُ
أَشْهَى وَرُوداً مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصاً مُفْرَعاً
وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ
مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ

وَعَدَتْ تَحْفُ بِهِ الْغُصُونُ كَانَهَا
وَلَطَّالَمَا عَاطَيْتُ فِيهِ مُدَامَةً
وَالرَّيْحُ تَعَبْتُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى

والقائل :

حُتَّ الْمُدَامَةُ وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ
وَالرَّوْضُ مُهْتَزُّ الْمَعَاطِفِ نِعْمَةٌ
رَيَّانَ فَضْضُهُ النَّدى ثُمَّ أَنْجَلَى

والقائل :

أَذِنَ الْعَمَامُ بِدِيمَةٍ وَعُقَارِ
وَأَرْبَعٌ عَلَى حُكْمِ الرَّيِّعِ بِأَجْرَعِ
مُتَقَسِّمِ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ
نَثَرْتُ بِحَجَرِ الرَّوْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا
وَهَفْتُ بِتَغْرِيدِ هُنَالِكَ أَيْكَةٍ
هَزَّتْ لَهُ أُعْطَافَهَا وَلَرُبَّمَا

والقائل :

سَقِيًّا لَهَا مِنْ بَطَاحِ خَزْ
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَالَ اللَّيْمُ سَلْسَالُ
وَمَهَبٌ نَفْحَةٍ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ
غَازَلْتُهَا وَالْأَفْحَوَانَةَ مَبْسَمُ

والقائل :

وَسَاقٍ كَجِيلِ اللَّحْظِ فِي شَأْوِ حُسْنِهِ
تَرَى لِلصَّبَا نَارًا بِخَدَّيْهِ لَمْ يَثُرْ
سَقَاهَا وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً

هُدَبٌ تَخُفُّ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ
صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيْدِي النَّدْمَاءِ
ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

وَالظِّلُّ خَفَّاقُ الرِّوَاكِ ظَلِيلُ
نَشْوَانٍ تَعْطِفُهُ الصَّبَا فَيَمِيلُ
عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ

فَامْزُجْ لُجَيْنًا مِنْهُمَا بِنُضَارِ
هَزَجِ النَّدَامَى مُفْصِحِ الْأَطْيَارِ
مِنْ رَدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ
دُرَرِ النَّدى وَدَرَاهِمِ الْأَنْوَارِ
خَفَّاقَةٌ بِمَهَبِّ رِيحِ عَرَارِ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مِلَاءَةَ النُّوَارِ

وَدَوْحٍ نَهْرٍ بِهَا مُطِيلُ
أَطْلُ فِيهِ عِذَارُ طَلُ

وَصَبَا بَلِيلُ ذَيْلُهَا مِكْسَالُ
فِي جَانِبَيْهَا لِلنَّسِيمِ مَجَالُ
وَالْآسُ صُدُغٌ وَالْبَنْفَسُجُ خَالُ

جِمَاحٌ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ جِرَانُ
لَهَا مِنْ سَوَادِي عَارِضِيهِ دُخَانُ
كَمَا آعَوْجٌ فِي دِرْعِ الْكَيْمِيِّ سِنَانُ

عُقَارًا نَمَاهَا الْكَرْمُ فَهِيَ كَرِيمَةٌ
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْعِمَامَةِ أَذْهَمُ
وَضَمَخَ دِرْعُ الشَّمْسِ نَحَرَ حَدِيقَةٍ
وَنَمَتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ
وَلَمْ تَزِنْ بِابْنِ الْمُزْنِ فَهِيَ حَصَانُ
لَهُ الْبَرْقُ سَوَاطٍ وَالسَّيَّانُ عِنَانُ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
لَهَا النُّورُ ثَعْرُ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

والقائل :

وَأَشْقَرُ تَضَرُّمٍ مِنْهُ الْوَغَى
مِنْ جُلُنَّارٍ نَاضِرٍ لَوْنُهُ
تَطْلُعُ لِلْغُرَّةِ فِي شُقْرَةٍ
بِشُعْلَةٍ مِنْ شُعْلِ الْبَاسِ
وَأُذُنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ
حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فِي كَاسِ

وهل منكم من يقول منادماً لنديمه، وقد باكر روضاً بمحسوب وكأس، فالفاه
قد غطى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك،
وهو الحسن بن بسام :

أَلَا بَادِرُ فَمَا ثَانٍ سِوَى مَا
وَلَا تَكْسَلُ بِرُؤْيَيْهِ ضَبَاباً
فَإِنَّ الرُّوضَ مُلْتَثِمٌ إِلَيَّ أَنْ
عَهِدْتَ الْكَأْسُ وَالْبَدْرُ التَّمَامُ
تَعْصُ بِهِ الْحَدِيقَةُ وَالْمُدَامُ
تُؤَافِيهِ فَيَنْحَطُّ اللَّثَامُ

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي :
قَالُوا وَقَدْ أَكْثَرُوا فِي حُبِّهِ عَذْلِي
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَمْرِي فِي الصَّبَابَةِ لِي
عَلِقْتُهُ حَبِيبِي الشَّعْرِ عَاطِرُهُ
غَزِيلٌ لَمْ تَزَلْ فِي الْعَزْلِ جَائِلُهُ
جَذْلَانِ تَلْعَبُ بِالْمِسْوَائِ أَنْمُلُهُ
ضَمًّا بِكَفِّهِ أَوْ فَحْصًا بِأَخْمَصِهِ
لَوْ لَمْ تَهْمُ بِمُذَالِ الْقَدْرِ مُبْتَدَلِ
لَاخْتَرْتُ ذَاكَ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ لِي
حُلُوَ اللَّمَى سَاجِرَ الْأَجْفَانِ وَالْمُقْلِ
بَنَانُهُ جَوْلَانِ الْفِكْرِ فِي الْعَزْلِ
عَلَى السَّدَى لَعِبَ الْأَيَّامِ بِالْأَجْلِ
تَخْبُطُ الظُّبْيِ فِي أَشْرَاكِ مُحْتَبِلِ

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل :
وَعَشِيٍّ رَائِقٍ مَنْظَرُهُ
وَكَاَنَّ الشَّمْسَ فِي أَثْنَائِهِ
وَالصَّبَا تَرَفُّعُ أَذْيَالِ الرُّبَا
قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ
الْصَقْتُ بِالْأَرْضِ خَدًّا لِلنُّزُولِ
وَمُحْيَا الْجَوِّ كَالنَّهْرِ الصَّقِيلِ

حَبَّذَا مَنَزَّلْنَا مُعْتَبَقًا حَيْثُ لَا يَطْرُقُنَا غَيْرُ الْهَدِيلِ

وهل منكم من وصف غلاماً جميلاً الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف :
وَمُنَزَّعِ الْحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهَى لَيْسَ الْمَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لَبَاسِهِ
مُتَأَوِّدًا كَالْعُصْنِ وَسَطَ رِيَاضِهِ مُتَلَاعِبًا كَالظُّبْيِ عِنْدَ كِنَاسِهِ
بِالْعَقْلِ يَلْعَبُ مُذْبِرًا أَوْ مُقْبِلًا كَالدَّهْرِ يَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بِنَاسِهِ
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَهُ كَالسَّيْفِ ضَمَّ ذُبَابُهُ لِرِيَّاسِهِ

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار :
الْوَامِي عَلَى كَلْفِي بِحَبِّي مَتَى مِنْ حُبِّهِ أَرْجُو سَرَّاحَا
وَيَيْنَ الْخَدَّ وَالشَّفَتَيْنِ خَالٌ كَزُنْجِيٍّ أَتَى رَوْضًا صَبَاحَا
تَحَيَّرَ فِي جَنَاهُ فَلَيْسَ يَدْرِي أَيُّجِنِي الْوَرْدَ أَمْ يَجْنِي الْأَقَاحَا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد، ورشف رضاب الشجر
لم يهتد إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله :
لَمَّا ظَفِرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ
أَنْضَجْتُ وَرْدَةَ خَدِّهِ بِنَفْسِي وَطَفِقْتُ أَرْشُفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ^(١)

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره، وسواد شعره، وهو الطَّلِيْطَلِيُّ :
أَمَّا أَشْتَفْتُ مِنِّي الْأَيَّامَ فِي وَطْنِي حَتَّى تُضَايِقَ فِيمَا عَنْ مِنْ وَطْرِي
وَلَا قَضْتُ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكُرَّ عَلَى مَا طَلَّ فِي الشَّعْرِ

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانية^(٢)، ومثل زينب بنت زياد
المؤدب التي تقول :

وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَا لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ
وَشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَلِكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتُهُمْ مِنْ مُقْلَتِي وَأَذْمُعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها أهمية.

(٢) أنشد لها بيتين لم نر لهما قيمة.

ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر ابن بقي ليكون الختام مسكاً :

عَاطِيَّتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ
وَضَمَمَتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكُرَى
بَاعَدَتْهُ عَنِ أَضْلَعِ تَشْتَاقِهِ
صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ الْفَتِيْقِ لِنَاشِقِ
وَذُوَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي
زَحْزَحَتُهُ شَيْئاً وَكَانَ مُعَانِقِي
كَيْلاً يَنَامُ عَلَى وَسَادِ خَافِقِ^(١)

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي :

هُمْ نَظَرُوا فَهَامُوا
يَخَافُ النَّاسُ مُقْلَتَهَا سِوَاهَا
سَمَا طَرْفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بَاكِ
وَأَذْكَرُ قَدَّهَا فَانُوحُ وَجَدَا
وَأَعْقَبَ بَيْنَهَا فِي الصَّدْرِ غَمًّا
وَتَشْرَبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمُدَامُ
أَيَذْعُرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحُسَامُ
وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسِكِبُ الْعِمَامُ
عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْدِبُ الْحَمَامُ
إِذَا غَرَبَتْ ذُكَاؤُ أَتَى الظَّلَامُ

وبقوله أيضاً :

لَهَا رِدْفٌ تَعَلَّقَ فِي لَطِيفِ
وَذَاكَ الرِّدْفُ لِي وَلَهَا ظُلُومُ

(١) كتب إلينا الأديب محمد بن عباس القباج أن زين شباب الأندلس صفوان بن إدريس المتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسائه عن سن لا تتجاوز السابعة والثلاثين، عارض أبيات الشقندي فقال :

يا حسنه والحسن بعض صفاته
بتنا نشعشع والعفاف رقيننا
ضاجعته والليل يذكى تحتنا
وضممته ضم البخيل لماله
أوثقتنه في ساعدي لأنه
والقلب يرغب أن يصير ساعدا
حتى إذا هام الكرى يحفونه
عزم الغرام علي في تقبيله
وأى عفا في أن أقبل ثغره
فاعجب للتهب الجوانح غلة
والسحر مقصور على حركاته
خمرين من غزلي ومن كلماته
نارين من نفسي ومن جميع وجناته
يخنو عليه من جميع جهاته
ظبي خشيت عليه من فلتاته
ليفوز بالآمال من ضماته
وامتد في عضدي طوع سناته
فثنيت أيدي الطوع عن عزماته
والقلب مطوي على جمراته
يشكو الظما والماء في لهواته

يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُتَعَبِّهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

تلك أيها القارئ نفحة الأندلسي، رأينا أن نمهد بها لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان، وإننا لنترجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة، مع حرصهم على أن يمثل أغراض الحياة، وأطماع العقول، وألوان النفوس، وأهواء القلوب.

البحث السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلّي المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء، وكان بصقُع الأندلس كالمتنبّي بصقُع الشام، كما قال صاحب اليتيمة، وكان له ديوان شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر، كما نص صاحب الذخيرة، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب، فقد ضاع ديوان شعره^(١)، وضاعت رسائله البليغة، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لا تكفي في الإبانة عن منزلته في عالم البيان. ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفه، ثم ننتقل إلى وصف نثره وشعره بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال.

قال ابن بسام في الذخيرة « كان أبو عمر القسطلّي في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها، وآخر حامل لوائها، وبهجة أرضها وسمائها وأسوة كتابها وشعرائها... به بُدئ ذكر الجميل وختم، حل اسمه من الأماني محل الأنس، وأحد من تضاءلت الأول عن جلالته قدره، وكانت الشام والعراق خطر ذكره، وقد أجرى الثعالبي طرفاً من أمره، وأغرب بلّمع من شعره » ثم قال « وإنما

(١) سيرة القارئ في هامش مقبل أن الديوان لم يضع.

ذكرته هنا وإن كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراخت أيامه، وأغضى عنه حمامه، حتى أخرجته المحن، وسالت به تلك الفتن».

والقارئ يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض، وهذا يرجع إلى سببين : أولهما أن كتاب الذخيرة مَنِيّ بالمسخ والتحريف، ولا يزال إلى الآن مخطوطاً يجده الباحث في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قَيْدٌ يضطر الكاتب إلى التعثر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب.

وقال أبو حيان : « أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طَوَّحَتْ بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرتته إلى النجعة، فاستقرى ملوك الأندلس أجمعين، يهز كلاً بمدحه، ويستعينه على نكبتهم وليس منهم من يصغي له، أو يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخبطهم بمقوله^(١) فيضمّون عنه، إلى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة، فألقى عصا سيره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده ».

وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على مَنْ تقدم، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصاييح لا تطفأ، وأن الأفهام مرآء لا تتناهى صُورها، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متوارية، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وإن هذا الشاعر في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس، لم يدع له عارضاً يُستَطر، ولا عارضة تُذكر. وإنه لتحقيق أن ينشد :

(١) المقول : اللسان.

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَا تِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَّلُ
وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعراً مفلحاً يخل بمثله الزمان، ولكن
عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين الثبت من صدق ما حكم به
المتقدمون.

شيء من نثره

يغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القارىء شيئاً من مستملح التشبيه،
ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل :

« حاش لله أن أَسْتَشْفَ المسيلَ قبل جُمُومِهِ، وأَسْتَكِرْهِ الدَّرَّ قبل حُفُولِهِ، أو
أَتَعَامَى عن سراجِ المَعْدَرَةِ، وأَغْفَلَ عن الأدبِ الباهرِ في نَظَرَةٍ إلى ميسرة... ولكن.
مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ حُمُرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
مَا أَوْضَحَ الْعُذْرَ لِي لَوْ أَنَّهُمْ عَذَرُوا وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِي لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
لَكِنَّهُمْ صَغُرُوا عَنْ أَزْمَةٍ كَبُرَتْ فَمَا اعْتَذَارِي عَمَّنْ عَذَرُهُ الصَّغَرُ
وقد قلبت لهم ظهر مجن الأمور، وميزت بين الميسور والمعسور، فما وجدت
أحسن بدءاً، ولا أحمد عوداً، مما أذن الله لعباده الذين أعمارهم أرضه، وسخر
لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه، وحيث نتقلب ففي كرمك،
وأي نأمن ففي حرمك، وحيث توحشنا دعوتك، ولا تعدمنا نعمتك، فمن ملكك
إلى ملكك، ومن يمينك إلى شمالك ».

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب، وإن كنت أرتاب في
نصوصها لما في ذلك الكتاب من التحريف.

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرض القارئ بما
نختاره من تلك القصائد التي أثبتتها صاحب اليتيمة، أحسن الله له الجزاء، وإنا
لنستجيد قوله في لوعة الشوق :

وَحَشِيَّةَ اللَّفْظِ هَلْ يُودَى قَتِيلُكُمْو
 إِنِّي أَرَاكَ بِقَتْلِ النَّفْسِ حَازِقَةً
 مَالِي وَلِلْبَرْقِ أَسْتَسْقِيهِ مِنْ ظَمًا
 لَوْلَا الضُّلُوعُ لَظَلَّ الْقَلْبُ نَحْوَكُمْو
 أَصْلَيْتَنِي لَوْعَةَ الْهَجْرَانِ ظَالِمَةً
 دَمِي مُضَاعٌ وَجَانِي ذَاكَ عَيْنَاكَ
 قُولِي فَذَيْتُكَ مَنْ بِالْقَتْلِ أَوْصَاكَ
 هَيْهَاتَ لَا رِيَّ إِلَّا مِنْ ثَنَائِكَ
 ضَعِي بِعَيْشِكَ فَوْقَ الْقَلْبِ يُمْنَاكَ
 رُحْمَاكَ مِنْ لَوْعَةِ الْهَجْرَانِ رُحْمَاكَ

وَنَسْتَجِيدُ قَوْلَهُ فِي وَصْفِ السَّفِينِ تَشْقِ عِبَابِ الْحَيْطِ :

إِلَيْكَ شَحْنًا الْفُلُكَ تَهْوِي كَانَهَا
 وَقَدْ ذُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غَرْبَانُ
 عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا
 تَرَامِي بِنَا فِيهَا ثَيْرٌ وَثُهْلَانُ
 وَإِنْ سَكَنْتَ عَنَّا الرِّيَّاحُ جَرَى بِنَا
 زَفِيرٌ إِلَى الْأَجْبَةِ حَنَّانُ
 يَقْلَنَ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمُّ وَالْدُّجَى
 تَمْوِجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَانُ
 أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا
 سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ
 وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا
 مِنْ الْأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الْإِنْسِ عَرْفَانُ
 هَوَتْ أُمُّهُمْ مَاذَا هَوَتْ بِرِجَالِهِمْ
 إِلَى نَارِحِ الْآفَاقِ سُفُنٌ وَأُظْعَانُ
 كَوَاكِبُ إِلَّا أَنَّ أَفْلَاكَ سِيرَهَا
 زِمَامٌ وَرَحْلٌ أَوْشِرَاعٌ وَسُكَّانُ

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ فِي شَكْوَى الزَّمَانِ، وَتَوْدِيعِ الْأَحْبَابِ :

وَإِنَّ بِلَادًا أَخْرَجْتَنِي لِعَاطِلٍ وَإِنَّ زَمَانًا خَانَ عَهْدِي لَخَوَّانُ
 سَلَامٌ عَلَى الْإِخْوَانِ تَسْلِيمَ آيسٍ وَسَقِيًّا لِدَهْرٍ كَانَ لِي فِيهِ إِخْوَانُ

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقٌ وَزَفْرَةٌ
وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحَبَّةٍ

وما أوجع ما يقول :

فَيَا عَجَباً لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّا
مَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ

ومن مختار القصيد قوله :

لَكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَفِيلٌ
هُوَ الْفَتْحُ أَمَّا يَوْمُهُ فَمُعْجَلٌ
وَآيَاتُ نَصْرِ مَا تَزَالُ وَلَمْ تَزَلْ
سُيُوفٌ تُبِيرُ الْحَقَّ أَلَى انْتِصِيَّتِهَا
أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَزُوكَ مِنْ غَوَى
لَئِنْ صَدَيْتَ الْبَابُ قَوْمٍ بِمَكْرِهِمْ
وَإِنْ يَخِي فِيهِمْ مَكْرُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا
وَجَرْدَاءُ لَمْ تَبْخُلْ يَدَاهَا بِغَايَةِ وَلَا
لَهَا مِنْ خَوَافِي لَقْوَةِ الْجَوِّ أَرْبَعٌ
وَبَيْضٌ تَرَكْنَ الشُّرَكَ فِي كُلِّ مُنْتَأَى
تَمُورُ دِمَاءُ الْكُفْرِ فِي شَفَرَاتِهَا
وَأَسْمَرُ ظَمَانِ الْكُعُوبِ كَأَنَّمَا
إِذَا مَا هَوَى لِلطَّعْنِ أَتَيْتَ أَنَّهُ

وفيها يقول :

كَتَائِبُ عَزِّ النَّصْرِ فِي جَنَابَاتِهَا
يَسِيرُ بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَائِدٌ
إِذَا انْشَقَّ لَيْلُ الْحَرْبِ عَنْ صُبْحِ وَجْهِهِ

وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ
وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا
كَأَنِّي قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا

أَجَدَّ مُقَامٌ أَمْ أَجَدَّ رَحِيلُ
إِلَيْكَ وَأَمَّا صُنْعُهُ فَجَزِيلُ
بِهِنَّ عَمَائَاتُ الضَّلَالِ تَزُولُ
وَخَيْلٌ يَجُولُ النَّصْرُ حَيْثُ تَجُولُ
وَضَلَّ بِهِ فِي النَّاكِثِينَ سَبِيلُ
فَسَيْفُ الْهُدَى فِي رَاحَتِكَ صَقِيلُ
فَأَحْجَارُ دَاوُدَ لَدَيْكَ مُثُولُ
وَلَكِنْ عَلَى صَدْرِ الْكَمِيِّ ثَقِيلُ
كَرَّهَا نَحْوَ الطَّعَانِ بَخِيلُ
وَكَشْحَانِ مِنْ ظَبْيِ الْفَلَا وَتَلِيلُ
فُلُولاً وَمَا أُرْدَى بِهِنَّ فُلُولُ
وَيَرْجِعُ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كِلِيلُ
بِهِنَّ إِلَى شُرْبِ الدِّمَاءِ غَلِيلُ
بِصَرْفِ الرَّدَى نَحْوَ النَّفُوسِ رَسُولُ

وَكُلُّ عَزِيزٍ يَمَّمْتُهُ ذَلِيلُ
يَسِيرُ عَلَيْهِ الْخَطْبُ وَهُوَ جَلِيلُ
فَقَدْ حَانَ مِنْ يَوْمِ الضَّلَالِ أَفُولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة، ولكنها لم تسلم من التحريف
نختار منها قوله .

فَمَا تَجَاوَزْتُ قَرْنَ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا
تَحْيِي مِنْهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَنِقٌ
لَمْ أَخْلَعْ الدَّرْعَ إِلَّا حِينَ شَقَّقَهُ
وَلَا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ
غُصْنٌ تَجَرَّعَ أَنْدَاءَ الْعَمَامِ فَمَا
يَمِيسُ سُكْرًا وَسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ
فَبِتُ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيْلِ ثَانِيَهُ
وَالسُّحَرُ مِنْ لَفْظٍ يُنَازِعُنِي
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحَتِهِ
كَأَنَّمَا ذَابَ فِيهَا وَرْدٌ وَجَنَّتِهِ
جَنَى حَيَاةٍ دَنَتْ مِنِّي مَطَاعِمُهُ
قَدْ أَتَهَبُ الْمِسْكَ وَالْكَافُورَ خَازِنُهُ
فِيَا ظِلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمْتُ
وَيَا حَيْنَ ظِلَاءِ الْقَفْرِ إِذْ فَقَدْتُ

إِلَّا وَقَرْنُ رَخِيمِ الدَّلِّ بَارِعُهُ
يَشْدُنِي غُلُّهُ فِيهِ وَجَامِعُهُ
عَنْ صَفْحِ صَدْرِي مَا تَحْوِي مَدَارِعُهُ
يُذِيبُ سَيْفِي فِي قَلْبِي مَوَاقِعُهُ
يُطَوِّقُ الدَّهْرَ إِلَّا وَهُوَ جَارِعُهُ
وَتَارَةً وَأَنْشَاءَ الْوَشْيِ لَادِعُهُ
وَالشَّوْقُ ثَالِثًا وَالْوَصْلُ رَابِعُهُ
وَالْمِسْكَ يَعْبِقُ مِنْ كَأْسٍ أَنْزَاعُهُ
لَوْلَا النُّهْيُ لَجَرَّتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ
وَشَجَّهَا رَيْقُهُ الْمَغْسُولُ مَائِعُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ نَأَتْ عَنِّي مَطَامِعُهُ
وَأَرْخِصُ الْوَرْدَ وَالْتِفَاحَ بَائِعُهُ
بَدَرُ السَّمَاءِ فِي حِجْرِي مَصَاجِعُهُ
غَزَالُ الْهَنْ فِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ

رائية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض
بها رائية أبي نواس في مدح الخصيب، وقد ضمن الدهر علينا أيضاً بهذه
القصيدة، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك^(١)، وقد راجعت كل ما
وصلت إليه من تاريخ الأندلس، وسألت كل من أعرف أنه شغل بتأريخ

(١) أصبحت القصيدة كلها تحت يدنا، وعرفنا أن الديوان لم يضع، فهو في مخطوطات خزانة المؤرخ
الكبير النقيب مولاي عبد الرحمن بن زيدان من أمراء البيت الملكي في المغرب، وقد تفضل
السيد محمد بن عباس القباج، فأرسل إلينا الرائية كاملة، فله منا أطيب الشاء.

الأدب في تلك البلاد، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة، وإنما يبدعون بقوله :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الشَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وَأَنَّ يُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
 ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر
 مقدمة لهذا الحوار^(١)

ولنأخذ في الموازنة فنذكر أن قول أبي نواس :
 تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا حَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
 أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبُ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
 فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتُهَا بِوَادِرُ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيْنٍ عَبِيرُ
 دَعَيْنِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الشَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وَأَنَّ يُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
 وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضَمَّنُ لِرَاكِهَاتِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
 تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ لِتَقِيلَ كَفُّ الْعَامِرِيِّ سَفِيرُ
 ذَرِينِي أَرْدُ مَاءِ الْمَفَاوِزِ آجِنًا إِلَى حَيْثُ مَاءُ الْمَكْرُمَاتِ نَمِيرُ

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذا أبا نواس وَبَرَاعَةً، بقوله في توديع زوجته
 وولده :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزْفِيرُ
 تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
 عَيْيُ بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلِحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
 تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتِ لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةِ وَنُحُورُ
 عَصِيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لِتَدَابِ السُّرَى وَبُكُورُ

(١) هذا هو المطلع :

دعي عزمات المستضام تسير وتنجد في عرض الفلا وتغور
 لعل بما أشجاك من لوعة النوى يعز ذليل أو يلفك أسير

وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا
لَيْنٌ وَدَعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورٌ

ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين،
إذ لم يترك ببغداد زوجا ينازعه إليها الوفاء، ولا طفلاً تعطفه إليه نوازع الشوق
ولواعج الحنين.

وأحب أن لا يفوت القارئ ترجيع هذا البيت :
تَنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ

وكلمة « مَبْغُومُ النَّدَاءِ » كلمة مختارة بارعة المدلول، وقوله :
عَيِّي بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلَحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَيْرُ
بيت نادر المثال، وقوله :

تَبَوُّاً مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ

من أرق ما صور به الحنان، وما أوجع ما يقول :
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لِسْدَابِ السَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ

وانظر تصوير الحزم بقوله :
لَيْنٌ وَدَعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ

وقول أبي نواس :
وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا مِنْ الْقَوْمِ بَسَامٌ كَانَ جَبِينَهُ
رَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفِ وَالرَّمْحِ فِي الْوَعَى جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدِي كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَانَهُمْ عَلَى رَكْبِهَا الْأَتَزَالَ مُجِيرُ
سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِي ضَوْؤُهُ وَيُنِيرُ فِي السَّلَامِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيُورُ إِذَا اسْتَوْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ

في هذه القطعة سلاسة وجلاء، وهي أروع من قول ابن دراج :

تَلَاَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُبٍ
مِنْ الْحَمِيرِيِّينَ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ
هُمْو صَدَّقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ أَتَاهُمُو
مَنَاقِبُ يَعْيَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْهٍ قَدَرِهَا
أَلَّا كُلُّ مَذْحٍ عَنْ نَدَاكَ مُقْصَرٌّ
شُمُوسٌ تَلَالَا فِي الْعُلَا وَبُدُورُ
سَحَائِبُ تَهْمِي بِاللَّيْلِ وَبُحُورُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ
وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرُ
وَكُلُّ رَجَاءٍ فِي سِوَاكَ غُرُورُ

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهراً في أبيات ابن دراج، وليتأمل القارئ قوله :

مَنَاقِبُ يَعْيَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْهٍ قَدَرِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرُ

فهو ظاهر العُلُو، واضح التكلف، أما قوله :

هُمْو صَدَّقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ أَتَاهُمُو وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ

فهو بيت ضعيف.

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفاً لا قيمة له، أما ابن دراج فقد أجاد الوصف حين قال :

وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَطِي
أُسْلَطُ حَرُّ الْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا
وَأُسْتَشْقُ النَّكْبَاءُ وَهِيَ لَوَافِحُ
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلَوْنُ
وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالسُّرَى جُلُّ عَزَمَتِي
وَأَعْتَسِفُ الْمَوْمَاةُ فِي غَسَقِ الدُّجَى
أَمِيرٌ عَلَى غُولِ التَّنَائِفِ مَالَهُ
وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرُقُ الْمَجَرَّةِ أَنَّهَا
وَدَارَتْ نُجُومُ الْقُطْبِ حَتَّى كَانَهَا
لَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ الْمُنَى طَوْعُ هِمَّتِي
عَلَى وَرَقَرَأَقِ السَّرَابِ يَمُورُ
عَلَى حُرٍّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ
وَأُسْتَمْطِئُ الرَّمْضَاءَ وَهِيَ تَفُورُ
وَلِلدُّغْرِ فِي سَمْعِ الْجَرِيِّ صَفِيرُ
وَجَرَسِي لِجَنَانِ الْفَلَاةِ سَمِيرُ
وَلِلْأَسَدِ فِي غَيْلِ الْغِيَاضِ زَيْرُ
إِذَا رِيْعَ إِلَّا الْمَشْرِفِيُّ وَزِيرُ
عَلَى مَفْرِقِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ قَتِيرُ
كُؤُوسُ طَلَى وَالْيَ بَهْنٍ مُدِيرُ
وَأَنِّي بِعُطْفِ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ

وهذا شعرٌ جَزُلٌ رصين، ومن المحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة الوصفية ضاع منها شيءٌ كثير^(١).

وقد انفرد ابن دراج بالإجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال :

وَلَمَّا تَوَافَوْا لِلسَّلَامِ وَرُفِعَتْ
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ دُونَهُ
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ اعْتَزَّازُهَا
وَكَيفَ اسْتَوَى بِالْبِرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسُ
فَسَارُوا عِجَالاً وَالْقُلُوبُ خَوَافِقُ
يَقُولُونَ وَالْإِجْلَالُ يُخْرِسُ السُّنَا
لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الْهُدَى بِكَ حَائِطُ

وَعَنِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ الشُّرُوقِ سُتُورُ
صُفُوفٍ وَمِنْ بَيْضِ الشُّيُوفِ سَطُورُ
وَأَيَاتِ صُنْعِ اللَّهِ كَيْفَ تُنِيرُ
وَقَامَ بِعِبَاءِ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيرُ
وَأَذْنُوا بِطَاءٍ وَالتَّوَاطُرُ صُورُ
وَحَارَتْ عُيُونٌ مِنْهُمْ وَصُدُورُ
وَقَدَّرَ فِيكَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحري في هيبة اللقاء :

وَلَمَّا قَضَوْا صَدْرَ السَّلَامِ تَهَافَّتُوا
إِذَا شَرَعُوا فِي خُطْبَةٍ قَطَعَتْهُمْ
إِذَا نَكَّسُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ
نَصَبَتْ لَهُمْ طَرْفًا حَدِيدًا وَمَنْطِقًا
فَمَا بَرَحُوا حَتَّى تَعَاظَتْ أَكْفُهُمْ
بِكَ التَّأَمُّ الشَّعْبُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ

عَلَى يَدِ بَسَامٍ سَجِيَّتُهُ الْبَذْلُ
جَلَالَةٌ طَلَّقَ الْوَجْهَ جَانِبُهُ سَهْلُ
وَمَالُوا بِلَحْظٍ خِلَتْ أَنَّهُمْ قَبْلُ
سَدِيدًا وَرَأْيًا مِثْلَ مَا انْتَضَى النَّصْلُ
قِرَاكَ وَلَا ضِغْنَ لَدَيْهِمْ وَلَا ذَحْلُ
عَلَى حِينَ بُعِدَ مِنْهُ وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ

وأبيات البحري في هيبة اللقاء انتهبها كثير من الشعراء. وأذكر أن فقيد الشباب عبد الحليم المصري قدم إلينا قصيدة لنشرها في جريدة الأفكار سنة ١٩٢٠ في مدح الملك فؤاد فوجهت نظره إلى ما انتهب من معاني البحري، فغضب، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبيس.

(١) أشرت من قبل إلى أن هذه القصيدة صارت كلها تحت يدي بفضل صديقنا القباح.

البحث الثامن والعشرون

بين صبري ومطران

— ١ —

نوازن في هذا البحث بين نويتين من شعر إسماعيل صبري وخليل مطران ونرى من الخير أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبري وأشعاره، ونبدأ فنذكر أنه ولد في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣، وكان من رجال القانون، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية.

كان صبري شاعراً مجيداً، ولكنه لم يكن من المكثرين، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية، واتفق له أن يغذي الغناء حيناً من الزمان، وهو صاحب الموال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات :

الفَجْر آهُوَ لَاحُ قُومُوا يَا تُجَّارَ النُّومِ
عَجَبٌ تَنَامُوا وَعَيْنِي مَا تُشُوفُ النُّومِ
نَزَلْتُ بَحْرَ الْمَحَبَّةِ أَحْسِبُ أَنَّهُ عُومُ
غَرِقْتُ قَالُوا جَمِيعَ النَّاسِ تَسْتَاهِلُ
عِشْقُ الْجَمَالِ غَنْدَرَهُ الْيَوْمُ وَغَيْرَ الْيَوْمِ

وهو صاحب هذا الدور :

قَدَّكَ أَمِيرُ الْأَغْصَانِ	مَنْ غَيْرُ مُكَابِرٍ
وَوَرْدَ خَدِّكَ سُلْطَانِ	عَلَى الْأَزَاهِرِ
ذَا الْحُبِّ كُلُّوا أَشْجَانِ	يَا قَلْبَ حَازِرِ
وَالصَّدِّ وَيَا الْهَجْرَانَ	جَزَا الْمُخَاطِرِ

دور

يَا قَلْبَ أَدْنَتْ حَبَّيْتُ	وَرَجَعْتُ تَنَدَّمُ
وَصَبَحْتُ تَشْكِي مَا رَأَيْتُ	لَكَ حَادَّ يَرْحَمُ
صَدَّقْتُ قَوْلِي وَرَأَيْتُ	ذُلَّ الْمُتَيْئِمِّ
يَا مَا نَصَحْتُكَ وَنَهَيْتُ	لَوْ كُنْتُ تَفْهَمُ

دور

أَعْرِضْ لِحُسْنِكَ أَوْرَاقُ	وَإِنْ كُنْتُ وَدُونَ
وَأَبَاتُ صَرِيحِ الْأَشْوَاقُ	وَإِنْ كُنْتُ وَخَمَّ نُونُ
ذَا هَجْرٍ وَصَبَابَةٍ وَفِرَاقُ	يَا رِبَّ هَوْنُ
وَأَرْحَمُ قُلُوبِ الْعُشَّاقُ	ذَا شَيْءٍ يَجْنُونُ

وللقارئ أن يلاحظ أن هذا من الشعر الملحون، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء، وقد ظلت هذه الأدوار على ألسنة الجماهير المصرية زمناً غير قليل، وهي محفوظة في ألواح^(١)

ومضى صبري يفتنُّ افتناناً شائقاً في مغازلة الصباحة، وهو صاحب القصيدة المأثورة « تمثال جمال » وفيها تظهر براعته في مناغاة الحسناء :

(١) نريد بالألواح : اسطوانات الغناء.

يَا لَوَاءَ الْحُسْنِ أَحْزَابُ الْهَوَى
فَرَّقَتْهُمْ فِي الْهَوَى ثَارَاتُهُمْ
إِنَّ هَذَا الْحُسْنَ كَالْمَاءِ الَّذِي
لَا تَذُودِي بَعْضَنَا عَنْ وَرْدِهِ
أَنْتَ يَمُّ الْحُسْنِ فِيهِ أَرْدَحَمَتْ
يَقْدِفُ الشُّوقُ بِهَا فِي مَائِجٍ
شِدَّةٌ تَمْضِي وَتَأْتِي شِدَّةٌ
سَاعِفِي آمَالَ أَنْصَاءِ الْهَوَى
وَتَجَلِّي وَأَجْعَلِي قَوْمَ الْهَوَى
أَقْبِلِي نَسْتَقْبِلِ الدُّنْيَا وَمَا
وَأَسْفِرِي تِلْكَ حُلَى مَا خُلِقَتْ
وَأَخْطِرِي بَيْنَ النَّدَامَى يَحْلِفُوا
وَأَنْطِقِي يَنْشُرُ إِذَا حَدَّثْنَا
وَأَبْسِمِي مَنْ كَانَ هَذَا ثَغْرُهُ
لَا تَخَافِي شَطَطاً مِنْ أَنْفُسٍ
رَاضَتْ النَّخْوَةَ مِنْ أَخْلَاقِنَا
فَلَوْ أَمْتَدَّتْ أَمَانِينَا إِلَى
أَنْتِ رُوحَانِيَّةٌ لَا تَدْعِي
وَأَنْزِعِي عَنْ جِسْمِكَ الثُّوبَ بَيْنَ
وَأَرِي الدُّنْيَا جَنَاحِي مَلَكٍ

وهو أيضاً صاحب الأبيات الحسان :

أُبْكُ مَا بِي فَإِنْ تَرَحَّمِي
وَأَشْكُو النَّوَى مَا أَمَرُ النَّوَى
وَأَخْشَى عَلَيْكَ هُبُوبَ النَّسِيمِ
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ بُرْهَةِ
تَعَالَى نَجْدُ زَمَانِ الْهَنَاءِ

أَيَقْظُوا الْفِتْنَةَ فِي ظِلِّ اللَّوَاءِ
فَأَجْمَعِي الْأَمْرَ وَصُورِي الْأَبْرِيَاءِ
فِيهِ لِلْأَنْفُسِ رِيٌّ وَشِفَاءٌ
دُونَ بَعْضٍ وَأَعْدِلِي بَيْنَ الظَّمَاءِ
سُفُنُ الْأَمَالِ يُزْجِيهَا الرَّجَاءُ
بَيْنَ لُجَيْنٍ : عَنَاءٍ وَشَقَاءٍ
تَقْتَفِيهَا شِدَّةٌ هَلْ مِنْ رَجَاءٍ
بِقَبُولٍ مِنْ سَجَايَاكَ رُخَاءٍ
تَحْتَ عَرْشِ الشَّمْسِ بِالْحُكْمِ سَوَاءٍ
ضُمْنَتُهُ مِنْ مُعْدَاتِ الْهَنَاءِ
لُتَوَارَى بِلِثَامٍ أَوْ خِبَاءٍ
أَنْ رَوْضاً رَاحَ فِي النَّادِي وَجَاءَ
نَائِرُ الدُّرِّ عَلَيْنَا مَا نَشَاءُ
يَمْلَأُ الدُّنْيَا ابْتِسَاماً وَأَزْدِهَاءُ
تَعْتُرُ الصَّبُوءَ فِيهَا بِالْحَيَاءِ
وَأَرْتَضَى آدَابَنَا صِدْقُ الْوَلَاءِ
مَلَكٍ مَا كَدَّرْتَ ذَاكَ الصَّفَاءِ
أَنَّ هَذَا الشَّكْلَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
لِلْمَلَا تَكْوِينُ سُكَّانِ السَّمَاءِ
خَلْفَ تِمْنَالٍ مَصُوغٍ مِنْ ضِيَاءِ

رَحِمْتَ أَخَا لَوْعَةٍ مَاتَ صَبَاً
عَلَى هَائِمٍ إِنْ دَعَا الشُّوقُ لَبَّى
وَإِنْ هُوَ مِنْ جَانِبِ الرُّوضِ هَبَاً
مَنْ الْعُمَرِ لَمْ تَلْقِنِي فِيكَ صَبَاً
وَنَهَبَ لِيَالِيَهُ الْعُرَّ نَهَبَاً

تَعَالَى أَذُقْ بِكَ طَعْمَ السَّلَامِ وَحَسْبِي وَحَسْبُكَ مَا كَانَ حَرْبًا

وهو الذي يقول :

تُمْسِي تَذَكِّرُنَا الشَّبَابَ وَعَهْدَهُ حَسَنَاءُ مُرْهَفَةُ الْقَوَامِ فَنَذْكُرُ
تَثْبُ الْقُلُوبُ إِلَى الرُّؤُوسِ إِذَا بَدَتْ وَتُطِلُّ مِنْ حَذَقِ الْعُيُونِ وَتَنْظُرُ

وهذا من وثبات الخيال.

وريحانة هذا العصر أم كلثوم تغني من شعره هذه الأبيات :

أَقْصِرْ فُؤَادِي فَمَا الذُّكْرَى بِنَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا
سَلَا الْفُؤَادُ الَّذِي شَاطَرْتُهُ زَمَنًا حَمَلِ الصَّبَابَةِ فَانْخَفِقْ وَحَدِّكَ الْآنَا
هَلَّا أَخَذْتَ لِهَذَا الْيَوْمِ أَهْبَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْبِحَ الْأَشْوَاقُ أَشْجَانَا
لَهْفِي عَلَيْكَ قَضَيْتَ الْعُمَرَ مُقْتَحِمًا فِي الْوَصْلِ نَارًا وَفِي الْهَجَرَانِ نِيرَانَا

وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء، وكانت له سهرات تفيض بالتميز العذب من الأدب الرفيع، وفي أواخر أيامه أمضى المرض، فكانت زيارة الأدباء أحب إليه من عيادة الأطباء، وصفه الأستاذ أنطون الجميل فقال : « كان في عزلته يتطلع الى أخبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح الى أخبار القتال »^(١).

وألهمته قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذي يصور آلام اليأس الحزون :
كَمْ سَاعَةٍ أَلَمْنِي مَسْهًا وَأَزْعَجْتَنِي يَدُهَا الْقَاسِيَةَ
فَقَشْتُ فِيهَا جَاهِدًا لَمْ أَجِدْ هُنَيْهَةً وَاحِدَةً صَافِيَةً
وَكَمْ سَقَتَنِي الْمُرُّ أُخْتُ لَهَا فَرَحْتُ أَشْكُوهَا إِلَى الثَّالِيَةِ
فَأَسْلَمْتَنِي هَذِهِ عَنُوءَ لِسَاعَةٍ أُخْرَى وَبِي مَايِيَهُ
وَيَحُكْ يَا مِسْكِينُ هَلْ تَشْتَكِي جَارِحَةَ الظُّفْرِ إِلَى ضَارِيَهُ
حَازِرٌ مِنَ السَّاعَاتِ وَيْلٌ لِمَنْ يَأْمَنُ تِلْكَ الْفَيْئَةَ الطَّاغِيَةَ
وَإِنْ تَجِدُ مِنْ بَيْنِهَا سَاعَةً جَعَبْتُهَا مِنْ غُصَصِ خَالِيَةِ

(١) هذا معنى العبارة التي سمعناها من خطبة انطون الجميل، وقد ضاق الوقت عن مراجعة الأصل، وأخشى أن أكون لونت العبارة بعض التلوين.

فَالَهُ بِهَا لَهَوَ الْحَكِيمِ الَّذِي
وَأَمْرَحَ كَمَا يَمْرَحُ ذُو نَشْوَةٍ
فَهِيَ وَإِنْ بَشَتْ وَإِنْ دَاعَبَتْ
عِنَاقُهَا خَنْقٌ وَتَقْبِيلُهَا
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ فَقُلْ لِلَّذِي
يَا شَاكِيَ السَّاعَاتِ إِسْمَعْ عَسَى

لَمْ يُنْسِهِ حَاضِرُهُ مَاضِيَهُ
فِي قُلَّةٍ مِنْ تَحْتِهَا الْهََاوِيَةُ
مُحْتَالَةٌ خَتَّالَةٌ عَادِيَةُ
كَمَا تَعْضُ الْحَيَّةُ الْبَاغِيَةَ
تَجْرَحُهُ السَّاعَةُ وَالثَانِيَةَ
تُنَجِّيكَ مِنْهَا السَّاعَةُ الْقَاضِيَةَ

ولم يخل قلبه من سوء ظن بالناس، يدل على ذلك قصيدة (الفرع الأكبر)
إذ يقول :

غَاضَ مَاءُ الْحَيَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
وَتَفَشَّى الْعُقُوقُ فِي النَّاسِ حَتَّى
أَوْجُهُ مِثْلَمَا نَثَرَتْ عَلَى الْأَجْدَا
وَشِفَاةٌ يَقْلَنُ أَهْلًا وَلَوْ أُدِّينَ
عَمْرَكَ اللَّهُ هَلْ سَلَامٌ وَدَادِ

فَعَدَا كَالِحِ الْجَوَانِبِ قَفَرًا
كَادَ رَدُّ السَّلَامِ يُحْسَبُ بِرًّا
ثِ وَرَدًّا إِنْ هُنَّ أَبْدَيْنَ بِشْرًا
مَا فِي الْحَشَا لَمَّا قُلْنَ خَيْرًا
ذَاكَ أَمْ حَاوَلَ الْمُسْلِمُ أَمْرًا

وفي هذه القصيدة يقول :

تَعَبَ الْفَيْلَسُوفُ فِي النَّاسِ عَصْرًا
وَالْوَرَى طَارِدُ إِزَاءِ طَرِيدِ
وَجُيُوشُ يَفُلُّ مِنْ بَعْضِهَا الْبُعْدُ
حَازِرِي يَازِئَابُ صَوْلَةَ أُسْدِ
لَا تَنَامِي يَا أُسْدُ إِنْ ذِئَابًا
عَبَّرَ كُلُّهَا اللَّيَالِي وَلَكِنْ

وَتَوَلَّى السَّرَائِرَ آلِدَيْنُ عَصْرًا
وَعُقَابُ يُمَيْسِي يُطَارِدُ صَقْرًا
ضُ وَهَضْبُ كُبْرَى تُنَاطِخُ صُعْرَى
مِنْكَ أَقْوَى نَابًا وَانْفَذَ ظُفْرًا
لَمْ تَنْمِ مِنْ رَوَابِضِ الْغَيْلِ أَضْرَى
أَيْنَ مَنْ يَفْتَحُ الْكِتَابَ وَيَقْرَأُ

وما أحب أن يفوتني إثبات هذه الأبيات :

يَاسْرَحَةُ بِجَوَارِ الْمَاءِ نَاضِرَةٌ
عَارٌّ عَلَيْكَ وَهَذَا الظِّلُّ مَنَشِيرٌ
فَمَنْ مُعِيرِي جَنَاحِي طَائِرٍ غَرْدِ
فَلَا أَنْفَرُ عَنْ أَرْضٍ غُرِسَتْ بِهَا

سَقَاكِ دَمْعِي إِنْ لَمْ يُوفِ سَاقِيكِ
فَتَكُ الْهَجِيرُ بِمِثْلِي فِي نَوَاحِيكِ
كَيَّ أَقْطَعَ الْعُمَرَ شَدْوًا فِي أَعَالِيكِ
وَلَا يَرِنُ بِسَمْعِي غَيْرُ وَادِيكِ

وانما أكثرنا من الشواهد لأن شعر صبري لم يُجمَع في ديوان، فأحببنا أن يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون، وكان صبري نفسه قليل الاهتمام بتدوين شعره وكان يسأل عن ذلك، فيجيب : وهبته للفناء !

— ٢ —

أما مطران فهو شاعر مبدع، وهو من المكثرين، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول، وشعره مدوّن نشرت منه المجموعة الأولى باسم — ديوان الخليل — وينتظر أن يُجمَع شعره كله في عدة أجزاء، وقد عرفنا مطران وصحبناه، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء، وله في النثر أسلوب مضمّخ بالنفحات الشعرية، وهو رجل خصب الذهن، مثقف العقل، مرهف الإحساس. ومن خصائص مطران التلطف والترفق، فليس له في مصر عدوّ واحد، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين، فلما مات شوقي سمّوه شاعر الأقطار العربية، مع أنه من أزهد الناس في الألقاب.

وقد تولى رئاسة جمعية أبوللو في مصر بعد شوقي، وهي جمعية شعرية أثّرت أبلغ تأثير في الشعر الحديث، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور ابراهيم ناجي، وهما من أكثر الناس تغنياً بالشعر بين أدباء هذا الجيل.

— ٣ —

نونية صبري

فرعون وقومه :

لَا الْقَوْمُ قَوْمِي وَلَا الْأَعْوَانُ أَعْوَانِي إِذَا وَنَى يَوْمَ تَحْصِيلِ الْعُلَا وَإِنِّي
وَلَسْتُ إِنْ لَمْ تُؤَيِّدْنِي فَرَاعِنَةَ مِنْكُمْ بِفِرْعَوْنَ عَالِي الْعَرْشِ وَالشَّانِ

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا
رَدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ
وَأَبْنُوا كَمَا بَنَى الْأَجْيَالُ قَبْلَكُمْ
أَمَرْتُكُمْ فَاطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ
فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ
لَا تَتْرَكُوا مُسْتَحِيلًا فِي أَسْتِحَالَتِهِ

فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلَانٍ
أَوْ فَاطِلُوهَا غَيْرُهُ رِيًّا لِظَمَانٍ
لَا تَتْرَكُوا بَعْدَكُمْ فَخْرًا لِلْإِنْسَانِ
لَا يَشْنِ مَسْتَمِعًا عَنْ طَاعَةٍ ثَانِي
جَنبًا لِجَنْبٍ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانٍ
حَتَّى يُمِيطَ لَكُمْ عَنْ وَجْهِهِ إِمْكَانٌ

مَقَالَةٌ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ ذُعْرِ وَدَانِ لَهَا
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأٍ
لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا
وَأَزَرْتُهُ جَمَاهِيرُ تَسِيلُ بِهَا
يَبْنُونَ مَاتَقِفُ الْأَجْيَالُ حَايِرَةٌ
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ
وَيُشَبِّهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ
بِرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا

عَلَى مَنَازِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانٍ
مَا فِي الْمُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَّانٍ
فِي غَيْرِ مِصْرٍ لَعُدَّتْ حُلَمٌ يَقْظَانِ
لَبَّتْ حِجَارَتُهُ فِي قَبْضَةِ الْبَانِي
بَطَاحُ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانٍ
أَمَامَهُ بَيْنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانٍ
عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكَوْنِ عَيْنَانِ
جَنًّا تَطِيرُ بِأَمْرِ مِنْ سُلَيْمَانٍ
لَكِنَّهُمْ خَلَقُوا طُلَّابَ إِتْقَانٍ

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ، حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاحِرَةٌ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى
كَانَهَا — وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا
جَاءَتْ إِلَيْهَا وَفُودُ الْأَرْضِ قَاطِبَةٌ
فَصَعَّرَتْ كُلَّ مَوْجُودٍ ضَخَامَتُهَا
وَعَادَ مُنْكَرُ فَضْلِ الْقَوْمِ مُعْتَرِفًا

مِنْ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانٍ
بِمَا يُضْعَضِعُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانٍ
مَا يَأْخُذُ التَّمَلُّ مِنْ أَرْكَانِ تَهْلَانٍ^(١)
صَرَغَى — بِنَاءُ شَيَاطِينٍ لِشَيْطَانٍ
تَسْعَى أَشْتِيَاقًا إِلَى مَا خَلَدَ الْفَانِي
وَعَظْ بُنْيَانُهَا مِنْ كُلِّ بُنْيَانٍ
يُثْنِي عَلَى الْقَوْمِ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانٍ

(١) تهلان : اسم جبل.

تِلْكَ الْهَيَاكِلُ فِي الْأَمْصَارِ شَاهِدَةٌ
وَأَنَّ فِرْعَوْنَ فِي حَوْلٍ وَمَقْدِرَةٌ
إِذَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ شَاهِدًا حَجَرٌ
كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي اثْنَائِهَا صُورٌ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ
بِأَنَّهُمْ أَهْلٌ سَبَقَ أَهْلُ إِمْعَانٍ
وَقَوْمٌ فِرْعَوْنَ فِي الْأَقْدَامِ كُفُؤَانٍ
فِي هَيْكَلٍ قَامَتِ الْأُخْرَى بِرُهَانٍ
أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
فَصِيحَةُ الرَّمْرِ دَارَتْ حَوْلَ جُذُرَانٍ
صَدَى يُرَوِّعُ صَمَّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

أَيْنَ الْأَلَى سَجَّلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرْبًا مُخَلَّدَةً
وَزُخِرُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ
وَصَغَّرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ
وَأَذْرَجُوا طَيِّ أُنْخَبَارٍ وَأَكْفَانٍ
فِي الْكَوْنِ مَا بَيْنَ أَحْجَابٍ وَأَزْمَانٍ
عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلِ الْجَانِي
جَلَالٌ أَكْرَمَ آثَارٍ وَأَعْيَانٍ
إِذَا هُمَا وَزْنَا يَوْمًا بِمِيزَانٍ

— ٤ —

نونية مطران

قال، وقد رأى تمثال رمسيس الثاني في الأقصر:
أَكْبَرُ بِرَمْسِيْسَ مَيِّتًا لَا يُلْمُ بِهِ
لَوْلَا تَمَائِيلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةٌ
فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِينَ فَمَا بَلَّغُوا
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ
تَخْيِيرُ الْخُطَّةِ الْمُثْلَى لَهُ وَلَهَا
مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمُو
وَرَبِّ سَائِمَةٍ بِلَهَاءِ هَائِمَةٍ
مَوْتُ وَأَكْبَرُ بِهِ حَيًّا إِلَى الْآلِ
مَا جَالَ فِي ظَنِّ فَإِنَّهُ فَإِنِّي
بِهَا مَبَالِغُهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمُرَانِ
يَعْلُو فَتَعْلُو بِهِ وَالْخَفْضُ لِلشَّانِي (١)
إِلَهُ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُهَّانِ
تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ

(١) الشاني : هو المبعض، وفي القرآن « إن شئتُك هو الأبر ».

يُسُومُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمَلِكِ مُذَمِّيَهَا
مُخَلِّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرَفْعَتِهِ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا
بِحَيْثُ آبٍ وَكُلِّ الْفَخْرِ حِصْنُهُ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ

لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانٍ
يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي
وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَانِي
مَنْ شُوسَ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَانٍ^(١)
مِنْ مَهْدٍ عَصَمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الرَّائِي
وَلَمْ يَتُوبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِحَرَمَانٍ
فِي مُشْتَرَى سَيِّدِ أَرْوَاحِ عُبدَانٍ

كَلَّا وَعَزَّتْهُ فِيمَا طَعَى وَبَغَى
هُمْ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا
فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ
وَمَالَ أَسْمَائِهِمْ دُونَ أَسْمِهِ دَفَنْتِ
لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقَهَا رَسَبَتْ
النَّارُ أَسْوَغُ وَرْدًا فِي مَجَالٍ غَلَّا
أَكْرَمَ بِذِي طَمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ
يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ
بَعْضُ الطَّعَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
كَمْ فِي سَنَا الْكُوكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلَكَةٌ
لَمْ تَرُقْ فِي حِقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيتِ
لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مَمْتَنِعِ
أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيْسٌ مُقَدَّمُهُمْ

وَذَلَّ مِنْ قَبْلِ الضَّيْرِ بِإِذْعَانٍ
قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتِيَانٍ
فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دِيَانٍ
رُسُومُهُمْ مُنْذُ مَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانٍ
شُعْنًا مُنْكَرَةً فِي رَمْسٍ كَثْمَانٍ
يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانٍ
مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانٍ
يَنْجُو الْأَذْلَاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ
مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانٍ
فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ
تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأَحْدَانٍ
فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ
فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أُمُصَارٍ وَبُلْدَانٍ
بِسَابِقِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شُجْعَانٍ
بِأَوْجِهِ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانٍ
إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغُلْمَانٍ

(١) الشوس : جمع أشوس، وهو المتكبر.

البحث التاسع والعشرون

الموازنة بين النويتين

ولاني لأرجو القارئ أن ينظر في هاتين القصيدتين مرة ومرة، أو مرات قبل أن ينظر فيما نكتب، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغراوات، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين السورتين من سُور الشعر الرفيع، وفي الشعر قرآن وإنجيل.

تفرد صبري بالحديث عن وصية فرعون، أو ما سماه مقالة فرعون، ويا لها من مقالة تصدع الصخر، وتنبت الحماسة في صدور الأموات، وقد مثل الرجل هول المجد، وعظمة النيل، حين قال :

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلَانٍ
رِدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ أَوْ فَاطِلُّوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظُمَانٍ

وبذلك دللنا صبري على أن المجد في مصر لا يُتاح لأهل الكسل والخمود، ولكن أي مجد؟ إن صبري لم يكن يتمثل المجد المزيف الذي يرتدي أثوابه الوارثون، لم يكن صبري يرى المجد فيما يتمتع به العَجْزة الضعاف الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آباؤهم وأمهاتهم من المال الموروث، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يذوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبري، وبأمثالهم تزدهر الدنيا في المشرق والمغرب، ومن

جهودهم تنبع العلوم والآداب والفنون، أما الهانئون الناعمون يأكلون ما كسبته أيدي آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود فرعون، وليسوا من أهل وادي النيل، لو تركت أرض مصر لأولئك الذين لا يعرفون غير ألوان الطعام، وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد، ولا تذوقت طعم الفوز في دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجدد الساهر والعمل الموصول.

انظر أيها القارئ في هذين البيتين، وتأمل ما أوصى به فرعون، واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس : أكان رحيقها مما صنعت يدك أم كان مما سكب سواك ؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك : أساقته إليك يدك الصنّاع أم كنت ضيفاً على مائدة غيرك ؟ وانظر في ثيابك : أكانت خيوطها من خيوط الليل الذي أسهرت جفنيه في العمل الشريف، أم كانت خيوطاً مصنوعة من الرجس الذي اقترفته بالتزلف والتلق والنفاق ؟

قد تقول : إن صبري لم يقصد إلى كل هذه المعاني. ومن يدريك ؟ إن وصية فرعون تحتل كل ذلك، وشريعة الحياة نفسها تفرض على الرجل أن يكون له وجود ذاتي تتكوّن عناصره من الكدح في سبيل المجد، وسبيل المعاش.

ثم ماذا ؟ ثم بين صبري أساس السياسة : سياسة الملك والعمران، حين قال على لسان فرعون :

أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمَرَ رَبِّكُمْ
فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ
لَا يَثْنِ مُسْتَمِعاً عَنْ طَاعَةِ ثَانِي
جَنِباً لِحُجُبٍ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانٍ

اسمعوا هذا : « الملك أمر وطاعات » وهل كان الملك غير ذاك ؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العينية، ولا أقول العمياء.

إن الأمر الرشيد هو صورة العقل، والطاعة العينية هي صورة التنفيذ، والملوك الموفقون طاعتهم رشداً وعصيانهم ضلالاً، وكان فرعون رباً، وكانت رعيته عبيداً، كان رباً حكيماً، وكانوا عبيداً مخلصين، وقد رأيت ما صنعت الحكمة وما صنع الإخلاص.

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عينا، ولم أجعلها عمياء، أتعرفون لماذا ؟
لأن الشاعر جعل المصريين أبطالا شجعانا يُقدمون في طاعتهم إقدام الأبرار حين
قال :

مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا	عَلَى مَنَاقِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانٍ
مَآذَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُغْرِ وَدَانِ لَهَا	مَا فِي الْمُقَطَّعِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَانٍ
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأٍ	فِي غَيْرِ مِصْرٍ لَعَدَّتْ حُلُمَ يَقْظَانٍ
لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا	لَبَّتْ حِجَارَتُهُ فِي قَبْضَةِ الْبَانِي
وَأَزْرَتْهُ جَمَاهِيرٌ تَسِيلُ بِهَا	بَطَاحٌ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانٍ
يَبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً	أَمَامَهُ يَبْنِي إِعْجَابٌ وَإِذْعَانٍ
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ	عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكَوْنِ عَيْنَانِ
وَيُشْبَهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ	جَنًّا تَطِيرُ بِأَمْرِ مِنْ سُلَيْمَانٍ
بِرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا	لَكِنَّهُمْ خَلَقُوا طُلَّابَ إِتْقَانٍ

وهذه القطعة تصوّر انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون : فهو ربّ يأمر
بالرشد، وهم عباد مخلصون « لا يطيعون خوفا ولا طمعا، وإنما يقبلون على المجد
لأنهم خَلَقُوا طُلَّابَ إِتْقَانٍ » وفي هذا المعنى سر عظيم، فالمجد لا ينهض به الملوك
وحدهم، وإنما المجد صنّعة الأبرار بين الشعوب، والمَلِكُ نفسه من روح شعبه،
هو الجذوة التي تجد فيها تمس أصول اللهب المكبوت، ولو قام نبيٌّ بين الأموات
وصرخ لما استجاب له مجيب، وإنما يفلح المصلحون حين يتوجهون إلى نفوس
خَيْرَةٍ كَمَنَ فِيهَا الْبَرُّ كَمَا تَكْمُنُ النَّارُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ، والمصريون لعهد الفراعين
كانوا « طُلَّابَ، إِتْقَانٍ » وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون، وكانت أيديهم
مفطورة على المهارة، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل، وعزائمهم مقدودة من
الصوان، وكانت إرادة الملوك مظهراً من إرادتهم الذاتية، فكان خضوعهم خضوع
الأشراف لا خضوع العبيد. ومن ذا الذي يسمح له كرم الذوق، وشرف العقل،
أن يحكم بأن قصر الكرنك لم يكن إلا مشيئة رجل فرد ! إن في خرائب ذلك
القصر بقايا من شواهد العبقرية تنطق بأن الذين تولوا هندسته وبناءه كانوا
مأخوذين بسلطان غير سلطان الملك هو سلطان الفن وسلطان الجمال.

لقد زرت عشرات القصور في فرنسا فوجدتها جميعاً دون قصر الكرنك، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر فرساي، وطريق الأسود في الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا في تصور الانسجام بين الجمال والجلال.

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيداً مسخرين يؤمرون فيأثمرون، وماذا قال مطران ! إنه جعل رمسيس كل شيء حين قال :

مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمْ	إِلَهَ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُهُـ
وَرَبَّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ	تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانٍ
يَسُومُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ	لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانٍ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ	يُلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمَلِكِ مُدْمِيَهَا	وَقَبَلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرَمَرِ الْقَانِي
مُخَلِّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ	مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانٍ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا	مِنْ مَهْدٍ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
بِحَيْثُ آبٍ وَكُلُّ الْفَخْرِ حَصْنُهُ	وَلَمْ يَوُبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِحِرْمَانٍ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُدِلَتْ	فِي مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانٍ

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين، ولكن أين المنطق ؟ إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى في سبيل رمسيس، ويحكم بأنها كانت على شقائها تهواه في السر والعلانية، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف. وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين، لا صبر العقلاء. ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها في السر والعلانية، وهو ظالم ! كيف تهواه وهي تعرف أنه يسومها الخسف والضميم والذل ؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تتخير كلمة غير الهوى، كنت تستطيع أن تقول إنها كانت تخضع أو كانت تطيع، فالخضوع قد يكون عن ضعف، والطاعة قد تكون عن عجز، أما الهوى فلن يكون إلا عن بينة من نور القلوب.

إن مطران يصوّر الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب في الهياكل والتماثيل، فكيف يصح أن نتصور أنها كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود، وهل يُعبد الظالمون ؟ كل شيء يُقبل إلا هذا، فالظالم لا يُعبد إلا حين يتمثل فيه العابدون ملاح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق.. إنك لشاعرٌ حين تقول :

فَبَجَلْتُ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيَهَا وَقَبَلْتُ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَانِي

ولكن أين المنطق ؟ إن الفراش يحترق، وهو يغازل النور، ولكنه يعشق النور عشقا يهون عليه قسوة الاحتراق، فمن أين علمت أن رعية فرعون لم تكن ترى في فرعون غير جبار غشوم ؟ لعلها عرفت فيه معاني فاتنة غابت عنك، وقد جئت تغمزه بعد أن طمرت أمجاده رمال السنين الطوال، وللسنين رمالٌ، وفيها زوابع وأعاصير، رمالٌ من النسيان، وزوابع من العقوق.

إن تمثال رمسيس الثاني لم يصنعه صانعوه وهم غافلون عما يصنعون، لا بد أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرقة في أنف من تعبوا في نحته وتذوقوا في سبيل روعته طعم الضجر والعناء، وللتعب طعم معسول في أذواق من يعرفون ما يصنعون^(١).

ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد، واستبدّ بالخلود، فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال.

رويدك أيها الشاعر، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم في زمانهم وجود ملحوظ ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُنّةٌ طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصُر على رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات في الأقطار الفرنسية والانجليزية والجرمانية ؟ قد تذكر

(١) من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثاني كان اتخذ الأقصر قاعدة الملك، ومع ذلك وجدت تماثيله في جهات مختلفة من المدائن المصرية، وهذا يدل على أنه كان محبوباً جداً من الأهلين.

أسماء بعض المهندسين، ولكن انتظر حتى يمرّ على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه، فإن وجدت من يعرفه فعندي لك نسخة مذهبة من ديوان مطران !

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت، وهو من وحي شيطانك الرجيم :
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا مِنْ مَهْدِ عَصَمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي

فما هذا الدنس في التصوير ؟ وما هذا الرجس في التمثيل ؟
أيجوز في ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس ؟
إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء، وقد وصل المصريون في عهد رمسيس إلى أشياء : كانوا لعهد من الغزاة الفاتحين، وكانوا لعهد أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون، فلك أن تتصور إلى أي غاية من غايات الفتوة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق. وأنت نفسك تقول :

فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِينَ فَمَا بَلَّغُوا بِهَا مَبَالِغَهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مَدَّتِهِ مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءِ وَعُمَرَانِ
أتراه كان يحرق الأرض بيديه ؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد ولا معين ؟.

إن ما تم في مدته كان بفضل إخلاص الرعية، وهل تخلص الرعية لجبار مُسْتَبَد غَشُوم ؟.

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح، قوانين من أنس القلوب بالقلوب، وقرب العقول من العقول، ولا بدّ أن يكون رمسيس الثاني ظفر في زمانه بقبس من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع بها وهو فردّ أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف.

إن الذي يزور وادي الملوك في الأقصر، أو يزور وادي اللوار في فرنسا يقول « كانت هنا أمة » قبل أن يقول « كان هنا ملك » ولكن قضت سنة الخلود أن

يكون في كل أرضٍ جُنْدِيٌّ مجهول، والجنود المجهولون ليسوا في عُرْفِ المجد
بنكرات، فكل حجر أقيم هو الخلود لتلك السواعد التي أقلتته من مكان إلى مكان،
وكل نقش نُحِدٌ يحمل اسم الفنان الذي تعب فيه، وإن لم تشهد بذلك رسوم،
ولا حروف، وسيأتي زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا ترى العيون،
وقد سَبَقْنَا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلاً في خلود التماثيل.

من الحق أيها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية، ولكن في أي آذان ؟
في آذان من يقرؤون ولا يفقهون، أما الأمة التي خلدت رمسيس فهي باقية في
ذمة الصم الخوالد من أحجار الكرنك، على أيامه السلام.

وما هذا الظلم الذي تقترب أيها الشاعر، وأنت تتمثل ذلك الفرعون وهو
في مضجع الداعرين ؟

أنت تقول إنه سَخَّرَ الشعب، وهل تعرف كيف تُسَخَّرُ الشعوب ؟ لقد
أضجرتك سياسة (الفرقة القومية) وهم جماعة من الممثلين يُعدون على أصابع
اليدين، وإن زادوا فهم يُعدون على أصابع اليدين والرجلين، فكيف تنتظر أن يُسَخَّرَ
رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصارييف الحرب، وإلى تكاليف السلم ؟ أيفعل
ذلك وهو يَتَمَطَّى وَيَتَشَاءب تحت أشجار الجميز ؟ أم يفعل ذلك وهو عقلٌ يُفكر،
ورأيٌ يُدبر، ولسانٌ يُبين ؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام في بيته، وفيه خمس أنفس، والمدرس قد
يعجز عن إقرار النظام في درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ، فمن عسى
أن يكون الملك الذي يقيم قواعد النظام في أمة تُعد بالملايين، ولكل قلب شهوات
ولكل رأس نزوات، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقوق ! إن الملك الذي يجمع
طوائف شعبه على رأي واحد لهوَ رَجُلٌ سَحَّارٌ خَلَقَتْ إرادته من كل قلب، فسيطر
على كل نفس، ووضع على عصره يداً من حديد، وكذلك كان رمسيس الذي
غَمَزَتْهُ في شعرك غَمَزَةٌ لا رفق فيها ولا إشفاق.

ولكن كيف اتفق لمطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين ؟

لقد فكرت في ذلك طويلاً، ثم بدا لي أن أرجع إلى الظرف الذي نظم فيه هذه القصيدة العصماء، فوجدت الدكتور محمد صبري يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة ثم أرسل إلى الأستاذ محمد أبياتا لينشرها بالمؤيد، وأبيات مطران هي أصل ما في النونية، وفيها يقول عن فرعون :

شَادَ فَأَعْلَى وَبَنَى فَوَاطِدَا لَا لِلْعُلَا وَلَا لَهُ بَلْ لِلْعِدَا
مُسْتَعِيدَا أُمَّتُهُ فِي يَوْمِهِ مُسْتَعِيدَا بَيْنَهُ لِلْعَادِي غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام :

إِنِّي أَرَى عَدَّ الرِّمَالِ هَا هُنَا خَلَائِقًا تَكْثُرُ أَنْ تُعَدَّادَا
مُجْتَمِعِينَ أَبْحُرًا مُنْفَرِعِينَ نَ أَنْهَرًا مُنْحَدِرِينَ صُعَدَا
صُفَرَ الْوُجُوهِ نَادِيًا جَبَاهُهُمْ كَالْكَلِ الْيَاسِ يَعْلُوهُ النَّدَى
أَكُلْ هَذِي الْأَنْفُسِ الْهَلَكَى غَدَا تَبْنِي لِفَانٍ جَدَثًا مُخْلَدَا

وهذا من الشعر الحق، والشاعر يتمثل نفسه واقفاً ينظر العمال وهم يبنون الأهرام، وكانت هذه القصيدة هي الباعث الذي حدا إسماعيل صبري على نظم نونيته الشماء.

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة ؟ لقد اتصلت بالأستاذ مسعود تليفونيا، وسألته متى نشر دالية مطران، فأجاب بأنه لا يذكر بالضبط، وإنما يعرف أنه ترك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦.

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى في غمر الفراعين منذ ثلاثين سنة أو تزيد. قد يسأل القارئ : وما خطر ذلك في هذه القضية ؟ ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة تغلي غيظاً وحقداً على السلطان عبد الحميد، وكان الناس في أكثر البلاد يرون في صورة عبد الحميد وجه الجبار السفاح، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم وشعراءهم وكتّابهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وحكم على بعضهم بالنفي وعلى بعضهم بالشنق، الآن عرفنا من كان يعني مطران وهو يحارب رمسيس، إنه كان يحارب عبد الحميد

وإن لم يخطر له ذلك على بال، ومهمة النقد الأدبي، هي إمطة اللثام عن المقنع من ضمائر الرجال.

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التي كان يحاربها مطران، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته، لأن مصر في ذلك الحين كانت ترى عبد الحميد خليفة المسلمين، ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف، على حين يجار الخطباء فوق المنابر بالدعاء له، وَيَتَنَسَّمُ الجمهور أخباره في المساجد والأسواق.

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول في أعوان رمسيس :

هُمْ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ	قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتَيَانِ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا	فَخَوَّلُوهُ مَدِيناً حَقَّ دِيَانِ
فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ	رُسُومُهُمْ مِنْذُ بَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانِ
وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ	شُعْثاً مُنْكَرَةً فِي رَمْسٍ كِثْمَانِ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد، الرجل الداهية الذي طوّق عصره بطوق من فولاذ، واستطاع السيطرة والبطش عدداً من السنين.

ومطران في هذه اللفتة كان ابن عصره، ففي ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد، وكان أدباء الشام يسلقون ذلك العاهل بالسنّة حداد.

تلك كانت نفسية مطران، أما نفسية صبري فكانت ملكية أكثر من الملك كان صبري فيما أفترض على وفاق مع أعوان عبد الحميد، أو كان على الأقل من المحايد، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت في رأسه العصبية المصرية، وانطلق يقول في تمجيد الفراعين :

أَيْنَ الْأَلَى سَجَلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ	وَصَغَرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانِ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ	وَأُذِرْجُوا طَيِّ الْأَخْبَارِ وَأَكْفَانِ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرْباً مُخَلَّدَةً	فِي الْكَوْنِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانِ

فالمعارضة بين صبري ومطران لم تكن معارضة بين رجلين، وإنما كانت معارضة بين حزينين، والشعر الذي نقرؤه ونتغنى به لا يمثل عواطف فردية في أغلب الأحيان، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح.

ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب، لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خَلَتْ نُحْلُوًّا ظاهرياً من المعنى الذي عرضناه، ولكن الناقد الذي يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصْعُبُ عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول .

— ٦ —

على أن مطران لم يفته أن يتمنى للمصريين استعباداً مثل استعباد رمسيس، استعباداً ترتفع به هاماتهم في الدنيا فيقفون مواقف الرجال.

ولننظر كيف يقول :

<p>لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقَهَا رَسَبَتْ النَّارُ أَشْوَعُ وَرَدًا فِي مَجَالٍ عَلَا أَكْرَمُ بِذِي طَمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ بَعْضُ الطُّعَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا كَمْ فِي سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلِكَةٌ لَمْ تَرُقْ فِي حِقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيتَ لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مُمْتَنِعٍ أَلَّا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيْسٌ مُقَدَّمُهُمْ</p>	<p>يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طَغْيَانٍ مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيَّانٍ يَنْجُو الْأَذْلَاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانٍ فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأُحْدَانٍ فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانٍ بِسَابِقِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شُجْعَانٍ بِأَوْجِهِ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانٍ إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانٍ.</p>
--	--

هذا هو الشعر في منطق الحكماء، الآن يتمنى مطران لو أُتيح للبلاد الهوامد أن تظفر بطاغية ينقلها من حياة الخمول إلى حياة الإقدام، الآن يرى النار أرفق

بالشعوب من العيش الوادع في ظلال الترف واللين، والآن يُرَحَّبُ بطمع الطامعين الذين ينجو بهم الأذلاء من الخسيف والخسران فيُنْقَلُونَ من خفض العيش إلى ميادين القتال، الآن يرى من سُنن المجد أن تَفْنَى الجموع في سبيل الأفراد، ويرى بعين الشاعر أن سَنَا الكوكب الوهاج يهلك ما يشاء من الأضواء والألوان، الآن يرى أن رمسيس الثاني رفع قومه بين الناس، وجعل وطنه فوق الأوطان، الآن يقرأ ما نقش على الصروح ليرى كيف كان البشر يفيض من أوجه الجنود وهم يعودون إلى الوطن ظافرين.

فما معنى ذلك ؟ أيكون معناه أن مطران وقع في تناقض ؟
لا ! لم يقع في تناقض، وإنما عرض صورتين مختلفتين : الصورة الأولى في معائب الاستبداد، والصورة الثانية في محاسن الاستبداد، ولكل حقيقة وجهان : أحدهما دميم، والآخر جميل.

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التي وثب إليها صبري، ولكنه لم يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جَوْلَةٍ شعرية عرض فيها لتقبيح الظلم والتنكيل بالظالمين، وشعر مطران في طعن الاستبداد له وجه مقبول، هو وَثْبَةٌ شَعْبِيَّةٌ تجول بالصدور في كل أرض، وفي كل جيل.

فلنسجل الآن أن مطران تفرد في نونيته بهذه المحاولة العقلية، وهي عرض جانبين من الرأي في قصيدة واحدة، وهو نوع من التحليل لا يجيده من الشعراء إلا الأقلون.

ولنذكر أن بيت القصيدة في نونية مطران هو قوله وقد راعته العظمة في تمثال رمسيس :

لَوْلا تَمَائِيلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةٌ مَا جَالَ فِي ظَنِّ فَاِنْ أَنَّهُ فَاِنْ
وما أحب أن تضيع الفرصة بدون أن أوجّه أنظار الرجال في مصر إلى ذلك التمثال، وليتهم يفكرون في نقله من الأقصر ليُنصب في ميدان باب الحديد، أليس من العجيب أن ينقل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية لينصبوها في ميدان الكُونْكَورْد فتوحي إلى شعرائهم آيات الشعر الرفيع، ونعجز نحن عن نقل تمثال

رمسيس يُنصب في ميدان باب الحديد فيكون شاهداً على ماضي مصر في إعزاز
العظمة مخلدة بروائع الفن الجميل.

— ٧ —

نظم صبري قصيدته ليرد على مطران فكان لابد له من وقفة يشرح بها ما
في الأهرام من جلال :

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا مِنْ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاخِرَةٌ بِمَا يُضَعِّضُ مِنْ صَرْحِ وَإِيَوَانِ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى مَا يَأْخُذُ النَّمْلُ مِنْ أَرْكَانِ تَهْلَانِ

أرأيتم كيف لا يأخذ الليل والنهار من أركان الأهرام إلا بمقدار ما يأخذ النمل
من أركان الجبل ! لقد تمرّد ملوك على الأهرام ليهدموها فلم تخذش معاولهم غير
الطلاء.

وما هذا البيت :

كَأَنَّهَا — وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا صَرَغَى — بِنَاءُ شَيَاطِينٍ لِشَيْطَانِ

ما هذا البيت ! من القليل أن نقول إنه بيت القصيد، فإن جملة « والعوادي
في جوانبها صرعى » من أروع وثبات الخيال، وما أجدر هذا البيت بأن ينقش
على الأهرام ليكون صفحة جديدة في سفر الفنون.

ثم ماذا يا صبري ؟ ماذا تقول في أحجار الأهرام ؟ أتقول :

كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي اثْنَائِهَا صُورٌ فَصِيحَةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُذْرَانِ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ صَدَى يُرَوِّعُ صَمَّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

ما هذا الشعر أيها الناس ؟ هذا هو السحر الحلال الذي سمعنا باسمه في أخبار
الأولين.

أما بعد : فأني أكاد أحكم بأن الشاعر اسماعيل صبري هو الذي سنّ مذاهب القول في وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقي، أليست ضادية شوقي مما نُظِمَ بعد نونية صبري ؟

إن كان فيما أحكم به شيء من الحق فأسماعيل صبري إمام أهل هذا العصر في الإشادة بآثار الفراعين.

وليس المجال في هذا الحديث بمتسع لدرس ضادية شوقي في قصر أنس الوجود، فليرجع إليها القارئ في الجزء الثاني من الشوقيات، وليتذكر أن قول شوقي :
رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبَيْكَ مُذَالٍ كَانَ حَتَّى عَلَى الْفَرَاعِينَ غَمُضًا

إنما أخذ من قول صبري :
وَزُحِرُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأُسْتَارَ مُقْتَحِمًا جَلَالَ أَكْرَمِ آثَارِ وَأُعْيَانِ
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ إِذَا هُمَا وَزْنَا يَوْمًا بِمِيزَانِ
﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾.

البحث الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان : قصيدة أبي نواس في مدح الأمين وقصيدة البارودي في الترحم على صباه.

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل بن الربيع، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صنعت يوم قضت بالنصر للمأمون.

لا نعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته، ولكن من المرجح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي في سنة ١٩٣هـ. وأبو نواس ولد سنة ١٤١ فيكون عمره حين نظم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد.

وإنما اهتمامنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا نواس كان يجدّ كل الجهد في التحسر على ملاعب الشباب، ولم يكن في تحزنه من المتكلفين، واثنتان وخمسون سنة تهدّ عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكؤوس، وزوابع الدسائس والنمائم، وأعاصير الجدة العاثر والزمن الكنود.

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذين يكون الديار ويقفون على الأطلال،

كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكؤوس والرياحين والوجوه الصباح
ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدمن العافيات، فلما فعلت الاثنتان والخمسون
فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه، تلفت فرأى الديار مما يستحق البكاء... والله يعلم
أي حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل هو يقول :

يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامُ لَمْ تَبْقَ فِيكَ بَشَاشَةٌ تُشَامُ
عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُرَامٌ^(١)
أَيَّامٌ لَا أَغْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا مُرَاقِبَةً عَلَى ظِلَامٍ^(٢)

وأبو نواس في هذه الأبيات يقاسي لوعتين : لوعة الوجد على الدار التي ذهبت
ببشاشتها الأيام، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أجلّتهم عن دار الهوى
أحداث الزمان، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا في ظلمات الليل
أيام كان يتذوق حياة يراها الشاعر أرق من النجوى، وأطيب من شهى العتاب.

ثم انظروا هذه الصورة، صورة الفتك، في هذا البيت :
وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ وَأَسْمَتُ سَرَحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا
تأملوا هذه الصورة البدوية التي أخذت ألوانها من حياة الأعراب، ثم انظروا
كيف جمعت أطراف المغامرات الجنونية، مغامرات اللهو والشباب.

وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال :
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَارَةٌ كُلُّ ذَاكَ آثَامُ
الله أكبر، هذا هو الشعر، وذلك هو الشاعر أبو نواس !

قصيدة أبي نواس عدتها عشرون بيتاً، وقصيدة البارودي عدتها أربعون بيتاً،
ولكن هذه الأبيات الخمسة، أو هذه الفاتحة في السورة النواسية هي التي هاجت
البارودي، وأذكت لوعته، وأضرمت شجاءه، فقال :

(١) العرام : الشدة والعنف.

(٢) جملة (على ظلام) جملة حالية

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَوَلَّى الْأَيَّامُ فَعَلَى الصَّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامٌ
تَاللَّهِ أَنْسَى مَا حَيَّتْ عُهودُهُ وَلِكُلِّ عَهْدٍ فِي الْكِرَامِ ذِمَامٌ

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبي نواس، وأكاد أحكم بأن البارودي كان يتكلف بعض التكلف، فإن نفثته لم تكن نفثة ملتان، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف، ومفتون بأخلاق الماجدين، فقد اندفع يحدث عن رفاقه في أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان الماجنين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمائل الأبطال.

ومعنى ذلك أن ندمان البارودي لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برؤوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون، على نحو ما كان ندمان أبي نواس، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الحانات، وإنما يعاقرون الكأس في القصور، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعاني البأس، ومعاني الجود.

فالبارودي وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص في الشوق إلى أيام صباه؛ وإنما يتمدح ويتمجد، وتلك حال من يعقل، لا حال من ذهب الوجد بقلبه الملتاع.

وانظروا كيف يقول :

إِذْ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرَفٍّ ظِلَالُهُ وَلَنَا بِمُعْتَرِكِ الْهَوَى آثَامُ
تَجْرِي عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ فِيهَا السَّلَامُ تَعَانِقٌ وَلِزَامُ
فِي فِتْنَةٍ فَاضَ النَّعِيمُ عَلَيْهِمُو وَنَمَاهُمُ التَّبَجِيلُ وَالْإِعْظَامُ
ذَهَبَتْ بِهِمْ شَيْمُ الْمُلُوكِ فَلَيْسَ فِي تَلْعَابِهِمْ هَذَرٌ وَلَا إِبْرَامُ
لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهَوَى سُمِحَ النَّفُوسِ عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامُ
مِنْ كُلِّ أَبْلَجٍ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ كَالْبَذْرِ حَلَّى صَفْحَتَيْهِ غَمَامُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا يَسُوءُ جَلِيسُهُ بَيْنَ الْمَقَامَةِ وَاضِحٍ بَسَامُ
مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ تَحَسُّبُ أَنَّهُ مَوْلَى لَهُمْ فِي الدَّارِ وَهُوَ هَمَامُ
تَرْنُو الْعُيُونُ إِلَيْهِ فِي أَفْعَالِهِ وَتَسِيرُ تَحْتَ لَوَائِهِ الْأَقْوَامُ
فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّؤُوسُ خَوَاضِعُ وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالْصُّفُوفُ قِيَامُ
نَلْهُو وَنَلْعَبُ بَيْنَ خُضِرِ حَدَائِقِ لَيْسَتْ بِغَيْرِ خِيُولِنَا تُسْتَامُ

حَتَّى أَنْتَبَهْنَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ الصَّبَا إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصَّبَا أَحْلَامُ

وهذا الشعر في غاية من الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه، فهو لاء الندمان العابثون هم رجال أعمال، وليسوا فتیان غواية، هم أقطاب الحرب، وأعلام السلم، ولهم مع ذلك آثام في معترك الهوى، والإثم ألوان : هناك إثم الأطفال، وهناك آثام الأبطال، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودي أضخم من آثام أبي نواس. هيهات، وإنما أحكم بأن آثام البارودي يغمرها التجميل والتعقل والافتعال، وأمثال هذه الآثام لا ترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطراف المجد المفقود ومن أجل ذلك قلت : ان الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات الشباب، ومن أجل ذلك أيضاً نراه يتكلف الحكمة إذ يقول :

لَا تَحْسَبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتَرَفٍ	هَيْهَاتَ لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ
تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا	لَمَعَ السَّرَابِ وَتَنْقُضِي الْأَعْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ	أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ
لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مِخْلَبٍ	يَبْقَى وَعَاقِبَةُ الْحَيَاةِ جِمَامُ

كانت قصيدة أبي نواس في مدح الأمين، وكذلك منعه الأدب من الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء، أما البارودي فقد قصر قصيدته على شجون قلبه وهموم دنياه، فرأيناه يندفع في وصف الخمر فيقول :

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ	بِالْكَأْسِ فَهِيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي الْوَانِهِ	إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ
مِنْ خَمْرَةٍ تَذُرُّ الْكَبِيرَ إِذَا أَنْتَشَى	بَعْدَ أَشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهُوَ غُلَامُ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا فَعَادَرَ جِسْمَهَا	شَبَحًا تَهَافَّتْ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
حَمْرَاءُ دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصُوِّرَتْ	فَلَكَا تَحْفُ سَمَاءُهُ الْأَوْهَامُ
لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا	وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ
تَعْشُو الرُّكَّابُ فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا	سَارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لَمْ يَصِلْ بِفَنَائِهِ نُورٌ وَلَمْ يَرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامٌ
حَتَّى إِذَا اضْطَفَقَتْ وَطَارَ فِدَامُهَا وَثَبَتْ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الْأَجْسَامُ
وَقَدَّتْ حَمِيَّتَهَا فَلَوْلَا مَرْجُهَا بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ شَبَّ ضِرَامُ
تَسِمُ الْعُيُونُ بِنُورِهَا لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَابِهَا وَسَلَامٌ
فَاصْقُلْ بِهَا صَدًّا الْهُمُومِ وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطْلِيشُ بِلُبِّهِ الْآلَامُ

وهذا شعر جميل، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودي قال هذه الأبيات وهو تعبان؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح، هي نظم منسجم مسبوك، ولكنها كالكأس التي قتلت بالماء فلم يبق منها غير الشعاع الخامد الذي لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان.

أيرانا القارىء نتحامل على البارودي؟ وكيف، وقد قرأنا أبياته هذه مرة ومرة، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك، ولم تطف بالرأس غاشيات الضلال.

إن خمرية البارودي هذه لن تهوي بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمریات أبي نواس فقد صيرت قبره سعيراً لا يخمد له أوار، وسيكون يوم الدين جبلاً يتفجر بالبراكين.

قلت لكم: إن البارودي نظم قصيدته وهو تعبان، ومن آيات ذلك أنه عاد إلى تكلف الحكمة، فقال:

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ لَوْ يَسْتَيِّنُ عُقَامُ
فَاطْمَحَ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ
هَذِي الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النُّظَامِ وَهَذِهِ الْأَهْرَامُ
لَا شَيْءٌ يَخْلُدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ
وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ الْأُمُورَ بغيرِهَا وَآتَى عَلَى النَّقْضِ وَالْإِبْرَامُ
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكٌ وَإِذَا الْخُمُومُ دُ تَلَهَّبُ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ
وَإِذَا الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَيِّتَةٍ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ

هَذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهًا عَنْهَا فَصُلِحَ تَارَةً وَخَصَامُ
فَالنُّورُ لَوْ يَبِينُ أَمْرَكَ ظُلْمَةً وَالْبَدَأُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خَتَامُ

وهذا شعر رجل تعبان، واليأس نفسه يحتاج في تصويره إلى قوة، وكان
البارودي ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية حين قال :
لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْو يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ

هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبي نواس، لأنها في المديح، ولأن البارودي وقف
في المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب، على أنه لا مانع من الإشارة إلى
أن البارودي حين وصف رفاقه برجاحة الأحلام وهم يشربون أطاف بقول أبي
نواس في مدح الأمين :

مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَعُدَّكَ التَّجِيلُ وَالْإِعْظَامُ

ولا بأس من توجيه القارئ إلى العذوبة البادية في قول أبي نواس:
وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَّغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ
رَفَعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرِ مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ
سَبَطُ الْبَنَانِ إِذَا احْتَبَى بِنَجَادِهِ فَرَغَ الْجَمَاجِمِ وَالسَّمَاطُ قِيَامُ
مَلِكٌ إِذَا اعْتَبَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ رَأْيِي يَفُلُّ السَّيْفُ وَهُوَ حُسَامُ

ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التي دَنَسَ بها أنصار المأمون أخبار
الأمين.

البحث الحادي والثلاثون

بين البارودي وأبي فراس

في كل لغة شعراء وكتاب وخطباء يخلقون أجواء^(١) من الفكر والعبقرية فيزيّدون في عمر لغتهم ويصلون بينها وبين القلوب والعقول، فتزداد تأصلاً وقوةً وحيويةً، فاللغة الفرنسية مدينة في حياتها لأمثال هوجو وميسيه ولامرتين، واللغة الانجليزية مدينة لأمثال بيرون وشلي وشكسبير، واللغة الألمانية مدينة لأمثال شلر وجوته، والناس متفقون على أن اللغة الإيطالية مدينة لدانتي أثقل الدّين.

ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات، أبو فراس الذي وصف الضعف الانساني أجمل وصف، وشرحه أحسن شرح، ومثله أصدق تمثيل.

أبو فراس ضحية الكبرياء، والحبّ والمجد، أبو فراس الوتر الحثان الذي خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين، أبو فراس الذي أبكى كل عين، وأحزن كل قلب، وشغل كل بال، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير، وعلمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجل.

(١) الجو يجمع على جواء بكسر الجيم، وهي اللفظة التي آثرناها في كتاب النثر الفني. ولكننا آثرنا هنا أن نجتمعها على أجواء.

كن كيف شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبي فراس فستعرف أن القوة
الانسانية في حاجة إلى من ييكها حين تزول، وليت القلم يطاوعني لأشرح بعض
ما أريد، وأنا أريد أن أقول : إن عنفوان الرجال من كنوز الحياة، ولكنها كنوز
معرضة للتزييف حين يعروها الخمود، العنفوان في الرجال الشجاع هو أنضر من
الصباحة في الوجه الجميل، والصباحة تجد من ييكها حين تزول، أما العنفوان
حين يحمد فلا يجد من يشيعه بطيف من الرثاء.

وما قرأت روميات أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال، تمثلت عنفوان الفارس
القاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة الأسر، وهزيمة
القلب وانصهار الروح.

لا تذكروا آلام المتنبي، ولا أشجان المعري، ولا وجد ابن زيدون، كل أولئك
أحماهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس، وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتى
يعود طفلاً يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول :

مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلٌ	وْظَنِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ
جَرَّاحٌ تَحَامَاهَا الْأُسَاةُ مَخَافَةً	وَسُقْمَانٍ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ
وَأُسْرٌ أَقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ	أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَصِيرَةٌ	وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْرُكُ طُولُ
تَنَاسَانِي الْأَصْحَابُ إِلَّا عِصَابَةً	سَتَلْحَقُ بِالْأُخْرَى غَدًا وَتَحُولُ
وَأَنَّ الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْعَهْدِ مِنْهُمْ	وَأِنْ كَثُرَتْ دَعْوَاهُمْ لَقَلِيلُ
أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبِ	يَمِيلُ مَعَ النِّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ
وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ	وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَضُولُ
أَكُلُ زَمَانٍ أَنْكَدُ غَيْرُ مُنْصِفٍ	وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بَخِيلُ
فَيَا حَسْرَتِي مَنْ لِي بِخِلٍّ مُوَافِقٍ	أَقُولُ بِشَجْوِي تَارَةً وَيَقُولُ
وَأَنَّ وَرَاءَ السُّرْرِ أَمَّا بُكَائُهَا	عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ
فَيَا أَمَّنَا لَا تَخْطِئِي الْأَجَرَ إِنَّهُ	عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلُ
تَأْسِي كَفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْذَرِيْنَهُ	فَقَدْ غَالَ هَذَا الدَّهْرُ قَبْلَكَ غُولُ

لَقِيتُ نُجُومَ اللَّيْلِ وَهِيَ صَوَارِمٌ وَخُضْتُ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَهُولُ
وَلَمْ أَرْغِ لِلنَّفْسِ الْكَرِيمَةِ خُلَّةً عَشِيَّةً لَمْ يَعْطِفْ عَلَيَّ خَلِيلُ
وَلَكِنْ لَقِيتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَرَكَتُهَا وَفِيهَا وَفِي حَدِّ الْحُسَامِ فُلُولُ

أثرون كيف صحَّ للفارس المغوار أن يبكي كما يبكي الطفل ؟ إن التوجع لآلام
الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أو يُؤسرون،
وكذلك قضت الدنيا على أبي فراس أن ينهزم وأن يُؤسر، وقضت عليه أن ينتظر
من يفديه فلا يظفر بالفداء، قضت عليه الدنيا أن يعاني آلام الجروح فلا يسعفه
طبيب، ولا يواسيه رفيق، قضت عليه الدنيا أن يتمثل أمه باكيةً مُلتاعةً لا يرقأ
لها دمع، ولا يهدأ لها فؤاد، ويا ويل من تضعف نفسه فيرق لأحزان الأمهات !

على أن أبا فراس كان يتجلد أحياناً في أسرهِ فلا يزيدنا ذلك التجلد إلا علماً
بما وصل إليه من فقد الصبر وانعدام العزاء، كان يتجلد فيستطيع أن يقرع سيف
الدولة بمثل هذا العتاب :

أَمَّا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنْ ثَوَابٌ
وَلَا لِمَسِيٍّ عِنْدَكُنْ مَتَابٌ
لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةً
وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابٌ
وَلَكِنِّي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَازِمٌ
أَعِزُّ إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلَا تَمْلِكُ الْحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ
وَإِنْ مَلَكْتَهَا رَوْقَةً وَشَبَابٌ^(١)
إِذَا الْخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَأَةً
فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقُ عِتَابٌ

(١) الروقة والروق : أول الشباب. ويقال أيضاً مضى ريق الشباب.

إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بَلَدٍ مَا أُرِيدُهُ
 فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
 فَلَيْسَ فِرَاقٌ مَا اسْتَطَعْتُ فَإِنْ يَكُنْ
 فِرَاقٌ عَلَى حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابُ
 صُبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّي بَقِيَّةٌ
 قَوْلٌ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوفَ جَوَابُ
 وَقُورٌ وَأَهْوَالُ الزَّمَانِ تَنُوشُنِي
 وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جَيْئَةٌ وَذَهَابُ
 وَالْحَظُّ أَحْوَالُ الزَّمَانِ بِمُقْلَةٍ
 بِهَا الصِّدْقُ صَدَقٌ وَالْكَذَابُ كِذَابُ
 بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَتُوبُهُ
 وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ
 وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ
 ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ نِيَابُ
 تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غِبَاؤِي
 بِمَفْرِقِ أَغْبَانَا حَصَا وَثَرَابُ
 وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
 إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
 وَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ
 وَلَا كُلُّ قَوْلٍ لَدَيَّ يُجَابُ
 وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي
 كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ
 إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلِ
 تَحَكُّمٍ فِي آسَادِهِمْ كِلَابُ
 تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعُ
 لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ

وَلَا شُدَّ لِي سَرْجٌ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ
 وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قَبَابُ
 وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ
 وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ حِرَابُ
 سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نُمَيْرُ بْنُ عَامِرٍ
 وَكَعْبٌ عَلَى عَادَاتِهَا وَكِلابُ
 أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمُو
 وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ
 وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أَصِيبُهَا
 وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّلَبِينَ تُصَابُ
 وَأَسْطُو وَحْبِي ثَابِتٌ فِي قُلُوبِهِمْ
 وَأَحْلُمُ عَنْ جُمَالِهِمْ وَأَهَابُ
 بَنِي عَمَّنَا لَا تَتْرُكُوا الْحَرْبَ إِنَّنَا
 شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابُ
 بَنِي عَمَّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ بَيْنَنَا
 إِذَا فُلٌّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ
 بَنِي عَمَّنَا نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالظُّبَا
 وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابُ
 وَإِنَّ رِجَالًا مَا ابْنُهُمْ كَابِنُ أُخْتِهِمْ
 حَرِيُونَ أَنْ يُقْضَى لَهُ وَيُهَابُ
 فَعَنْ أَيِّ عُذْرٍ إِنْ دُعُوا وَدُعِيْتُمُو
 أَيُّتُمْ بَنِي أَعْمَامِنَا وَأَجَابُوا
 وَمَا أَدَّعَى مَا يَعْلَمُ اللَّهُ غَيْرُهُ
 رِحَابٌ عَلَيَّ لِلْعُفَاةِ رِحَابُ
 وَأَفْعَالُهُ بِالرَّاغِيَيْنِ كَرِيمَةٌ
 وَأَمْوَالُهُ لِلطَّلَبِينَ نَهَابُ

وَلَكِنْ نَبَا مِنْهُ بِكَفِّي صَارِمٌ
 وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي مِنْهُ شَهَابٌ
 وَأَبْطَأَ عَنِّي وَالْمَنَايَا سَرِيعَةً
 وَلِلْمَوْتِ ظُفْرٌ قَدْ أَظْلَلُ وَنَابُ
 فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدٌّ قَرِيبٌ نَعْدُهُ
 وَلَا نَسَبٌ دُونَ الرَّجَالِ قُرَابُ
 فَأُحَوِّطُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضِيعَنِي
 وَلِي عَنْهُ فِيهِ حَوَاطَةُ وَمَثَابُ
 وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
 لِنَعْلَمَ أَيُّ الْخُلَّتَيْنِ سَرَابُ
 وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَحَبَّةً
 لَدَيْهِ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
 وَأَطْلُبُ إِثْقَاءً عَلَى الْوَدِّ أَرْضَهُ
 وَذِكْرِي مَنَى فِي غَيْرِهِ وَطِلَابُ
 كَذَلِكَ الْوِدَادُ الْمَحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ
 ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
 وَقَدْ كُنْتُ أَرْضَى الْهَجَرَ وَالشَّمْلَ جَامِعٌ
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لُقْيَةٌ وَخَطَابُ
 فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيْصَرُ
 وَلِلْبَحْرِ حَوْلِي زُخْرَةٌ وَعُجَابُ
 أَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ
 أَثَابُ بِمُرِّ الْعُثْبِ حِينَ أَثَابُ
 فَلَيْتَكَ تَحْلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
 وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
 وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

ولنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لنمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس، فذلك رجل أسير ضَعُضَعَه اليأس، ولكنه لا يزال مشغول البال بمكايد الأحزاب، وهو يتكلم كلام الطليق، لا كلام الأسير، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع، والعقاب والثواب، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول :

تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا شُدُّ لِي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ وَلَا ضَرْبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قَبَابُ
وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ جِرَابُ

وأقصى ما يعاني الرجل أن يمسي لا يملك الضر، ولا يملك النفع، وغايات الفتوة أن يكون الرجل نفاعاً ضرراً يخشاه العدو ويرجوه الصديق، وشكاية أبي فراس في قصيدته هذه شكاية رجال، أما شكايته في القصيدة الماضية فشكاية أطفال، ومعاذ الأدب أن يتجنى عليه، فنحن لا نعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير، ولا نعرف ما قوبل به أسره في بلاط سيف الدولة، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء، وذلك إن وقع شيء منه كافٍ لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع، يحولة إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم في الحرب من حسن البلاء.

قلت : إن الشاعر يتكلم في هذه القصيدة كلام الطليق. ألم نر كيف ابتدأها بالنسيب ؟ ألم نر كيف دعا إلى مواصلة الحرب ؟ ألم نر كيف يمتدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول :

وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ

ولنتذكر أن كل شعره في الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس، فمن المستبعد جداً أن نتصور أن الرجل كان يرسل قومه من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، فالدنيا في ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد، وهل سمحت الدنيا في هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتى تسمح لأبي فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا في هذا القصيد ؟

إن الصلة بين القصيدتين الماضيتين ليست بعيدة، فالأولى توجع، والثانية تجلد، وليس بين التوجع والتجلد إلا فرق ضئيل.

والشاعر في القصيدتين غير متكلف، وإنما هو يمثل ما يمر بالنفس الإنسانية من صور وأطياف، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف، وفيها جبروت واستخذاء، والشاعر الحق هو الذي لا يكذب على الطبع : وإنما يتهج ويبتس، ويقسو ويلين، وفقاً لبسمات العيش أو نكد الزمان. قد يقول معترض : وكيف صح لأبي فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو في القيّد ؟

ونجيب بأن الليث المأسور في حديقة الحيوان يمثل أحداث الغابة في كل حين. والنفس تجترّ ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبس الذي يبدد غياهب البؤس، ويمحق ظلمات البأساء. وكيف نحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعندنا البارودي، البارودي رجل السيف، الذي لم يصرّ أيام الحرب والفتوة إلا بعد أن ألقته الحوادث منفياً في جزيرة سيلان.

إن إحساس البارودي بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نرعت عنه الحوادث شارات المجد، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة وفتوة ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب، وتريه الدنيا كيف تُصوّح الأزهار، وكيف تجف الأنهار، وكيف تذبل الرياحين.

إن إحساس أبي فراس والبارودي بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس طبيعي مألوف، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا يتمدح بماضيه إلا حين يصبح حاضره لا يكبت العدو ولا يسر الصديق.

ومن عجيب التشابه بين البارودي وأبي فراس أنهما ظلا في أيام المحنة واليأس يتذكran الأحباب ويشكوان سفة الواشين، وقد مرّ شاهد من شعر أبي فراس، فلنذكر بجانب ذلك قول البارودي :

رُدُّوا عَلَيَّ الصُّبَا مِنْ عَصْرِي الْخَالِي وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللَّمَّةِ الْبَالِي
مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ مَلاَحَتْ مَخَايِلُهُ فِي صَفْحَةِ الْفَكْرِ إِلَّا هَاجَ بَلْبَالِي

سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ فِي مَضَاجِعِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ وَقَلْبِي لَيْسَ بِالسَّالِي
لَمْ يَدْرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُوراً بِلَذَّتِهِ أَنِّي بِنَارِ الْأَسَى مِنْ هَجْرِهِ صَالٍ
يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا هَلْ إِلَى عِدَةٍ بِالْوَاضِلِ يَوْمٌ أَنَاغِي فِيهِ إِقْبَالِي
غَبِثْتُمْ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ وَسَاءَ صُنْعُ اللَّيَالِي بَعْدَ إِجْمَالِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي مِنْكُمْ عَلَى ثِقَةٍ حَتَّى مُنِيتُ بِمَا لَمْ يَجْرُ فِي بَالِي
لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أَسْتَحِقُّ بِهِ عَثْباً وَلَكِنَّهَا تَحْرِيفُ أَقْوَالِ
وَمَنْ أَطَاعَ رُوَاةَ السُّوءِ نَفَرَهُ عَنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ
أَذْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرٌ قَبْلَهُ ثِقَةً وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ صَدٌّ بَعْدَ إِقْبَالِ

فماذا ترون في هذه الأبيات ؟ إن البارودي يصنع كما يصنع أبو فراس، هو يتكلم كلام الطليق، هو يرجو ألا يسمع أحبابه كلام الواشين والمرجفين ولم يكن في دنيا النفي ما يتسع لوشاية ولا إرجاف.

تلك نزوات نفسية، هي نزوات الطائر المحبوس في القفص، وهو مع ذلك يتوثب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء.

وإنما توغلت في هذه المسالك لأدلّ القارئ على أسرار التناقض فيما يقرأ للبارودي، وما يقرأ لأبي فراس. هما شاعران يشتركان في كثير من النوازع، ويشتركان في كثير من الصفات، وبليّة النفي والأسر بلية واحدة وإن اختلفت الصور والظروف.

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودي وأبي فراس يجعل الموازنة بين الرائيين فرصة لاتتاح في كل حين، فكلا الشاعرين يتغزل، وكلاهما يذكر ماضيه في الحرب، وأنفاسهما في هذين البابين أنفاس حراراً لا يدرك وقدها إلا من ذاق الأسر والنفي، وقد ذقنا الأسر مرتين^(١)، أما النفي فعرفناه في صورة جديدة هي الغربة الروحية والغربة العقلية، وإلى الله نشكو ما نعاني من قسوة الاغتراب في هذا الزمان.

(١) كان المؤلف من الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية، وكان اسمه مقيداً في أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقاً شعلة من الحرب، وكانت خليقة بأن ترهب المجترة وتزعجها لو دامت بضع سنين.

البحث الثاني والثلاثون

الموازنة بين الرائيين

— ١ —

ونشرع في الموازنة بين الرائيين فنقول :
يظهر أن البارودي لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس، فقصيدة
البارودي خمسة وعشرون بيتاً، وقصيدة أبي فراس تجاوزت الأربعين.

قد يقال : وما قيمة الكمية ؟ ونجيب بأن البارودي حين عارض ميمية أبي
نواس نظر فرآها عشرين بيتاً، فجعل قصيدته أربعين، وذلك من شارات الاهتمام
والاحتفال.

والنسيب في قصيدة أبي فراس عشرون بيتاً، وهو في قصيدة البارودي أحد
عشر بيتاً.

ومن الفوارق بين الشاعرين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب
إلى الفخر، أما البارودي فترفق في التخلص حين قال :

وَكَفَّكْتُ دَمْعاً لَوْ أَسَلْتُ شُؤْنَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ أَمْرُو أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحْتُ بِهِ صَبْوَةٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ

وَإِنِّي أَمْرُؤُ لَوْ لَا الْعَوَائِقُ أَذْغَعْتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُؤُ الْمُغِيرَةُ وَالْحَضْرُ
مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ

وابتداً أبو فراس قصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال :
أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ أَمَّا لِلْهُوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
بَلَى، أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُدَاغُ لَهُ سِرُّ

وهذان البيتان غاية في وصف أقدار الرجال، فإن الرجل لا يعاب عليه
الحب، وإنما يعاب عليه أن يصير أحبابه مضغة، الأفواه، ثم جعل الشكوى
بينه وبين الليل، فقال :

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهُوَى وَأَذَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ
تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْهَجْرُ

وقد عارض البارودي مطلع أبي فراس فجعل أمره في الحب أخطر من أن
يُدَارَى بالكتان، وتمثل نفسه مُحباً جاحداً لا يصدّه تهيب، ولا يَرُدُّعُهُ إشفاق،
وكذلك قال :

طَرَبْتُ وَعَادَتْنِي الْمَخِيلَةُ وَالسُّكْرُ وَأَصْبَحْتُ لَا يُلْوِي بِشِيمَتِي الزَّجْرُ
كَأَنِّي مَخْمُورٌ سَرْتُ بِلِسَانِهِ مُعْتَقَّةٌ مِمَّا يَضُنُّ بِهَا الشَّجْرُ
صَرِيحُ هَوَى يُلْوِي بِي الشُّوقُ كُلَّمَا تَلَأَّأَ بَرَقَ أَوْ سَرْتُ دِيمَةً غَزْرُ
إِذَا مَالَ مِيزَانُ النَّهَارِ رَأَيْتَنِي عَلَى حَسَرَاتٍ لَا يُقَاوِمُهَا صَبْرُ

فالبارودي لم يصنع صنيع أبي فراس الذي حدثنا أنه عرف كيف يكتب أسرار
الحب، وأنه لا يشكو بالله إلا إلى ظلمات الليل، وإنما سلك البارودي مسلكاً آخر،
حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتان، وحين أعلن أن ما به أخطر من السحر
وأخطر من الجنون، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب، لأن الحب في رفته
ولطف مداخله لا يُرد بالسيوف وبالرماح، وهي كل ما يملك ذلك الفارس الذي
كانت مواقفه مما يشيب ناصية الزمان :

يَقُولُ أَنْاسٌ إِنَّهُ السَّحَرُ صَلَّةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا السَّحَرُ
فَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ أَمْرِي وَلَيْسَ لِي وَلَا لِأَمْرِي فِي الْحُبِّ نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ لَأَلَوْتُ بِهِ الْبَيْضَ الْمَبَاتِيرُ وَالسُّمُرُ
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقْتُ شَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف تستطيع العيون النواعس أن تفعل بالرجال مالا تفعل الصهباء، لا يعلم أحد كيف يتفق للرجل أن يذلل ويخضع في ميدان الحب، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخد الأسيل — وهو أرق من الورد — أن ينال من قلب الرجل ما لا ينال السيف الصقيل.

لقد يخطر ببال الخليين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر، وأفتك من الخمر، وأقفل من الداء العضال، ولكن الذي مارس دنيا الصباحة، وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب، لا يزال يعجب من هذه المصاير المحزنة : مصاير الرجال الذين يعيشون بعزائم من الصخر وقلوب من الهواء.

لقد كان البارودي ولا ريب من أقوى الرجال، ولكنه مع ذلك عاش في الحب عيش الأطفال، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض، وظل يهذي بأحلام « حلوان » هذيان المحموم، فلم تفارقه لوعته في سفر ولا حضر، ولم يرحمه جواه في شدة ولا رخاء، ومن أجل ذلك نراه يحس بلواه كل الاحساس وهو يقول :
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقْتُ شَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ
وللقارئ أن يتأمل هذه الصورة الشعرية، له أن يتصور كيف تتعلق شرارة الحب بالجمر فيحترق الجمر، فالجمر يحرق ولكنه حين يمسسه الحب يحترق، وتلك من وثبات الخيال.

وقد عز على البارودي أن يكون أقل جلدًا من أبي فراس وأن يصبح حديث الشامتين، وكذلك استدرك فقال :

عَلَى أَنِّي كَاتَمْتُ صَدْرِي حُرْقَةً مِنْ الْوَجْدِ لَا يَقْوَى عَلَى مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفُفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُؤُونَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبْرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحْتُ بِهِ صَبُوءٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ

ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من الضعف وأسبغ عليه نعمة الصبر الجميل، ولولا لطف الله لغرق الناس في « بحر » من الدموع وهي ملح أجاج.

لقد أعجبني من البارودي أن يُعرب في الوهم، فيقول :
وَكَفَكْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شَوْوَنَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ
وعبارة « ما شك امرؤ » عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر يفطن إلى أنه مقبل على أكاذيب، والكاذب في حاجة إلى القسم وإلى التأكيد.
وكنا نود لو اعتذرنا عنه، ولكن هذا الغلو المكشوف لم يُوشَّ بصورة شعرية على نحو ما وشى البيت البكر الذي جعل به الجمر وقوداً لنار الحب، والدنيا كلها وقودٌ لتلك النار التي يعذب الله بها من يشاء من عباده الشعراء.

— ٢ —

لم يمض البارودي في حديث هواه، أما أبو فراس فقدم صوراً من التشبيب، عاتب حبيبته فقال :
مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ
وهذا البيت عرض له شوقي في مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات فرآه من صور الأثرة وفضل عليه قول أبي العلاء :
فَلَا هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلَا بِأَرْضِي سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِلَادَا
ونحن نرى أبا فراس أصدق من أبي العلاء، فإن الأثرة من مظاهر الحيوية، والشاعر الحي لا يفكر إلا في نفسه، لأن الحياة تفرض الاستبداد، ونظرة أبي العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف، والأثرة هي سر كل شيء، فالشجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت في مص الأرض واستنشاف الهواء وهي لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات، والرجل العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يغير على معاصريه، فهو لا يظهر إلا بعد أن يُخمل الألوفا والملايين، والشمس

لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف بضياؤها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها في كبد السماء، وكان القمر أقل عظمة من الشمس لأنك ترى بجانبه نجوما يخطئها العد فتحكم بأنه عجز عن الاستبداد بملك السماء، وقد يتفق أحيانا أن نرى القمر نهاراً، ولكن كيف نراه ؟ نراه في صورة التابع الذليل، وهو لم يظهر إلا بفضل ما أفاءت عليه الشمس، ولو كفت برّها عنه لعاش وهو مجهول.

فقول أبي فراس :

إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

من الكلمات القوية التي لا تصدر إلا عن رجل يحمل قلب الملوك، أما كرم أبي العلاء فهو كرم العاجز الذي لا يتصرف في شيء، وإنما يبذل عطايا الوهم بلا حساب، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا ممن يملك الإفضال على الناس، أما الذي يسره أن يجود المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسر بما لا يبذل، والسرور بما لا تبذل سرور الضعفاء.

وقد فرح ناس بملاحظة شوقي فراحوا يعيدونها في كل مجتمع، وهم لا يفقهون !

ومضى أبو فراس فامتعنا بهذين البيتين :

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنْسِي أَرَى أَنَّ دَاراً لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَفْرُ
وَحَارَبْتُ قَوْمِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ وَإِيَّايَ لَوْلَا حُبُّكَ الْمَاءُ وَالْخَمْرُ

وهذا شعر بدیع حقاً، وإن كان البيت الأول مأخوذاً من قول جميل :
أَبَيْتُ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذُوو فَضْلٍ

وكان البيت الثاني أخذ برفق من قول جميل في كلمة ثانية :
كَأَنَّ لَمْ نُحَارِبْ يَا بُيْنَ لَوَانَّهَا تَكْشَفُ غَمَّاهَا وَأَنْتَ صَدِيقُ

ولننصّر على أن البيت الأول عند أبي فراس أروع من بيت جميل، أما البيت الثاني من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثاني من شعر أبي فراس.

ثم انظروا هذا البيت :

وَفَيْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لِلْإِنْسَانَةِ فِي الْحَيِّ شِيمَتُهَا الْعَذْرُ

انظروا هذا البيت وتأملوه، فعبارة « وفي بعض الوفاء مذلة » تصور ما يلقي الرجل في الحب، والوفاء في الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون، والرجل لا يحب إلا وهو مخبول، ولو كان يملك من أمره شيئاً لعرف أن نعيم الحب نعيم صغير بالإضافة إلى ما يُدال فيه عز النفوس.

وهذا البيت :

وَقُورٌ وَرَيْعَانُ الصَّبَا يَسْتَفْزُهُمَا فَتَارُنُ أَحْيَانًا كَمَا يَأْرِنُ الْمُهْرُ

هذا بيت نادر، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان، ولك أن تتذكر وقار العقلية المليحة التي تحيا برزانة الجبال، ثم يستفزها الصبا فتجنح إلى التعقب والتغضب، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفشون، وهي أملح في العين وأندى على القلب من بسمات الرضا ونغمات الحنين.

وانظروا هذا الحوار الطريف :

تَسَائِلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهِيَ عَلِيمَةٌ	وَهَلْ بَفَتِي مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ
فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى	قَتِيلُكَ، قَالَتْ: أَيُّهُمْ؟ فَهُمْ كُثْرُ
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَعَنِّي	وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ
وَلَا كَانَ لِلْأُحْزَانِ عِنْدِي مَسَلُكُ	إِلَى الْقَلْبِ لَكِنَّ الْهَوَى لِلْبَلَا جِسْرُ
فَأَيَّقَنْتُ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقِي	وَأَنَّ يَدَي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ
فَقَالَتْ لَقَدْ أُرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا	فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ

وهذا أيضا شعر، ولكن أي شعر ! إنه من أقوى لفحات الصبابة، وأطيب نَفَحَاتِ الوجدان، والدنيا هكذا تصنع بالرجال، فذلك الفارس الذي فتك بمن فتك من الأبطال، وهدم ما هدم من الحصون، هذا الجبل يقف خاشعاً ذليلاً أمام إنسانة تقول : من أنت ؟ فيقول : عاشق ! فتقول : ولكن من أنت في العشاق ؟ فيقول في ذلة المهزوم : أنت تعلمين !

ومن كانت هذه الإنسانية التي عناها أبو فراس ؟
ولكن ما قيمة هذا السؤال ؟ أكان من الحتم أن يكون مثلها شأن حتى تكوي
مثله على الجمر المشبوب ؟ إن من أعجب تصارييف القدر أن لا يثبت الحسن
المرموق إلا في المراتع التي لا يُنصب حول حماها حصن، ولا يرفرف فوقها لواء.
إن أبا فراس لا يكذب في مثل هذا التحرق، ولكن من كان يحب ! كان يحب
إنسانية هي اليوم في ضمير شعره، لا في ضمير صدره، إنسانية أنطقته بهذه
اللوعة الخالدة، ثم اندرجت في أكفان الفناء.

ثم انظروا هذا المصير المحزن، مصير كل عاشق خبله الهوى فضاع :
وَقَلَّبْتُ أَمْرِي لَا أَرَى لِي رَاحَةً إِذَا الْبَيْنُ أَنْسَانِي أَلَجَّ بِي الْهَجْرُ
فَعُدْتُ إِلَى حُكْمِ الزَّمَانِ وَحُكْمِهَا لَهَا الذَّنْبُ لَا تُجْزَى بِهِ وَلِي الْعُدْرُ
هذا مصير كل عاشق : لغيره أن يُذنب وعليه أن يعتذر. والعشق ذاته خروج
على المنطق، منطق الحياة التي تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل دنية، إلا أن يُثبت
البحث أن الحب أسلوب من الظفر بمكنونات الجمال، وأن مدامع العشاق هي
في عالم المعقول كالمخلب والناب في عالم المحسوس، فالأسد يفترس، والعاشق
يفترس، وإن اختلفت وسائل الافتراس.

نحن إذن نبكي لنُخدّر الفريسة، وعلى ذلك يكون الدمع في عين العاشق كالسم
في ناب الثعبان ! ! أترونني كشفت سرّ المهنة ؟ لا تُراغوا أيها العشاق فلاهل
الجمال غفلة هي أعجب الغفلات، هم يرون الشرك ويتجاهلون، لحكمة يعلمها
من يصل القلوب بالقلوب، وينقل الأطباء طائفة إلى مرابض الأسود.

وكان أبا فراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال :
كَأَنِّي أَنَادِي دُونَ مَيْثَاءَ ظَبْيَةٍ عَلَى شَرَفِ ظَمِيَاءَ حَلِيَّتِهَا الدُّعْرُ
تَجَفَّلُ حِينًا ثُمَّ تَدْنُو كَأَنَّمَا تُنَادِي طَلَابًا بِالْجَرِي أَعْجَزُهُ الْحُضْرُ
وهو خيال بدويّ أطاف به كثير من الشعراء، والمليحة هكذا خلقت تأمن
وتخاف، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال.

نتقل إلى الموازنة بين الشاعرين في الفخر فنقول :
يُحْسُّ البارودي أن أيامه انتهت، أيام المجد الحربي، فيزفر :
وَإِنِّي أَمْرُو لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَذْعَنْتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةُ وَالْحَضَرُ

وعبارة « لولا العوائق » فيها تحفظ معقول : لأنه كان في القيد، أما أبو فراس فيشمخ :

وَإِنِّي لَنَزَالٌ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ كَثِيرٍ إِلَى نَزَالِهَا النَّظَرُ الشَّرُّ

وحال الشاعرين مختلف، فالبارودي كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل الانجليز بلاده ونفوه إلى جزيرة نائية لا يُرجى له منها معاد، فهو خَلِيقٌ بأن يراعي ذلك في فخره. أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان لهم جيش، وكان ينتظر أن يُفك من الأسر، وفي ذلك ما يفسح أمام نفسه مجال القوة فيزهى ويختال، ويتمجد فيقول :

وَإِنِّي لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ مُعَوَّدَةٍ أَنْ لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
فَأُصْدَى إِلَى أَنْ تَرْتَوِي الْبَيْضُ وَالْقَنَا وَأَسْعَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذُّئْبُ وَالنَّسْرُ

وهذا نهاية الفخر، والخيال هنا بارع، فالفراس يظل صديان حتى ترتوي الرماح والسيوف، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من لحوم الأعداء.

وأبو فراس لا يذكر غير نفسه، أما البارودي فيجعل مجده من مجد قومه :
مِنْ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ
إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّفَتَ الدَّهْرُ

والبيت الثاني وثبة هائلة من وثبات الخيال، ولا يخلو البيت الأول من حُسْنِ مَرْمُوقٍ.

ونحن نفهم لماذا سكوت أبو فراس عن التمدح بقومه، فقد بُحَّ صوته وهو يستنجد بهم ليفدوه فلم يلتفتوا إليه، أما البارودي فلم تكن له بَقِيَّةٌ من مجدٍ غير آبائه الذين وصفهم بالجود والبأس فقال :

لَهُمْ عُمْدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلُ وَالْوَيْةُ حُمْرٌ وَأَفْيِيَّةٌ خُضْرُ
وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ لِمُدَّرِعِ الظَّلَمَاءِ السِّنَّةُ حُمْرُ
تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِييَّةٌ تُصَافِحُهَا الشُّعْرَى وَيُلْتَمُّهَا الْغَفْرُ
وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقِينَ صَهِيلُهَا نَزَائِعُ مَعْقُودٍ بِأُغْرَافِهَا النَّصْرُ
مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفَيَافِي كَانَهَا خُدَارِيَّةٌ فَتَخَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكْرُ^(١)

والجود في هذه الأبيات وضع في أخيلة بدوية، فإقامة النار لهداية السارين لا يعرفها القاهريون، وقوم البارودي الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من المماليك، وكان للبارودي فيما يقال أجداد من المماليك، وكان هذا النسب الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك، ويحبب إليه الصيال.

وعبارة : « وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقِينَ صَهِيلُهَا » عبارة قوية جدا، وهي لا تقل جمالا عن تلفت الدهر وتفرع الأفلاك.

والبارودي يجعل خيل قومه « مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفَيَافِي » وهو تعبير طريف فهي ليست من الخيل المدللة التي تحيا في نعيم المرباض وتُمسَحُ أُغْرَافُهَا مسح التلطف والترفق، على نحو ما يقع في مرباض الوادعين الذين يقتنون الخيل للزينة لا للحرب.

والبارودي كان يئس من كل شيء، يئس من نفسه لأن الذين نفوه كانوا مُتَّصِرِينَ، ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف، والقوم الذين أعينهم أنا هم المصريون، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودي فهم أسلافه القدماء، وهؤلاء لم تبق منهم بقية، ولذلك بكاهم فقال :

أَقَامُوا زَمَانًا ثُمَّ بَدَدَ شَمْلَهُمْ أَخُو فَتَكَاتٍ بِالْكَرَامِ أَسْمُهُ الدَّهْرُ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضَوُّعُ بَرِّيَّاتِهَا الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
وَقَدْ تَنَطَّقُ الْآثَارُ وَهِيَ صَوَامِي وَيُثْنِي بَرِّيَّاهُ عَلَى الْوَابِلِ الزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقًا وَالْمُنُونُ لَهُ أُسْرُ
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلُ يَحُلُّ بِهَا سَفَرٌ وَيَتْرُكُهَا سَفَرُ

(١) الخدارية بالضم : العقاب، والفتخاء من العقبان : اللينة الجناح.

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلَكِنَّهُ يَسْعَى وَغَايَتُهُ الْعُمُرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف، لأن الشاعر كان من اليائسين.
أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول، فتحدث عن أدب الحرب فقال :
وَلَا أَصْبِحُ الْحَيَّ الْغُيُورَ بِعَارَةٍ أَوْ الْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي التُّذُرُ
ومن أشرف آداب الحرب أن تُسبق بالنذير فلا يكون فيها تَبَيُّتٌ ولا اغتيال
وبلغ غاية الفخر حين قال :
وَيَا رَبَّ دَارٍ لَمْ تَخْفَنِي مَنِعَةً طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَ الْفَجْرُ
وكلمة « لَمْ تَخْفَنِي » وكلمة « مَنِعَةٍ » من الكلمات الأصلية في هذا البيت،
وعبارة :

« طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَ الْفَجْرُ »

فيها رَشَاقَةٌ وفيها خيال.

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح
حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك المغير البطّاش :
وَسَاحِبَةُ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيْتُهَا فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي اللَّقَاءِ وَلَا وَعْرُ
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لِأُتْيَاتِهَا سِتْرُ
وَلَا رَاحَ يُطْغِينِي بِأَثْوَابِهِ الْغِنَى وَلَا بَاتَ يَشِينِي عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْرُ
وَمَا حَاجَتِي فِي الْمَالِ أَبْغِي وَفُورَهُ إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلَا وَفَرَ الْوَفْرُ

وهذا استطراد إلى محاسن نفسية يتمدح بها كرام الرجال.

وانتقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره فقال :

أَسْرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَعَى

وَلَا فَرَسِي مُهَرٌّ وَلَا رَبُّهُ غِمْرُ

وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِئٍ

فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة الباقية التي يفرع إليها الأبطال المنهزمون،

والقَدْر له في الأدب الشرقي مكان، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود، وفي كتاب
كليلة ودمنة فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لشؤون الناس، وما نحب أن نفعل
كما يفعل كتاب الغرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية، هيهات،
فالناس في الشرق والغرب ضعفاء، وإن فتنهم النصر في بعض الأحيان، والإنسان
حيوانٌ لئيم فهو لا يذكُر القَدْرَ إلا حين يُغَلَب، وهو عند العافية يتسامى إلى منزلة
الإله المعبود.

وما أخطر ما يلقي الرجال في مآزق الكَرْب والضيم، حين يُخَيَّر في الحرب
بين بلتين : بلية الفرار، وبلية الهلاك، وقد صوّر هذا أبو فراس أصدق تصوير
حين قال :

وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أُمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مَرُّ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يَعِينُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أُمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ

وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت في هذا الموطن كلمة « أصيحاب »
فان لم يكن الوزن هو الذي قضى بذلك فأبو فراس إذن من أبصر الشعراء بصياغة
الكلام.

وتلفت أبو فراس فرأى آسريه يمتنون عليه بأن لم يخلعوا ثيابه كما يصنعون
بالأسرى، ولعلهم لاحظوا أنه أمير، وأن الأمراء لهم في الأسر مقام ملحوظ،
فقرَّعَهُمْ بهذين البيتين :

يَمْنُونُ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَيَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْو حُمُرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فِيهِمْو دُونَ نَصْلِهِ وَأَعْقَابُ رُمَحٍ فِيهِمْو حُطَمُ الصَّدْرِ

ويكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذي قيل فيه هذا القصيد، وأغلب الظن
أنه قاله في الأسبوع الأول من الأسر، وإن كان في بقية القصيدة ما يشعر بالعتب
على قومه إذ قال :

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلَمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَاسَدَدْتُ اكْتَفَوْا بِهِ وَمَا كَانَ يَغْلُو النَّبْرُ لَوْ نَفَقَ الصُّفْرُ

فإن في هذين البيتين دلالة على أنهم أبطؤوا في افتدائه، وكانوا من
الآثمين، ثم قال :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوْسُطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسَنَا وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَا يُغْلِيهِ الْمَهْرُ
أَعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى بَنِي الْعُلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التُّرَابِ وَلَا فَخْرُ

وفي هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم في صدر القصيد.

— ٤ —

أما بعد؛ فقد سارت قصيدة أبي فراس في كل أرض، وتغنى بها الناس في جميع
البلاد العربية، وما فيها من التشبيب حفظ في لوحة من ألواح الغناء سجلتها شركة
أوديون للآنسة أم كلثوم، وكلمة :
« لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرُ »

يُحفظها كل أديب.... والبيت :
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسَنَا وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَا يُغْلِيهِ الْمَهْرُ
كُتِبَ ألف مرة ومرة في دفاتر الإنشاء.

أما قصيدة البارودي فقد نُسيت مع الأسف الموجه، ولم يُحفظ منها
غير هذا البيت :

إِذَا أَسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَرَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّتَفَتَ الدَّهْرُ

وكذلك نكَبَ البارودي مرتين : نِكَبَ حِينَ نَفِيٍّ وَلَمْ يَرْجِعْهُ قَوْمُهُ بِقُوَّةِ
السيف، ونِكَبَ حِينَ نَسِيَ النَّاسَ شَعْرَهُ فِي مَنْفَاهِ.

وأكد أحكم بأن البارودي كان في الحرب أفتك من أبي فراس، والحرب بين
الجيش المصري ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التي اشترك
فيها أبو فراس.

ولكن البارودي لظروف كثيرة فقد الحظَّين معاً، فلم ينتصر سيفه، ولم يسر
شعره، والدنيا حظوظ، وإلا فكيف انخفضت هامة البارودي وكان عزمه يدك
الحبل.

أيها البارودي العظيم !
لست أتكلف الغضب لك، والإشفاق عليك، أنت عبقرية أضاعها المصريون
وأضاعها الزمان، ولكن لا تأس، ولا تحزن، فلست أول من أضاعهم المصريون
وأضاعهم الزمان !

البحث الثالث والثلاثون

بين أبي نواس وعبد الباقي إبراهيم

ملاعب الكرة في الشعر العربي

— ١ —

مَلَّاعِبُ الْكُرَّةِ فِيهَا لَطْفٌ وَجَازِيَّةٌ، وَفِيهَا سَحَرٌ وَفُتُونٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَنْهَا الشُّعْرَاءُ إِلَّا قَلِيلاً، وَلَعَلَّ مِنْ أَسْبَابِ تَقْصِيرِ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ لَا يَشَارِكُونَ الشَّبَابَ فِي أَلْعَابِ يَأْبَاهَا أَدَبُ الْكُهُولِ، وَالشَّاعِرُ يَظَلُّ فَتًى الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، وَلَكِنَّهُ يَتَوَقَّرُ كَثِيراً فَلَا يَشَارِكُ الشَّبَابَ فِي أَلْعَابِ تَنْشَأُ أَوَّلَ مَا تَنْشَأُ بَيْنَ الْأَطْفَالِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ مَا صَنَعَ شُعْرَاءُ الْإِنْجِلِيزِ فِي وَصْفِ مَلَاعِبِ الْكُرَّةِ، وَهُمْ مِنْ أَمْهَرِ اللَّاعِبِينَ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ جَيْداً أَنَّ شُعْرَاءَ الْعَصْرِ الْحَاضِرِ فِي مِصْرٍ لَمْ يُعْنَوْا بِوَصْفِ مَلَاعِبِ الْكُرَّةِ عَلَى نَحْوِ مَا عُتُّوا بِوَصْفِ الْمَرَاقِصِ مَعَ أَنَّ لَعِبَ الْكُرَّةِ أَحْفَلُ بِالْمَعَانِي الْحَيَوِيَّةِ، وَهُوَ أَقْدَرُ مِنَ الرِّقْصِ عَلَى الْعِبَثِ بِأَخْيَلَةِ الشُّعْرَاءِ.

وَيُمْكِنُ الْحُكْمُ بِأَنَّ اللَّعِبَ تَغْلِبَ عَلَيْهِ الصَّبِغَةُ الْجَدِيدَةُ بِخِلَافِ الرِّقْصِ، وَلَكِنْ أَيْكُونُ الْجَدُّ مِمَّا يَقْضِي عَلَى قَرَائِحِ الشُّعْرَاءِ بِالرَّكُودِ؟ إِنْ الْجَدُّ فِي اللَّعِبِ لَهُ مَعَانٍ تَخْلِبُ الْأَلْبَابَ، وَهُوَ خَلِيقٌ بِأَنَّ يَحْوِلَ الشُّعْرَاءُ إِلَى شَيَاطِينٍ، فَلَنَعْرِفَ ذَلِكَ وَلَنَنْتَظِرَ

من شعراء مصر أن يُسجّلوا في أشعارهم روعات الحفلات السنوية التي تقام بالجزيرة، والتي ينبض فيها دم الشباب بأشرف الحيات وهم يتقابلون صفين في ميدان الحرب العاتية التي تنتهي دائماً بالسلام والصفاء.

وما أنسَ لا أنسَ ملعب الكرة في رحاب الجامعة المصرية، وقد أقيم في قصر الزعفران في شتاء سنة ١٩٢٦، وكانت المباراة يومئذ بين طلبة الجامعة المصرية وبين فريق من فتيان الأمريكان زاروا مصر في ذلك الحين، وكان الزعيم سعد زغلول يشهد ذلك الاحتفال. ثم مَسَّه البرد فانتقل إلى مكتب مدير الجامعة ووضعت المدفأة بين قدميه، ولبت ينتظر أخبار المباراة، وانتصر يومئذ الشبان المصريون على الشبان الأمريكان، ولكنهم تطامنوا في النهاية عامدين ليتمكنوا الصقُور الأمريكية من الظفر المصنوع.

في ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب، ولكن أين الشعراء؟ إن ملاعب الكرة تقام في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غداء العدس والبول، وليس في مصر شاعر يتخذ قوته من الحب والنسيم.

مالي ولهذا؟ أنا لا أكتب هذا الفصل لأفصل في قضية الشعراء، فلتركهم للحياة تؤدب منهم من تشاء، وتنسى من تشاء، ولنتقل إلى وصف ملعب الكرة في قصيدة أبي نواس، وقصيدة عبد الباقي إبراهيم.

— ٢ —

حدّث حمزة الأصفهاني أن أبا نواس خرج يوماً مع العباس بن موسى الهادي إلى « عيسانا باذ » فوجد في الميدان زهير بن المسيب والصقّر بن مالك الخزاعي يلعبان بالصوالحة فدخل مع القوم فصاروا حزينين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرب، فلما طرب قال هذه الأرجوزة :

قَدْ أَشْهَدُ اللَّهَ بِفَتْيَانٍ غُرَّرَ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ سَادَاتِ الْبَشَرِ

وَمِنْ بَنِي قَحْطَانَ وَالْحَيِّ مُضَرُّ
زَيْنَ حُسْنٍ وَجْهَهُ طَيْبُ الْخَبَرِ
مِنْ كُلِّ طَرْفٍ أَعْوَجِيٍّ قَدْ ضَمَرَ^(٢)
جَنٌّ عَلَى جَنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ
أَوْ سُمَرُ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمَرَ
مُكَلَّلَاتِ بَهَارٍ وَزَهَرٍ
إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي غَبِّ مَطَرٍ
مَحْنِيَّةً أَطْرَافُهَا فِيهَا زَوْرٌ^(٤)
فَلَمْ يَعِْبْ طُولٌ وَلَا شَانَ قِصَرٌ
مُدْمَجَةٌ الْأَرْكَانِ مُدْمَاةَ الطَّرَرِ
أَحْكَمَهَا صَانِعُهَا لَمَّا فَطَرَ
فَلَيْسَ لِلْإِشْفَاءِ بِالْجِلْدِ أَثَرٌ
حَتَّى إِذَا مَا أُغْلِقَ الْقَوْمَ الْخَطَرُ
مُجَرَّباً يَوْمَ الرَّهَانِ الْمُحْتَضَرِ
فَلَمْ يَجُرْ مِنْهُمْ وَلَا الْعَيْنُ فُتْرٌ
بِكُرَّةٍ دَحَا بِهَا ثُمَّ زَجَرَ
رَفْعاً وَوَضْعاً أَيُّمَا ذَاكَ اسْتَقَرَّ
تَدَافَعُ النَّبْلُ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرِ

مِنْ كُلِّ مَالُوفٍ كَرِيمٍ الْمُعْتَصِرُ^(١)
عَلَى جِيَادٍ كَتَمَائِيلِ الصُّورُ
لَمْ يَكُوهِ الْبَيْطَارُ مِنْ دَاءِ الْحَمَرِ^(٣)
كَانَمَا خَيْطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرِ
بَيْنَ رِيَاضٍ مِثْلِ مَوْشِي الْخَبَرِ
فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمٍ قُرٍّ وَخَصَرٍ
صَوَالِجاً يَصُبُّو إِلَيْهَا مَنْ نَظَرَ
قَدَرَهَا شَابِرُهَا لَمَّا شَبَرَ
وَقَدْ تَنَادَوْا فَتَرَامَوْا بِالْأَكْرِ^(٥)
شَدَّدَ صِفْقِي مَتْنَهَا حَشُو الشَّعْرِ^(٦)
الْطَفَ بِالْإِشْفَاءِ خَرَزاً إِذْ دَسَرَ^(٧)
يُحْسِنُ تَفَاحاً تَدَلَّى فِي شَجَرٍ
وَوَكَّلُوا بِالْبَزِّ مِقْدَاماً ذَكَرَ^(٨)
فَضْلَهُ حَذَقٌ وَضَرْبٌ مُشْتَهَرٌ
وَأَسْتَقْدَمَ الْقَوْمَ رَئِيسٌ ذُو خَطَرٍ
فَانْحَدَرَتْ كَالنَّجْمِ وَلَّى فَاكَدَرُ
تُدْفَعُ بِالضَّرْبِ إِذَا الضَّرْبُ اسْتَمَرَ
فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيماً ذَا وَقَرٍ

(١) كريم المعتصر : جواد عند السؤال.

(٢) الأعوجي : نسبة إلى أعوج، فرس كان لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات.

(٣) الحمر — بفتحيتين — داء يعترى الدواب من كثرة أكل الشعير فتنتن أفواهها.

(٤) الزور بالتحريك : الميل..

(٥) الأكر جمع أكرة، وهي لغة في الكرة.

(٦) الصفقان : مثني صفق وهو الجانب.

(٧) الإشفاء — بالمد للضرورة — مثقب يخرز به الجلد. ودر: أدخل الإشفى في الجلد،

(٨) البز : الغلبة والقهر.

إِذَا أَجَادَ الضَّرْبَ فَدَى وَنَعَرَ
وَأَكْتَابَتْ نَفْسُ الَّذِي خَافَ الْغَيْرَ
وَأَيَّقُوا أَنْ قَدْ عَلَاهُمْ وَقْهَرُ
حَتَّى يَفُوزَ بِالرَّهَانِ مَنْ قَمَرَ
يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسَرُّ
« كَذَلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرِ »

وهذه أرجوزة رشيقة نحب أن يتأملها القارئ، ليدرك ما فيها من خفة الحركة ودقة التصوير، وعيساناباذ محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي، و« ناباذ » كلمة فارسية معناها العمارة، وهذه المحلة خلدها أبو نواس في هذا الرجز الطريف.

— ٣ —

أما عبد الباقي إبراهيم فقال قصيدته في وصف مباراة كرة القدم بين تلاميذ مدرسة شرم بك، وتلاميذ مدرسة رأس التين بمدينة الاسكندرية، مدينة الملاعب في الصيف وغير الصيف.

وإليك أرجوزته :

أَذْكُرُ يَوْمًا أَغْلَنَ السُّرُورَا	مَتَّعْتُ فِيهِ الْعَيْنَ وَالضَّمِيرَا
يَوْمَ الْخَمِيسِ الضَّاحِكِ النَّصِيرَا	لَا بَارِدَ الْجَوِّ وَلَا مَطِيرَا
صَحَبْتُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورَا	طَوُّوا عَلَى حُبِّ الْعُلَا صُدُورَا
حَتَّى أَتَيْنَا مَعْهَدًا مَشْهُورَا	يَفِيضُ لِلشَّعْبِ هُدًى وَنُورَا
حَيْثُ شَهِدْنَا لِعِبَا مَشْكُورَا	فِيهِ الصُّقُورُ بَارَتِ الصُّقُورَا
أُبْنَاءُ (رَأْسِ الثَّيْنِ) كَانُوا سُورَا	أَمَامَ جَيْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا
جَيْشَانِ مَا طَلَا دَمًا طَهُورَا	وَلَا تَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَوْتُورَا
قَدْ نَظَّمُوا صُفُوفَهُمْ سَطُورَا	بَعْضٌ لِبَعْضٍ قَدْ غَدَا ظَهِيرَا
وَنَمَرُوا ثِيَابَهُمْ تَنَمِيرَا	مِنْ الْعَدُوِّ مَيَّرَ النَّصِيرَا

(١) عططط : صاح.

تَسَاجَلُوهَا كُورَةً فَرُورًا
فَمَرَّةً تَخْتَرِقُ الْأَثِيرَا
وَمَرَّةً تُصَادِمُ - النُّسُورَا
تَرْمِي بِهَا الرَّجُلُ الْمَدَى الْقَصِيرَا
وَإِنْ يُرِيدُهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا
لَا تَلْمَسُ الْكَفَّ لَهَا شَكِيرَا
وَأَشْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرَا
فَإِذَا تَرَاهُ أَسَدًا هَضُورَا
وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ هَوَى مَكُورَا
ظَلُّوا عَلَى هَذَا مَدَى قَصِيرَا
فَمَا أَشْكُوا عِيًّا وَلَا فُورَا
حَتَّى إِذَا مَا سَمِعُوا صَفِيرَا
وَأَنْصَرَفُوا تَحْسَبُهُمْ مَثُورَا
ثُمَّ اجْتَمَعْنَا نَكْمِلُ الْحُبُورَا
أَفَاضَتِ الْحُلُوى عَلَيْهِ النُّورَا

تَصْدِفُ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى نُفُورَا
قُبْلَةً تُهْدِمُ الْقُصُورَا
تَزْفِرُ فِي مَطَارِهَا زَفِيرَا
يَرْجِعُ طَرْفِي دُونَهُ حَسِيرَا
سَمَتَ كَمِنْطَادٍ بَدَا صَغِيرَا
شَرِيعَةً تَجْعَلُهُ مَحْظُورَا
وَزَارَتْ أَصْوَاتُهُمْ زَيْيرَا
وَإِذَا تَرَاهُ بَازِيًا حَذُورَا
يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظَّهُ الْعُثُورَا
تَسَاجَلُوا أَثْنَاءَهُ الشُّرُورَا
وَلَمْ تَرَى فِي لِعِبِهِمْ مَنُكُورَا
(قَدْ كُمْ) أَطَاعُوا الْحَكَمَ الْخَيْرَا
مِنْ الْأَقَاحِ ضَاخَكَ الْمَثُورَا
حَوْلَ خَوَانٍ يَشْرَحُ الصُّدُورَا
وَأَغْرَتِ الْأَعْيُنَ وَالشُّغُورَا

وهذا أيضاً رَجَزٌ طريف، ولكن انظروا قليلاً في الموازنة بين القصيدتين.

— ٤ —

ولنذكر في بداية هذه الموازنة أن أبا نواس هو دائماً أبو نواس، وبالرغم من الطرافة البادية في قصيدة عبد الباقي فإن قصيدة أبي نواس أرشق وأبدع وأظرف، وكيف لا تكون كذلك وقد قالها بعد لعب ختم بكؤوس الصهباء، على حين ختمت حفلة رأس التين بفناجين الشاي !

وربما كان من أسباب تفوق أبي نواس أنه اشترك في اللعب ثم فاز، أما عبد الباقي فكان من المتفرجين، وحماسة اللاعب أقوى وأعنف من حماسة المتفرج، يضاف إلى هذا أن الذين تلاعبوا في ملعب رأس التين كانوا من التلاميذ، على

حين كان الذين تلاعبوا في عيسانا باذ من الفتيان الميامين أمراء بني العباس.
وألفاظ أبي نواس كلها مُتَخَيَّرَةٌ، أما ألفاظ عبد الباقي ففيها القوي والضعيف
يقول أبو نواس :

قَدْ أَشْهَدُ اللَّهَ بِفَتَيَانٍ غُرَّرَ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ سَادَاتِ الْبَشَرِ
ويقول عبد الباقي :

صَحِبْتُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورًا طَوَّارًا عَلَى حُبِّ الْعُلَا صُدُورًا

ولكم أن تنظروا الفرق بين « الفتيان الغرر » في كلام أبي نواس، و « المعشر
المبرور » في كلام عبد الباقي، ولكن لا بأس فأبو نواس يصف اللاعبين، أما عبد
الباقي فيصف جماعة من الأساتذة قَوَّس الدهر ظهورهم فمشوا إلى الملعب متشاقلين.

والمشهد مختلف بعض الاختلاف، فأصحاب أبي نواس يلعبون وهم فوق ظهور
الحياد، أما أصحاب عبد الباقي فيلعبون فوق ظهر الأرض، ومن أجل ذلك تفردت
قصيدة أبي نواس بهذه الشطرات في وصف ثبات اللاعبين على ظهور الخيل.

« جَنَّ عَلَى جَنَّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ »

« كَانَمَا خَيْطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرِ »

« أَوْ سُمِّرَ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمِرَ »

وكذلك تفرد أبو نواس بوصف الحياد، وليس لذلك في ملعب رأس التين
مجال، ولم نكن نعرف لماذا شغل عبد الباقي نفسه بوصف الجو فذكر أنه لم يكن
بارداً ولا مطيراً، مع أن الحفلات السنوية للألعاب تقام في مطلع الربيع، وليس
في مصر برد ولا مطر، والآن نرجح أن هذه اللفتة وردت إلى ذهنه من قول
أبي نواس :

« فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمٍ قُرٌّ وَخَصَرٌ ».

« إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي غَبِّ مَطَرٍ »

وتفرد أبو نواس بوصف الكرة، وكيف تألق فيها الصانع فلم يبين في جملتها
أثر للخرز حتى بدت كالتفاح تدلى من الشجر، وهو وصف جَسِّيٍّ ولكنه جميل

لدلالته على قوة الكرة وصلاحتها للكرّ في الفضاء، ولم يتحدث عبد الباقي عن شيء من ذلك، لأن الكرة في عصرنا لم تعد شيئاً غريباً يوصف بالملاسة ومتانة الأركان.

ووصف أبو نواس حركة الكرة بهذه الشطرات :
« فَأَنْجَدَرْتُ كَالنَّجْمِ وَلَّى فَأَنْكَدَرْتُ »
« رَفَعًا وَوَضَعًا أَيَّمَا ذَلِكَ اسْتَقَرُّ »
« تَدَافُعِ النَّبْلِ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرِ »

وأكد أحكم بأن أبيات عبد الباقي في هذا المعنى أبرع إذ يقول :
تَسَاجَلَوْهَا كُورَةً فَرُورًا تَصْدِفُ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى نُفُورًا
فَمَرَّةً تَخْتَرِقُ الْأَثِيرَا قُبْلَةً تَهْدُمُ الْقُصُورَا
وَمَرَّةً تُصَادِمُ النُّسُورَا تَزْفِرُ فِي مَطَارِهَا زَفِيرَا
تَرْمِي بِهَا الرَّجُلُ الْمَدَى الْقَصِيرَا يَرْجِعُ طَرْفِي دُونَهُ حَسِيرَا
وَإِنْ يُرِذُّهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا سَمَتْ كَمِنْطَادٍ بَدَا صَغِيرَا

واشترك الشاعران في وصف حَسرة المنهزمين، وفي هذا قَصَرَ عبد الباقي فلم يزد على أن يقول :

وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُورَا يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظُّهُ الْعُثُورَا

أما أبو نواس فقد ساق ذلك مَسَاقِ الحِكْمَةِ الباقية فقال :

« وَأَكْتَنَأْتُ نَفْسُ الَّذِي خَافَ الْغَيْرُ »
« يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسَرُّ »
« كَذَلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرِ »

ومثل أبو نواس جَدَلَ الفائزين تمثيلاً طريفاً إذ قال يصف طيش اللاعبين :

« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرَّ »
« إِذَا أَجَادَ الضَّرْبَ فَدَّى وَنَعَرَ »

أما عبد الباقي فقد سما بلاعبيه إلى أفق الجدّ حين قال :

وَأَشْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرًا وَزَارَتْ أَصْوَاتُهُمْ زَيْرًا
فَإِذَا تَرَاهُ أَسَدًا هَضُورًا وَذَا تَرَاهُ بَازِيًا حَدُورًا

وتفرد عبد الباقي بالإشارة إلى ثياب الملعب إذ قال :
وَنَمَرُوا ثِيَابَهُمْ تَنَمِيرًا مِنْ الْعَدُوِّ مَيِّزَ النَّصِيرَا

وتفرد كذلك بالحديث عن خاتمة اللعب حين قال :
وَأَنْصَرَفُوا تَحَسُّبُهُمْ مَشُورًا مِنْ الْأَقَاحِ ضَاخَكِ الْمَشُورَا
ثُمَّ اجْتَمَعْنَا نُكْمِلُ الْجُبُورَا حَوْلَ خِوَانٍ يَشْرَحُ الصُّدُورَا
أَفَاضَتْ الْحُلُوى عَلَيْهِ النُّورَا وَأَغْرَتِ الْأَعْيُنَ وَالشُّغُورَا

والذي يحكم بين اللاعبين هو في لغة هذا العصر، وفي أرجوزة عبد الباقي
اسمه « الحَكَم » وفي أرجوزة أبي نواس اسمه « الرئيس ».

وتفرد أبو نواس بوصف الصوالج ولم يكن لها في ملعب رأس التين مكان.
وتفرد عبد الباقي بالحديث عن صفاء القلوب في صدور اللاعبين حين قال :
أُبْنَاءُ رَأْسِ التِّينِ كَانُوا سُورَا أَمَامَ جَيْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا
جَيْشَانِ مَا طَلَا دَمًا طَهُورَا وَلَا تَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَوْتُورَا
ومن غريب ما اتفق للشاعرين أن اشتركا في إشباع فعل مجزوم، فقال أبو
نواس :

« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرٍّ »

وقال عبد الباقي :

« وَلَمْ تَرَى فِي لِعْبِهِمْ مَنَكُورَا »

ولم أفهم كلمة « الضمير » في قول عبد الباقي :

« مَتَّعْتُ فِيهِ الْعَيْنَ وَالضَّمِيرَا »

ولعله يريد القلب.

تلك وجوه من المفاضلة بين قصيدتين في ملعب الكرة، وقد بقيت أشياء تمس
اللغة، وتمس الأسلوب، ولكنها لا تخفى على المتأدبين من ذوي الألباب.

البحث الرابع والثلاثون

بين شوقي وابن زيدون

— ١ —

نحن مقبلون في هذا البحث على وادٍ ظليل من أودية البيان : مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي، ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية، ومراجعة قصيدتين شغلت احدهما الناس تسعة قرون، وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية، شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقته الدسائس في الحب والملك، ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون، فالدسائس من ألوان الشر الوضيع، ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان، فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تَسْطَعُ من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد، فالرجل حين يُحرَمُ تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدينية،

والمجد الأدبي متاعٌ ليس بالقليل، وهو جدير بأن يوضع في الميزان ولا يُغضَّ من قيمة هذه الغنيمة مانعٌ يعرف ويعرف الناس من أن العبقريين لا يُحسُّون أثر هذا العوض، ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا لا يغض من قيمة تلك الغنيمة، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنساً مكنوناً بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة بليتين لا يتلي بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعقم، والنعيم والجحيم. أما البلية الأولى فهي الحب، وأما البلية الثانية فهي المجد، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمننا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير، وإنما يهمننا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق، فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب، أما الحب فنفحة روحانية لا يعقب طيها إلا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجّر العبقرية في صدر ابن زيدون، ولكن أي حب ؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية يزفها الله إلى من يشاء، وهو خَلِيقٌ بأن يصنع ما يصنع فِعْزٌ وَيَذِلُّ، وَيَرْفَعُ وَيَضَعُ، وَيَكْرُمُ وَيُهِينُ، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب، وإنما يُسَيِّطِرُ ويستطيل حين يجد رفيقاً من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تُمنَحُ الجمال والذكاء تحارب بسيفين مرهفين، وتحوّل الدنيا إلى مآتم وأفراح، والشاعر الذي يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوقود الذي يُقدَّم إلى النار، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون ؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التي ملكت قلبه، واستأثرت بنُهاه :

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِيَنِي
قَدْ مِتُّ إِلَّا ذِمَاءً فِي يَمْسِكُهُ
مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي
كَيْفَ أَصْطَبَارِي وَفِي كَانُونَ فَارَقَنِي
شَخْصٌ يُذَكِّرُنِي فَاهُ وَغُرَّتُهُ
لَيْنٌ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ
وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحٌ بَاكِيةً
وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْتَنَنْتِي الْهُمُومُ لَقَدْ
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَائِيهِ فَلَكُمْ
يَا حُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُو بَدَتْ
وَاللَّهُ مَا فَارَقُونِي بِاخْتِيَارِهِمْ
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمْ
أَفْدِي الْحَبِيبَ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا

إِذْ لَا كِتَابَ يُؤَافِينِي فَيَحْيِينِي
أَنَّ الْفُؤَادَ بِلُقْيَاهُمْ يَرْجِينِي
إِلَّا أَعْتِيَادُ أَسَى فِي الْقَلْبِ مَسْجُونٍ
بِالْقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِينِي فَيَشْفِينِي
قَلْبِي وَهَذَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ
شَمْسِ النَّهَارِ وَأَنْفَاسِ الرِّيحِ
قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّنِي فَيُرْوِينِي
فَكَمْ أَرَاهُ يُعْنِينِي فَيُشْجِينِي
عَهْدُهُ وَهُوَ يُدْنِينِي فَيُسَلِينِي
حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينَ
كَوَإِكْبَاءٍ فِي لَيْالِي بُعْدِهِ الْجُونِ
وَإِنَّمَا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِي
إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي
لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولادة بنت المستكفي التي يقول فيها ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف، وتثيم المسمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ».

كانت ولادة فاتنة الجمال، وكانت أديبة تنظم الشعر البارع، وتدرك أسرار الكلام البليغ. والشاعر الذي يهوى فتاة أديبة ينعم مرتين، ينعم بالحب، وينعم بالشعر، والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب أنه يوجه أنغامه إلى أذن تسمع وقلب يدوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلکم الأدبية الحسنة :
 إني ذكرك بالزهراء مشتاقا
 والأفق طلق، ومرأى الأرض قد راقا
 وللنسيم اعتلال في أصائله
 كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
 والروض عن مائه الفضي مبسّم
 كما شقت عن اللبات أطواقا
 يوم كأيام لذات لنا انصرفت
 بشا لها حين نام الدهر سراقا
 نلهو بما يستميل العين من زهر
 جال الندى فيه حتى مال أعناقا
 كأن أعينه إذ عاينت أرقى
 بكت لما بي فجال الدمع رواقا
 ورد تالق في ضاحي منابته
 فازداد منه الضحى في العين إشراقا
 سرى ينافحه نيلوفر عبق
 وسنان نبه منه الصبح أحداقا
 كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
 إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
 لا سكن الله قلباً عن ذكركم
 فلم يطير بجناح الشوق خفاقا
 لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى
 وأفاكم بفتى أضناه ما لاق
 لو كان وفي المني في جمعنا بكم
 لكان من أكرم الأيام أخلاقا

كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ مِنْ زَمَنِ
مَيْدَانِ أَنْسِ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا
فَالآنَ أَحْمَدَ مَا كُنَّا (لِعَهْدِكُمْ)
سَلَوْتُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَّاقًا

— ٢ —

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون، وإنما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التي نفحنها بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء في جميع البلاد العربية، وهي في الشعر العربي تذكر بليالي موسيه في الشعر الفرنسي، فكما أن الفرنسيين جميعاً يعرفون ليالي موسيه، فالعرب يعرفون جميعاً نونية ابن زيدون، فإن كان في القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجهل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول : إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب ؟ والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب، هي في ذاتها متعة ذوقية لا يَصْدِفُ عنها إلا الغافلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء^(١) :

أُضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحْنَا حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمُلْبِسِينَا بِأَنْتِزَاجِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَيْلَى وَيُيْلِينَا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله. إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي، فانها مختلفة الأغراض، وستكشف الموازنة عن تنقل شوقي من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك.

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا
غَيْظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بَانْفُسِنَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا

أَنْسَا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
بِأَنَّ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْضُوعًا بِأَيْدِينَا
فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

يَالَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِيكُمْ
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ
كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّبُنَا عَوَارِضُهُ
بِشْمٍ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا
نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَتْ
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلَّفُنَا
وَإِذْ هَضَبْنَا فُنُونِ الْوَصْلِ دَانِيَةً
لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا نَائِيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَرْوَاحَنَا بَدَلًا
يَا سَارِي الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِ بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا
وَيَانَسِيْمَ الصَّبَا بَلَّغْ تَحِيَّتِنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً

هَلْ نَالَ حَظًّا مِنْ الْعُثْبَى أَعَادِينَا
رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
بِنَا وَلَا أَنْ تَسْرُوا كَاشِحًا فِينَا
وَقَدْ يَسِّنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
سُودَا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لِيَالِينَا
وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
قَطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا
إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيٌّ كَانَ يُحْيِينَا
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبَا تَقَاضِينَا

رَبِّبُ مُلِكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرَقًا مَحْضًا وَتَوَجَّهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا فِي أَكْلَتِهِ

مِسْكًَا وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
مِنْ نَاصِعِ الثَّبَرِ إِبداعًا وَتَحْسِينَا
تَوْمَ الْعُقُودِ وَأَدَمَّتُهُ الْبَرَى لِينَا
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
مَاضِرٌّ أَن لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا
زُهْرُ الْكَوَائِبِ تَعْوِيدًا وَتَرْيِينًا
وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظُنَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّتْنَا بِزَهْرَتِهَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ
لَسْنَا نُسَمِّيكُ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً
إِذَا انْفَرَدَتْ وَمَا شُورِكْتِ فِي صِفَةٍ
وَرَدًا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا
مُنَى ضُرُوبًا وَلَذَاتٍ أَفَانِينَا
فِي وَشْيٍ نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
فَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
فَحَسْبُنَا الْوُصْفُ إِضْحَاحًا وَتَبِينَا

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدَلْنَا بِسَلْسِلِهَا
كَأَنَّمَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا
لَا غَرُوفِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ
أَنَا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا
أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجِفْ أَفَقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ
وَلَا آخِثَارًا تَجَبَّنَاهُ عَنْ كَثَبِ
نَاسِي عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مُشْعَشَعَةٌ
لَا أَكُوسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً
فَمَا اسْتَعْضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَوْ صَبَا نَحُونًا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ
أَبْلِي وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْدُلِي صِلَةً
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ

تلكم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون.
ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسناء

هيهات فلن يمكن أن يكون مثله هوىً واحد، وكيف وهو رجل طامح القلب،
مُرْهَف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسنة، ولو أنه دون جميع
مطاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات :
وَدَّعَ الصَّبْرَ مُجِبُّ وَدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَى إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَاءً رَجِمَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

البحث الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

— ١ —

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب، ويكاد يعرف أسرار النفوس، فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب، ونخشى أن يتحيف حُقوق من عرضنا لهم من الشعراء، ولكن كيف نستكثر القول في شوقي، وقد ندّ ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب، وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضجّ لها شعراء مصر وأجابه إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم المصري، ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجري في ميدانه، ولم يُؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان، وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبّها ما وشيت به من الزخرف، ولكن أين هي من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين في وادي الطلح بضاحية اشبيلية؟ لقد تمثل الطائر شبيهاً به في لوعته وجواه فاندفع يقول:

يَا نَائِحَ الطَّلَحِ أَشْبَاهَ عَوَادِينَا
مَاذَا نَقُصُّ عَلَيْكَ غَيْرَ أَنَّ يَدَا
رَمَى بِنَا الْبَيْنُ أَيْكَأَ غَيْرَ سَامِرِنَا
كُلُّ رَمْتِهِ النَّوَى، رِيَشَ الْفِرَاقِ لَنَا
إِذَا دَعَا الشُّوقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ
فَإِنْ يَكُ الْجِنْسُ يَا أَبْنَ الطَّلَحِ فَرَّقَنَا
لَمْ تَأُلْ مَاءَكَ تَحَنُّنًا وَلَا ظَمًا
تَجُرُّ مِنْ فَنَنْ ذِيلاً إِلَى فَنَنْ
أَسَاةَ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ

والشاعر في هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر في حالين : حال المغترب
وحال المقيم، فما تدري أيكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف، ومع
حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال :
تَجُرُّ مِنْ فَنَنْ ذِيلاً إِلَى فَنَنْ وتسحب الذيل ترتاد المواسينا

وهي حال نشهدها في الطائر الحزون، فقد نرى الطائر يتنقل على غير
هُدًى من أَيْكَ إلى أَيْكَ، فنعرف أنه يبحث عن يواسيه، ولكن أين من
يواسي الطائر الحزين ؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال :
أَسَاةَ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالْطُّطْسِ الْمُدَاوِينَا
فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما يجد من يذبحه ويشويه، والناس
الأم من أن يَطْبُوا لطائر جريح !

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبته حبيته
فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقي فقد انتقل من
خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال :

وَاهَا لَنَا نَارِحِي أَيْكَ بِأَنْدَلُسٍ وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفاً مِنْ رَوَائِينَا
رَسْمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ نَجِيشٌ بِالْذَّمِّعِ وَالْإِجْلَالِ يَثْنِينَا

لِفِتْيَةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضَ أَذْمَعُهُمْ وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مَصْلِينَا
لَوْلَمْ يَسُودُوا بِدِينٍ فِيهِ مَنبَهَةٌ لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
لَمْ نَسِرْ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ كَالْخَمْرِ مِنْ بَابِلٍ سَارَتْ لِدَارِينَا
لَمَّا نَبَا الْخُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نُسَخَتُهُ تَمَائِلَ الْوَرْدِ خَيْرِيًّا وَنَسْرِينَا
نَسْقِي ثَرَاهُمْ ثَنَاءً كُلَّمَا نُثِرَتْ دُمُوعُنَا نُظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
كَادَتْ عُيُونُ قَوَائِنَا تُحَرِّكُهُ وَكَدَنَ يُوقِظُنَ فِي التُّرْبِ السَّلَاطِينَا

وللقارىء أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات، فالشاعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء، لأنه في ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية، فهو في الأندلس لا يسري من حرم إلا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين! وقدسية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل :
لَكِنَّ مِصْرَ وَإِنْ أُغْضِتْ عَلَى مِقَّةٍ عَيْنٌ مِنَ الْخُلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَائِمُنَا وَحَوْلَ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَيَّ وَسَلَمَى لَوْ يَصُوبُ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِي تُرَابُهَا

والبكر هو قول شوقي :

مَلَاعِبٌ مَرَحَتْ فِيهَا مَارِبُنَا وَأَرْبَعٌ أُنِسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا

وإنما كان هذا معنى بكرة لما فيه من طرافة الخيال، أرايتم كيف تمرح المآرب، وكيف تأنس الأمانى؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١، وكان دعائي للغداء عنده بالمطرية

مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي، وسعيد عبده، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر، وسألت نفسي : كيف كان ذلك الملاك في صباه ! إن حنين شوقي إلى مصر حنينٌ عميق، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون، ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمخةً بالسحر والفتون، وكان للجمال قدسيّة، وكان للصبا سلطان، وكانت خطوب الزمن لا تهدّ النفوس كما تفعل في هذه الأيام.

ومن البكر أيضاً قول شوقي :

بَنَّا فَلَمْ نَخْلُ مِنْ رَوْحِ يُرَاوِحُنَا مِنْ بَرِّ مِصْرَ وَرِيحَانِ يُعَادِينَا
كَأَمْ مُوسَى عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفُلُنَا وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تُلُقِينَا

يريد أن يقول : إن مصر لم تلقه في يَمِّ النَّفْيِ إلا خوفاً عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول !

— ٢ —

تذكرون قول ابن زيدون :

يَا سَارِي الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنِّي تَذَكُّرُنَا إِنْهَا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا

وهذا شعر جميل، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال :

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَا قِينَا
لَمَّا تَرَقَّرَ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمَاءُ هَاجَ الْبُكَاءِ فَخَضَبْنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا
الَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِكْ دِيَارِيهِ عَلَى نِيَامٍ وَلَمْ نَهْتِفْ بِسَالِينَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلَّا عَلَى قَدَمِ قِيَامِ لَيْلِ الْهَوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
كَزَفَرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَائِرَةٍ مِمَّا نُرَدِّدُ فِيهِ جِئْنَ يَضُوبِنَا
بِاللَّهِ إِنْ جُبَّتْ ظُلُمَاءُ الْعُبابِ عَلَى نَجَائِبِ النُّورِ مَحْدُورًا (بِجَرِينَا)

تَرُدُّ عَنْكَ يَدَاهُ كُلَّ عَادِيَةٍ
حَتَّى حَوَتْكَ سَمَاءُ النَّيْلِ عَالِيَةٍ
وَأَحْرَزْتَكَ شُفُوفُ اللَّازُورِدِ عَلَى
وَحَاذِكَ الرَّيْفُ أَرْجَاءَ مُورِّجَةٍ
فَقِفْ إِلَى النَّيْلِ وَاهْتِفْ فِي خَمَائِلِهِ
وَأَسِرْ مَا بَاتَ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا
إِنْسَاءً يَعْنُنَ فَسَاداً أَوْ شَيَاطِينَا
عَلَى الْغُيُوثِ وَإِنْ كَانَتْ مَيَّامِينَا
وَشَيْءُ الزَّبْرِجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا
رَبَّتْ خَمَائِلَ وَاهْتَزَّتْ بَسَاتِينَا
وَأَنْزَلَ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيَّاحِينَا
بِالْحَادِثَاتِ وَيَضْوَى مِنْ مَعَانِينَا

انظروا. ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الداوية، والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض، وأعطى صورة من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعراً ودَّعَ دنياه حين ودَّعَ النيل.

وقال ابن زيدون :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيٌّ كَانَ يُحْيِينَا

عارضه شوقي فقال :

وَيَا مُعْطَرَةَ الْوَادِي سَرَتْ سَحْراً
ذَكِيَّةَ الذَّيْلِ لَوْ خِلْنَا غِلَالَتَهَا
جَشِمْتَ شَوْكَ السُّرَى حَتَّى أَتَيْتَ لَنَا
فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً
هَلْ مِنْ ذِيُولِكَ مِسْكِي نُحْمَلُهُ
إِلَى الَّذِينَ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرِهِمُو
فَطَابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِنْ مَرَامِينَا
قِمِصَ يَوْسُفَ لَمْ نُحَسِبْ مُغَالِينَا
بِالْوَرْدِ كُثْباً وَبِالرَّيَا عَنَّاوِينَا
عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا
غَرَائِبَ الشُّوقِ وَشَيْئاً مِنْ أَمَالِينَا
دُنْيَا وَوُدَّهُمُ الصَّافِي هُوَ الدِّينَا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يانسيم الصبا »، وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يفتن افتناناً يدل على قوة الشاعرية، وبراعة الخيال، فوصف السمة بأنها معطرة الوادي وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مَرَمَى سَحِيقٍ، وأنها ذكيَّة الذيل كأنها قميص يوسف، وأنها جشمت شوك

السرى حتى أتت بالورد مُجسماً في رسائل، وأتت بالرِّيا مُمثَّلةً في عناوين، وشكر لها النُّعمى فقال :

فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا

وابن زيدون يقول « بَلَّغْ تَحِيَّتَنَا » وهي عبارة جافية، لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق، ويقول :

هَلْ مِنْ ذُبُولِكَ مِسْكِي نُحْمَلُهُ غَرَائِبَ الشُّوقِ وَشَيْئاً مِنْ أَمَالِينَا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية، وشوقي يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو، في صفاء الدين.

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون، فقول شوقي :

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَا قِينَا

اخْتُلِسَ بَرْقِي وَحَذَقِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدُون :

بِئْسَ وَبِنَا فَمَا آتَلْتُ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفْتُ مَا قِينَا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتاً، وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون، فكان لا بد له من توشية بارعة تُعفى على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون. ولابن زيدون فضل السبق، ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية، وهو فضل ليس بالقليل.

— ٣ —

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال :

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ	سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضاً لَيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا	وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً	قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا	كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

وهذا شعر صافي الديباجة، رائع المعاني، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي
فجمع بين الأسي والفخر حين قال :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَفِ الرَّبَا رِفَةً^(١)
إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غِنَاءُ زَاهِيَةً
الْوَصْلُ صَافِيَةً وَالْعَيْشُ نَاقِيَةً
وَالشَّمْسُ تَخْتَالُ فِي الْعَقِيَانِ تَحْسَبُهَا
وَالنَّيْلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيَا إِذَا أَحْتَفَلَتْ
وَالسَّعْدُ لَوْ دَامَ وَالدُّنْيَا لَوْ أَطْرَدَتْ
أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى رَدَّهَا ذَهَبًا
أَعْدَاهُ مِنْ يَمِينِهِ (التَّابُوتُ) وَآرْتَسَمَتْ
لَهُ مَبَالِغُ مَا فِي الْخُلُقِ مِنْ كَرَمٍ
لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرْسٌ
وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أَعْيُنِهِ
نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود، لأن ابن
زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال :
وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونِ الْأُنْسِ دَانِيَةً قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
وبلغ غاية الدقة حين قال :

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَأَلَّفِنَا وَمَوْرِدُ اللّٰهِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا
بفضل التألف، تألف القلبين، واللّهو لم يصف موره إلا بفضل التصافي تصافي

(١) الرقة : النضرة.

(٢) الإعذار : طعام يتخذ لأيام السرور.

الحبيبين، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء، وإنما تصفو حين تصفو النفوس، وتقسو حين تقسو القلوب، فالزهر الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك، وإنما تراه يخلصك بالرفق لأن الدنيا صَفَتْ لك، وقد يراه غيرك في ابتسامة صورة من صور العبوس، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة فتراه عاشقاً يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مَرِح وحسن طروب، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب.

ويروقنا قول شوقي :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَفِ الرُّبَا رِفَةً أَنِّي ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بَنَا غَيْنَاءُ زَاهِيَةً تَرِفٌ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رِيَّاحِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ، وَالْعَيْشُ نَاقِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ، وَالذَّهْرُ مَاشِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا

يروقنا هذا الشعر، لأن الشاعر جعل عهده في نظرة الزهر الذي يتفتح في أكناف الربوات، ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيهاً باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبا جوهرٌ نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعرٌ أمكنته من أعطاف الصبا سَوْرَةُ الصَّبَوَاتِ، ويروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

« تَرِفٌ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رِيَّاحِينَا »

ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أَرْجُوْحَةِ اللّهُو الجَمُوح.

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك :

« لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا »

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شيء حين قال :

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجْنْتُ لَوَاحِظَنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتِ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشِي نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة في الهاتف بالروضة التي « طَالَمَا أُجْنْتُ وَرَدّاً جَلَاهُ الصَّبَا » تأملوا عبارة « أُجْنْتُ لَوَاحِظْنَا » وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان، وكيف يجني القطوف. وعبارة « جَلَاهُ الصَّبَا » ما رأيكم فيما تحويه من سحرٍ أخاذٍ ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف :

« مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتِ أَفَانِينَا »

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوانٌ وللذاتِ أفانين ؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرةً في كوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت :

وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشِي نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
أُتَحَسُّونَ قُوَّةَ هَذَا الْمَعْنَى ؟ أَلَا يُرِيكُمْ الْخِيَالُ صُورَةَ فَتَى مُنْعَمٍ يَسْحَبُ ذَيْلَ النِّعَمِ ؟ إِنَّ ابْنَ زَيْدُونَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَقْوَى مِنْ شَوْقِي فِي الْحَسْرِ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ دُنْيَا الْهَوَى الْمَفْقُودِ.

— ٤ —

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين، أما ابن زيدون فيقول :

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسَلْسَلِهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقُومًا وَغَسْلِينَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالْدَّهْرُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
لَا غَرَوْا أَنَا ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرِبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا
لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاكَ عَنْ كَثْبِ لَكِنْ عَدْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ويرى ورد الهوى القديم شرباً لا يعدله شرب، وإن كان يرويه فيظميه. ونعيم الوصل يُرهف الحس فيزيد القلب ظمًا إلى ظمًا والتياغاً إلى التياغ. وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود، وإنما أكرهته العوادي.

ويروقنا هذا التعبير المونق :
« لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ ».

فكان الدنيا لعهد أفقاً من المفاتن، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بأنداء الفتون.

هذا جَزَعٌ من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون، وعارضه شوقي يصف قسوة الليل وقسوة الفراق :

وَنَابِغِي كَانَ الْحَشِرَ آخِرُهُ تُمِيتُنَا فِيهِ ذِكْرَاكُمْ وَتُحِينَا
نَطْوِي دُجَاهَ بَجْرَحٍ مِنْ فِرَاقِكُمْ يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأُسْحَارِ يَطْوِينَا
إِذَا رَسَا النُّجْمُ لَمْ تَرُقَا مَحَاجِرُنَا حَتَّى يَزُولَ وَلَمْ تَهْدَا تَرَاقِينَا
بَنَّا نُقَاسِي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ حَتَّى قَعَدْنَا بِهَا حُسْرَى تَقَاسِينَا
يَبْدُو النَّهَارُ فَيُخْفِيهِ تَجَلُّدُنَا لِلشَّامِتِينَ وَيَأْسُوهُ تَأْسِينَا

وهذا من الشعر الرفيع، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف، وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت :

نَطْوِي دُجَاهَ بَجْرَحٍ مِنْ فِرَاقِكُمْ يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأُسْحَارِ يَطْوِينَا
أَترون كيف يطوى الدجى بالجرح ؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل ؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطف الكواكب، ثم ينظر فيراها
ابْتُلِيَتْ به فباتت تقاسيه، وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يَعْظُمُ سلطانه على
الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من الشواغل،
أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهائياً إلا بفضل التأسي والتجلد للشامتين.

— ٥ —

بقي النظر فيما تفرد به الشاعران.

ونحن نرى ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيته التي أقصاه عنها
الزمان :

نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مُشْعَشَعَةً فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا
لَا أَكُوسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا سِيمَا ارْتِيَاكِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

وهذا من أدق المعاني النفسية، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية،
ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر
المشبوب، وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع؟ إن هذه
لحظات تكشف المُقَنَّعَ من سرائر النفوس، وتصنع ما تصنع الحمى العاتية حين
تنطق المحموم بأسماء لم يهد بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون :

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُضِيِينَا

هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية :

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

وهو أخذ رَفِيقاً لا يُحَاسِبُ على مثله الشعراء.

وتفرد شوقي بالفخر، الفخر بنفسه وبأعجاد النيل، فقال :

لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرْسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لَيَالِينَا

وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أَعْتَبِهِ
نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاصَ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيدَانًا وَلَا صَعِدَتْ
أَلَمْ تُؤَلِّهِ عَلَى حَافَاتِهِ وَرَأَتْ
إِنْ غَاظَلَتْ شَاطِئِيهِ فِي الضُّحَى لَيْسَا
وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجِرِ الْوَادِ مِنْ شَجَرٍ
مَنَا جِيَادًا وَلَا أَرْخَى مَيَادِينَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا
إِذَا تَلَوْنَ كَالْجِرْبَاءِ شَانِينَا
فِي مُلْكِهَا الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وَادِينَا
عَلَيْهِ أُنْبَاءُهَا الْغُرِّ الْمَيَامِينَا
نَحْمَائِلِ السُّنْدُسِ الْمَوْشِيَّةِ الْغِينَا^(١)
لَوَافِظَ الْقُرْ بِالْخِطَّانِ تَرْمِينَا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف!

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال:

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاصَ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا

وقد صدق، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال، وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب هدمه، وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرّد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال:

وَهَذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ
كَأَنَّ أَهْرَامَ مَضْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ
إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ غُلْيَا مَقَاصِرِهِ
كَأَنَّهَا وَرِمَالًا حَوْلَهَا التَّطَلَّمَتْ
كَأَنَّهَا تَحْتَ لَأْلَاءِ الضُّحَى ذَهَبًا
قَبْلَ الْقِيَاصِرِ دِنَاهَا فَرَاعِينَا
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بُنْيَانُ بَانِينَا
يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِي الْأَوَاوِينَا^(٢)
سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أُسَاطِينَا
كُنُوزُ فِرْعَوْنَ غَطَّيْنِ الْمَوَازِينَا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت:

(١) الغين: جمع أغين، وهو الأخضر، والمؤنث غينا.

(٢) الأواوين: جمع إيوان.

وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت :
كَأَنَّ أَهْرَامَ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بُنْيَانَ بَانِينَا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت :
كَأَنَّهَا وَرِمَالاً حَوْلَهَا التَّطَلَّطَتْ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا

ذلك شوقي، وتلك آياته البيئات

— ٦ —

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني، وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور الإنسانية، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية، أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل، وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات :

رَيْبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وَتَوَجَّهَهُ مِنْ نَاصِعِ الثَّبَرِ إِبْدَاعاً وَتَحْسِينَا
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً تَوْمُ الْعُقُودِ وَآدَتُهُ الْبُرَى لِينَا
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا فِي أَكْلِيَّتِهِ بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ زُهْرُ الْكَوَائِبِ تَعْوِيداً وَتَزْيِينَا
مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثِينَا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصبابة. وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم، والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف، ولكل لون من ألوان الجمال وحي خاص. وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال

المُحَجَّبُ شَبِيهَاً بِمَا يُوحِيهِ الْجَمَالُ الْمُبَاحُ ؟ إِنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ يَدُو لَهَا أَحْيَاناً أَنْ تُكَادِ
النَّاسَ فَتُنْشِئَ مِنَ الْحَسَنِ فِي حَيِّ بُولَاقٍ مَا تَغِيظُ بِهِ النَّاعِمِينَ فِي حَيِّ الْقَصْرِ
الْعَالِيِّ^(١). وَلَكِنَّهَا لَا تَفْلَحُ، فَالْجَمَالُ الَّذِي يَنْبَتُ فِي الْبَيْتَاتِ السُّوقِيَّةِ يَظِلُّ
سُوقِيَّ الشَّمَائِلِ وَالنَّوَازِعِ، أَمَّا الْجَمَالُ الَّذِي يَتَفَتَحُ فِي الْبَيْتَاتِ الْمُنْعَمَةِ فَيَظِلُّ
مَلْحُوظَ الْمَشَارِبِ وَالْمِيُولِ.

فَمَعْشُوقَةُ ابْنِ زَيْدُونَ رَبِيبَةٌ مُلْكٌ، وَرَبِيبَةُ الْمَلِكِ تَأْلَفُ السَّيْطَرَةَ مِنْذُ أَيَّامِ الْمَهْدِ،
وَيَظِلُّ دَلَالُهَا طَوْلَ الْحَيَاةِ دَلَالاً سَمَاوِيّاً يَأْخُذُ فَيْضَهُ مِنْ قُوَّةِ الطَّبْعِ، لَا مِنْ لَوْثِ
الْتِمَاعِ، وَيَنْزِلُ رِضَاهَا عَلَى الْقَلْبِ نَزْلَ الطَّلِّ عَلَى الرِّيحَانِ. وَابْنُ زَيْدُونَ يَتِمَثَّلُ مَحْبُوبَتِهِ
خُلُقَتْ مِنَ الْمَسْكِ، وَيَرَى النَّاسَ مَا عَدَاهَا خُلُقُوا مِنْ طِينٍ، وَكَلِمَةُ (طِين) وَقَعَتْ
قَبِيحَةً فِي شَعْرِ ابْنِ زَيْدُونَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ الْإِشَارَةَ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ، وَالْمَرْءُ
حِينَ يَغْضَبُ يَرَى النَّاسَ خُلُقُوا مِنْ طِينٍ، وَإِنْ كَانَ الطِّينُ أَشْرَفَ مِنْ بَعْضِ مَنْ
نَرَى مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالطِّينُ تُرْبَةٌ يَحْيَا بِهَا الزَّهْرُ وَيَتَغَذَّى مِنْهَا الشُّوكُ، وَفَوْقَهُ تَتَخَطَّرُ
الْظُبَاءُ، وَعَلَيْهِ تَرْحَفُ الْأَفَاعِي وَالصُّلَالُ.

وَبَلَغَ ابْنُ زَيْدُونَ نَهَايَةَ التَّرَفِّقِ حِينَ قَالَ :
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةٌ تَوْمُ الْعُقُودِ وَأُدْمَتُهُ الْبُرَى لَنَا
وَالْجَمَالُ الَّذِي تُؤْذِيهِ الْعُقُودُ وَالْدِمَاجُ وَالْأَسَاوِرُ وَالْخَلَاحِيلُ جَمَالٌ غَضُّ رَقِيقٍ
يَشْبَهُ فِي رَقَّتِهِ نَوَاطِرَ الْعَيُونِ، وَلِفَائِفِ الْقُلُوبِ، وَهَذَا الْجَمَالُ مَنْثُورٌ فِي الْمَدَائِنِ نَثْرَ
الزَّهْرِ وَاللُّؤْلُؤِ، وَلَوْلَا وَجُودُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَا عَرَفَ شَاعِرُ قِيَمَةِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ،
نِعْمَةُ الْبَصَرِ وَالْحَسِّ وَالذَّوْقِ، لَوْلَا الْجَمَالُ الْمُنْعَمُ الْمَصُونُ الَّذِي لَا يَطْمَعُ فِي تَفْيُؤٍ
ظِلَالَهُ غَيْبٍ وَلَا لَيْمٍ لِأَقْفَرَتِ الدُّنْيَا مِنَ الشَّعْرِ وَخَلَّتْ مِنَ الْأَنْفَاسِ الْعَطْرَةَ أَنْفَاسُ
الشُّعْرَاءِ، لَوْلَا الْجَمَالُ الْمُنْعَمُ الْمَصُونُ الَّذِي لَا يَطْمَعُ فِي تَفْيُؤٍ ظِلَالَهُ غَيْبٍ وَلَا لَيْمٍ
لَمَا اسْتَطَابَ شَاعِرٌ سَهَرَ اللَّيْلِ، وَأَلَمَ الْجَفُونِ، وَهَلْ يُعْنَى الْقَلْبُ فِي سَبِيلِ الْجَمَالِ
الْمُبْتَدَلِ الَّذِي تَرْنُو إِلَيْهِ جَمِيعُ الْعَيُونِ ؟ إِنَّ الْجَمَالُ الْمُبْتَدَلُ شَبِيهُ بِالْكُوكَبِ الْمَتَهَالِكِ

(١) الْقَصْرُ الْعَالِي : حَيِّ بِالْقَاهِرَةِ يَشَارِفُ النَّيْلَ، وَيُسَمِّيهِ السَّخْفَاءُ « جَارْدَن سَتِي ».

الذي لا تألم من النظر إليه عَيْنٌ رَمْدَاءُ، أما الجمال المنعم المصون فشبيهة بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء، والأقطاب من الكتّاب، هو الجمال الفرد، ولا يضاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول :
 ما ضَرٌّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا
 هذا تواضع، فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفَس من جوهر الحسن في وجه الجميل، وهل تُعْرَبُ معاني الصباحة في الوجه المليح كما تُعْرَبُ عرائس الشعر في قلب الشاعر الذي يلقي الأنوار والظلمات وحوله جَيْشٌ من الهوى المتمرد والوجد المشبوب ؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ جمال الصبح المشرق، ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم، ولا تلفت باحث إلى شعر ابن زيدون، وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

— ٧ —

ثم ماذا ؟ بقي أن نَشْرَبَ صُبابَةَ الكأس من نونية شوقي، وكل صبابة في الكأس صاب، بقي أن نَتَوَجَّعَ لبلواه وهو يتشوّق إلى مصر فيقول :

أَرْضُ الْأُبُوَّةِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبَهَا مَرُّ الصَّبَا فِي ذُيُولِ مَنْ تَصَابِينَا
 كَانَتْ مُحَجَّلَةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا غُرًّا مُسْلَسَلَةَ الْمَجْرَى قَوَافِينَا
 فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لِأَعْيُنَا وَثَابَ مِنْ سِنَّةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا
 وَلَمْ نَدْعُ لِلْيَالِي صَافِيًا فَدَعَتْ (بِأَنْ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا)
 لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الْجَوْ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى وَالْبَحْرَ غَسْلِينَا
 سَعِيًّا إِلَى مِصْرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرِنَا فِيهَا إِذَا نَسِيَ الْوَافِي وَبَاكِينَا

أرأيتم هذا الشعر ؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت :

فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لِأَعْيُنَا وَثَابَ مِنْ سِنَّةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا

أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت :

لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الْجَوَّ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارَ وَغَىِّ وَالْبَحْرَ غَسِيلِينَ

ثم ماذا ؟ بقي ختام القصيدة، وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمي يرحمها الله، وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان :

كَتَزَّ بِحُلُوانَ عِنْدَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّينَا
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيَّبَتْنَا لَمْ يَأْتِهِ الشُّوقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
إِذَا حَمَلْنَا لِمَصْرَ أَوْ لَهُ شَجْنَا لَمْ نَذِرْ أَيَّ هَوَى الْأُمِّينِ شَاجِينَا

طيب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والديَّ والديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

البحث السادس والثلاثون

معارضات أبي نواس

نعقد هذا الفصل للنظر في معارضات أبي نواس، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه، وما أبدع الشعراء من بعد في معارضة قصائده المشهورات، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء.

ومن الكلام الجيد في تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكي أبو شادي في الجزء الثاني من مجلة (أدبي) :

« ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء، بل هو محض صناعة، والشعر قبل كل شيء عاطفة فكرية عميقة الجذور، لا بهرج سطحي زائف، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة، فأثار ذلك نفسه الشاعرة، مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين، ومعارضة كيتس لسبنسر، وقد كانت تلك المعارضة أول تجربة شعرية لكيتس، فإن تلك المعارضات هي نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة، وأثر وحيها في النفس ».

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لا يتصنع القول حين يعارض شاعراً، وإنما تتفجر المعاني من نبع القلب، وذا كلام عرفنا صحته حين وازنا بين المعارضات،

فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبداً لمن يعارضه، وإن تأثر خطواته في الوزن والقافية والموضوع، والمعارضة في صميمها هي تلاقي روحين، وائتلاف قلبين، أو اصطدام نفسيين، واقتتال عبقريتين.

فمن المعارضات التي وقعت بائتلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبي نواس والحرّاز، فإن أبا نواس لما قال :

يَا رِيمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا	أَكْتُبْ شَوْقِي إِلَى الَّذِي ظَلَمَا
مَنْ صَارَ لَا يَعْرِفُ الْوِصَالَ وَقَدْ	زَادَ فُؤَادِي فِي حُبِّهِ وَنَمَا
غَضَبَانِ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ	يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا
فَلَيْسَ يَنْفَكُ مِنْهُ عَاشِقُهُ	فِي جَمْعِ عُذْرِ مَنْ غَيْرِ مَا آجَتَرَمَا
لَوْ نَظَرْتُ عَيْنَهُ إِلَى حَجَرٍ	وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا
أَظَلَّ يَقْظَانٍ فِي تَذْكُرِهِ	حَتَّى إِذَا نِمْتُ كَانَ لِي حُلَمَا

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الحرّاز، فقال :

إِنْ بَاخَ قَلْبِي فَطَالَمَا كَتَمَا	مَا بَاخَ حَتَّى جَفَاهُ مَنْ ظَلَمَا
وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الْجَفَاءِ فَتَى	قَدْ مَاتَ أَوْ كَادَ أَوْ أَرَاهُ وَمَا
أَشْكُ أَنْ الْهَوَى سَيَقْتُلُنِي	مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا يُرِيقُ دَمَا
كَيْفَ أَحْتَيَالِي لِشَادِنِ غِنَجٍ	أَصْبَحَ بَعْدَ الْوِصَالِ قَدْ صَرَمَا
مَا قُلْتُ لَمَّا عَلَا الصُّدُودُ بِهِ	يَا رِيمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا
لَكِنْ سَفَحْتُ الدُّمُوعَ مِنْ حَزَنِ	لَمَّا تَمَادَى الصُّدُودُ ثُمَّ نَمَا
إِنَّ الرَّسُولَ الَّذِي أَتَاكَ بِمَا	أَتَاكَ عَنِّي قَدْ حَرَفَ الْكَلَمَا

وأبيات أبي نواس من الشعر الكريم، وهي من الملمع الممتنع، وفيها ومضات من السحر المبين، وأي غزل أرق وأظرف من هذا البيت الذي يعد من أدق ما قيل في تلون الملاح :

غَضَبَانِ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا

وقوله في فتك العيون :

لَوْ نَظَرْتُ عَيْنَهُ إِلَى حَجَرٍ وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا

وقوله في أخذ الهوى بأحلام الحب :

أَظْلُ يَقْظَانِ فِي تَذْكُرِهِ حَتَّى إِذَا نِمْتُ كَانَ لِي حُلْمًا

أما أبيات الخراز فهي من الشعر المقبول، وليست من الشعر الجيد، وقد ربط فيها بعض المعاني ببعض على طريقة لم تألفها الأذواق العربية، ولولا أنها قيلت في معارضة أبي نواس لما نقلها راوية، ولا حفظها كتاب.

ومن المعارضة التي جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس وبين العباس ابن الأحنف، وكان بين هذين الشاعرين مودة قوية أساسها تبادل الثقة والإعجاب. والحق أن أبا نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة، فقد جمع بينهما الغزل والظرف، وصفاء الروح، بالرغم من اختلاف المذهبين، فقد كان أبو نواس متلونا في الحب ينتقل من فن إلى فن، على حين كان ابن الأحنف قد وقف قلبه على هوى واحد، هو محبوبته « فوز » التي خلده اسمها على الزمان.

حدث حمزة الأصفهاني قال : اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف في مجلس فقام عباس لحاجة، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال : هو أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد عباس وقام أبو نواس كذلك فسئل عنه عباس، وعن رأيه فيه وفي شعره، فقال : إنه لأقر للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس. فلما صارا إلى النبيذ أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه، فقال أبو نواس :

إِذَا ارْتَدَّتْ فَتَى الْكَاسِ فَلَا تَعْدِلْ بِعَبَّاسِ

فقال العباس :

إِذَا نَارَعَتْ صَفْوَ الْكَاسِ يَوْمًا أَخَا ثِقَةٍ فَمِثْلَ أَبِي نَوَاسِ
فَتَى يَشْتَدُّ حَبْلُ الْوُدِّ مِنْهُ إِذَا مَا خُلَّةٌ رَثَّتْ لِنَاسِ

فتناول أبو نواس قدحا وقال :

أَبَا الْفَضْلِ أَشْرَبَنْ ذَا الْكَاسِ سَ إِنِّي شَارِبٌ كَاسِي

فقال العباس :

نَعَمْ يَا أُوحَدَ النَّاسِ عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ حَفَّ لَنَا الْمَجْلُ سُبُحًا بِالنَّسْرِ وَالْأَسِ

فقال العباس :

وَإِنْ بَهَائِلِ سَرَاةِ سَادَةِ النَّاسِ

فقال أبو نواس :

وَحَوْدٍ لَذَّةِ الْمَسْمُوعِ عِمْشٍ مِثْلِ الْغُصْنِ الْكَاسِي

فقال العباس :

وَقَدْ أَبْسَهَا الرَّحْمُ بْنُ مِنْ أَحْسَنِ الْبَاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ زِينَتْ بِإِكْلِيلِ يَوَاقِيتٍ عَلَى الرَّاسِ

فقال العباس :

فَلَا تَحْبِسْ أَخِي كَأْساً فَإِنِّي غَيْرُ حَبَّاسِ

قال الأصفهاني : فكان مانسي من معارضتهما أكثر مما حفظ.

ويذكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبري، وخليل مطران، فقد مشى يوماً صبري باشا بأحد شوارع القاهرة، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق، فقال صبري باشا : يا مطران، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس، فابتدره مطران، وقال :

وَهَلْ يَضِيرُ الْمَجْدَ أَنْ أَشْرَبَا وَأَجْعَلَ الْحَانَةَ لِي مَلْعَبَا

فطرب صبري باشا، وقال :

وَأَنْ يَرَانِي كُلُّ مَنْ مَرَّ بِي وَسَطَ الدِّيَاجِي حَامِلاً كَوْكَبَا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة، فقال : كان يقع لنا من ذلك شيء كثير، أما أنتم يا شعراء هذا العصر،

فقد بددت الشواغل أحلامكم، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب.. وقد صدق مطران !

واتفق يوماً أن لقي مسلم بن الوليد رسولاً لأبي نواس يحمل رقعة إلى عنان، وفيها هذه الأبيات :

لَا تَأْمِنَنَّ عَلَى سِرِّي وَسِرِّكُمْ
أَوْ طَيْرَ فَيْرُودَجٍ^(١) إِنِّي سَابَعُهُ
وَكَانَ هَمَّ سُلَيْمَانَ لِيَذْبَحَهُ
غَيْرِي وَغَيْرِكَ أُوطِي الْقَرَّاطِيسِ
قَدْ كَانَ صَاحِبَ تَأْلِيفٍ وَتَدْثِيسِ
لَوْلَا قِيَادَتُهُ فِي أَمْرِ بَلْقِيسِ

فأخذ مسلم الرقعة من الرسول وخرقها فانصرف الرسول إلى أبي نواس فأخبره بما صنع مسلم برقعته، فقال أبو نواس :

لَمْ يَقَوْ عِنْدِي عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
إِنَّ الْقَرَّاطِيسَ فِي قَلْبِي بِمَنْزِلَةٍ
لَوْلَا الْقَرَّاطِيسُ مَاتَ الْعَاشِقُونَ مَعًا
فَلَيْتَ أَنَّ إِمَامَ النَّاسِ سَلَّطَنِي
حَتَّى أَصْبَحَهُ مِنْ حَيْثُ مَا مَنَّهُ
مَا أَعْجَبَ الْخَارِقَ الْقِرْطَاسَ أَقْرَأَهُ
مَاذَا عَلَيْكَ إِذَا أُحْبِبْتَ كَاتِبَهُ
أَلَيْسَ قَدْ مَشَقَّتْ فِيهِ أَنَامِلُهُ
إِلَّا فَتَى قَلْبُهُ مِنْ صَخْرَةٍ قَاسِي
كَمَوْضِعِ السَّمْعِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
هَذَا بَعْمٌ وَهَذَاكُمْ يَوْسُوسِ
فَلَمْ أَدْعُ خَارِقًا فِيهِمْ لِقِرْطَاسِ
كَأَسَاءَ مِنَ الْمَوْتِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ حَاسِي
يَأْسًا فَحَرَّقَهُ مِنْ حَيْرَةِ الْيَاسِ
مَا كَانَ فِي بَطْنِهِ يَا أَحْمَقَ النَّاسِ
وَجَازَ أَقْلَامُهُ فِيهَا بِأَنْفَاسِ

وبلغت هذه الأبيات مسلماً فعارضه فقال :

يَا مَنْ يُلُومُ عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِ
الْحَزْمِ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ
فَشُقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهَوَّى صَيَانَتُهُ
إِذَا أَتَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتُهُ
وَشُقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهَوَّى وَكُنْ فَطِنًا
كَمْ مَرَّ مِثْلُكَ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَاسِي
وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
فَرُبَّ مُفْتَضِّحٍ فِي خَطِّ قِرْطَاسِ
فَاجْعَلْ كَرَامَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ
كَمْ ضَيَّعَ السِّرُّ فِي حِفْظِ لِقِرْطَاسِ

(١) هو الهدهد بالفارسية.

فأجابه أبو نواس :
مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
هَلْ كَانَ عِنْدَكَ فِي الْقِرْطَاسِ مِنْ بَاسٍ
سَبَّيْتُ كَاتِبَهُ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ
هَلْ كَانَ فِيهِ سِوَى شَكْوَى إِلَى نَاسِي
كَتَبْتُ أَشْكُو بِلِيَّاتِي فَسَاءَ كُفُو
مَا يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى النَّاسِ

وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالي الذهن من ألوان الحياة لذلك العهد، ولكن الذين سايروا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة الرسائل الغرامية كانت يوماً من المشكلات، حتى صح لمثل أبي محمد بن حزم أن يعقد لها فصلاً في طوق الحماسة، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما اهتم بها ذلك الإمام الجليل.

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس في هذا العصر، فأهل هذا الزمن يتصنعون الوقار، ويتكلفون الاحتشام، وتبدو منهم بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم في صميمها ملوثة بعيب أشنع من المجون، وهو الرياء.

ولكن مهلاً. من الذي يحكم بأن من العبث أن يكون للرسائل الغرامية أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد؟ ألسنا نرى في أيامنا هذه كيف تقدم الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أقوى الأسانيد، وتثبت بها حقوق تصل أحياناً إلى المواريث؟

إن النفس الإنسانية ستظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر في حيات الناس، وأكثر من ترون من العظماء هم أطفال في عالم الحب، وقد تكون تلك الطفولة هي أساس العظمة عند من يفقهون.

ألم تر كيف كان فيكتور هوجو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل من أسرار
القلوب ؟

ألم تر كيف كان جوته يتكلف الحب ليعرف المستور من خلائق النساء ؟
ليس العلم كل العلم أن ترعى في بيتك طائفة من الحشرات لتعرف كيف
تصح، وكيف تمرض، وكيف تحس، وكيف تعقل، وكيف تحيا، وكيف
تموت. ليس هذا كل العلم، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت في سبيله أموال،
وأنشئت من أجله معاهد وكليات. للعلم ميادين أعلى وأشرف، هي ميادين
السرائر والقلوب، وهي ميادين لا يعرفها غير الشعراء.

البحث السابع والثلاثون

بين أبي نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبي نواس أن يسيطر على أهل عصره، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء، وإنما برع في هذا الفن لأنه نشأ في العراق، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب، استطاع أن يكون ملتقى الروحين العظميين : روح العرب وروح الفرس، ولو نشأ أبو نواس في بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه الشهرة الأدبية : لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر في صنع الخمر، ولم يكن أهلها يوماً من كبار الشاربين، وإن زعموا أنها تفردت بشراب « المريوتيك » الذي أسكرت به كيلوباترة من أسكرت من عشاقها الابطال.

ولم يكن لمصر شأن يذكر في زراعة الأعناب، لأن جوّها لا يصلح كثيراً لصنوف العنب الجيد الذي يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الخمر، على نحو ما يتفق ذلك في بعض الأقطار الشرقية والغربية، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالاً طوالاً وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفاً رديئة يحتفظ بها جماعة من الأقباط توارثوها عن أجدادهم، فكانوا شرّ ورثة لأقبح ميراث !

ولا كذلك العراق، فقد عرف الخمر منذ عهد الآشوريين والكلدانين وظل يفتن في تقطيرها أظرف افتنان. وقصائد ابن الرومي في وصف العنب تدل على

أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس، لأنهم كانوا يتمثلون فيه ما يضمّر من أسرار الصهباء.

وحرمان مصر من جيد الخمر يشرح جانباً مهماً من حياتها العقلية، فقد نبغت مصر نبوغاً عظيماً في التأليف، وكانت هي القطر الإسلامي الوحيد الذي أنتج أعظم المؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع، وإنما كان الأمر كذلك لأن «الصحو» من أقوى الشواهد على سلامة العقل، أما الأقطار العربية التي عرفت الخمر، فكانت لها ميادين غير التأليف، كان لها الشعر والخيال، على نحو ما نرى في الأندلس، والشام، والعراق.

وهذا الحكم لا نريد به التعميم، فمن التعسف أن نقول إن الشعر انعدم في مصر، أو إن التأليف انعدم في غير مصر، لا، وإنما نحكم بأن الخصائص الأساسية تختلف هنا وهناك، فالمصريون يعيشون في بلد محافظ على التقاليد منذ خلق، فلم يكن فيهم فاجر، ولا زنديق، على نحو ما توثب الفجور واستطارت الزندقة في بلد مثل العراق.

والشاهد أمامي واضح صريح : هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز والخليع، وأبي نواس، ففي هذه القصائد أخيلة يجهلها المصريون.

وإليكم الحديث.

وصف أبو نواس الخمر فقال :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال :

بُدِّلْتُ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ^(١) وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

وعارضه ابن المعتز فقال :

أُمَكْنْتُ عَاذِلْتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئاً غَيْرَ إِغْرَاءِ

(١) الآء : ثمر شجر، واحده آءة. قال الفيروزابادي : وأوت الأديم دبغته به، والأصل : أوت فهو مؤء، والأصل مأووء.

والشاهد هنا هو المشكلة التي أثارها الهمزية النواسية، فأغلب الظن أن أبا نواس لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون، ولكنه خاطب أهل العراق فخاطب قوماً يعرفون من الخمر ما يعرفون.

كانت همزية أبي نواس من المشاكل العراقية، وكانت الموازنة بينها وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس، ومضى الحديث إلى مكة، مكة المكرمة التي شرعت للعالم بغض الصهباء، نعم في مكة وجدوا فقيها يفصل بين همزية ابن الضحاك، وهمزية أبي نواس.

انظروا في هذا، واسألوا أنفسكم : أيمن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف ؟

هيهات، هيهات !

وإنما جاز في مكة ما لم يجز في مصر، لأن مصر كما حدثتكم لا تعرف الخمر، وإن كان الخواجة خرامبو فتح فيها عشرات الحانات.

مصر فضولية في شرب الشمول، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله، فلا تقول : هات وهاك !

لا تحسبوني أمزح، فالمصري لا ينقع غلته غير الماء القراح، وقد ترونه في مجالس السلاف يصرخ فجأة في طلب كوب من الماء، والطبيعة الأصلية تميز خصائص الشعوب.

ما هذا ؟ أتصدقون أنني أهرب من الهمزيات الثلاث، لأني لا أجِد من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدباء العراق.

ولنواجه الموضوع فنقول :

همزية أبي نواس لا تزيد على عشرة أبيات، ولكنها تحدثنا عن أمور جوهرية في حياة العراق، تحدثنا أولاً عن قيمة الخمر في العلاج، وهي عادة عراقية، وجدت من قبل عند العرب في الجاهلية، فقد روي أن الأعشى قال :
وَكَاسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وكان الأعشى شاعراً فاجراً عرف الخمر والنساء. ومشت به شهواته إلى الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء.

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال :
دَع عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بني عامر فقال :
تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنَ الْهَوَى كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ
والتداوي بالخمير يراه أهل مصر من المشكلات، وله فتوى في العدد الأخير من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة « والله أعلم » كأن الله لم يهد خلقه إلى بعض أسرار الصهباء.

وتحدثنا الهمزية ثانياً عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد، وتلك العادة هي إلباس الجوّاري ملابس الغلمان، والظاهر أنّ الفتنة في عالم الجمال لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب، فكانت الجارية لا تملح إلا مذكرة، ولهذا النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرق والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفي جمعة في رواية (عائدة) التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السويس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جداً، واندفع يقبلها بعنف حتى أدمى خديها بالتقبيل. وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوربا يلبسن ملابس الفتيان، فإن لم يكن هذا بدعاً حديث العهد، فهو إذن بقية من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطغاهم الغنى والملك.

وهذا بيت أبي نواس :
مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍّ فِي زِيٍّ ذِي ذَكْرِ لَهَا مُجَبَّانِ لُوطِيٍّ وَزَنَاءُ
والدعارة واضحة في هذا البيت، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر، وناقل الفسق ليس بفاسق.

وتحدثنا الهمزية ثالثاً بأن فسقة بغداد كانت عندهم نزعة صوفية ترمي إلى الاعتماد على عفو الله، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوف من الذنوب :

لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال، والاعتداد بالأعمال ينافي أدب الأبرار، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال :
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالْدِّينِ إِزْرَاءُ
تلك هي الأمور التي أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية في بغداد، فلم يبق إلا النص على ما في قصيدته من المعاني الشعرية :

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت :
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
أما نحن فنستجيد قوله في الراح :

فَأُرْسِلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةٌ كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه الأبيات في غاية من الجودة، وللقارئ أن يتأمل هذه الشطرة :
« كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ »

فهي كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان.
وفي البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء، ورجعها إلى التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع خمر الفردوس.
أما قوله :

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكنهم الغنى والشباب من ناصية الزمان، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الراح من الجاهلين، ويقول :
فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

وهي سخرية لم يوجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف.

تلك همزية أبي نواس، فماذا قال الخليج الحسين بن الضحاك ؟
لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بألبان الإبل والشاء بين أشواك البادية،
فقال :

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
مَا بَيْنَ بَطْنِ ثَبِيرٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا إِلَى الْفَرَادِيسِ إِلَّا شَوْبُ أَقْدَاءِ
فَعَدَّ هَمَّكَ عَنْ حِلْفٍ تُمَارِسُهُ حِلْفٍ تَلْفَعُ طِمْرًا بَيْنَ أَحْنَاءِ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزعة شعوبية كان لها في ذلك العهد
بجال، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملون القدح في شمائل
الأعراب، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هي الفاتحة
والخاتمة لكل قصيد، وكذلك صح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة الحضارة
فيقول :

فَفِي غَدٍ لَكَ مِنْ زَهْرَاءَ صَافِيَةٍ بِطَيْرٍ نَابَازَ مَاءٍ لَيْسَ كَالْمَاءِ
مِمَّا تَخَيَّرَ أَوْلَاهَا وَأَوْدَعَهَا رَبُّ الْخَوَزَنَقِ فِي جَوْفَاءِ مَيْثَاءِ
رَاحَ الْفُرَاتُ عَلَيْهَا فِي جَدَاوِلِهِ وَبَاكَرَتْهَا سَحَابَاتُ بَانُوءِ

وقد أطلال الخليج في قصيدته اطالة ممّلة تملّنا نحن المصريين، ولكنها تتمتع أمثال
العراقيين. فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد، وسره أن تدفن في الأرض،
وأن تمر عليها أزمان وهي سر مكنون، فلننس ما لا نعرف من تلك العهود، ولننتقل
إلى عهدها الأخير بعد أن رأَت نور الوجود :

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَاصِفِهَا عَنْ مِثْلِ رَقْرَقَةٍ فِي جَفْنٍ مَرْهَاءِ^(١)
لَمْ يَبْقَ مِنْ شَخْصِهَا إِلَّا تَوْهُمُهُ فَالْشَّيْءُ مِنْهَا إِذَا اسْتَبْتَّ كَالْإِلَاءِ^(٢)
تُمَارِجُ الرُّوحَ فِي أَخْفَى مَدَاخِلِهِ كَمَا تَمَارِجُ أَنْوَارٍ بِأَضْوَاءِ
لَا يُدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا حِينَ تَبْعَثُهَا إِلَّا التَّنَسُّمُ أَوْ لَذْغًا بِأَحْشَاءِ
يَحْكِي تَطَوُّقَهَا بِالْكَأْسِ مِنْ ذَهَبٍ طَوْقًا أَطَافَتْ بِهِ وَآوَاتُ عَسْرَاءِ

(١) المرهاء، هي التي ابيضت حماليق عينها.

(٢) الإلاء هنا السراب.

ثُمَّ اسْتَحَالَ لَهَا دُرٌّ فَعَرَّشَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ لَهَا عَرْشٌ عَلَى الْمَاءِ
عَرْشٌ بِلَا طُنْبٍ مِنْ فَوْقِهِ زَبَدٌ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَةٍ فِي حُسْنٍ لَأَلَاءِ
لَا يَسْتَطِيعُ سَنَا نُورِ لَهَا نَظَرًا حَتَّى تَعُودَ لَهُ لَحْظَاتُ حَوْلَاءِ
كَأَنَّ تَأْلِيفَ مَا حَاكَ الْمِزَاجُ لَهَا سَلَخَ تَحْلُلُهُ عَنْ ظَهْرِ رَقَشَاءِ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهَا فِي تَصْرِفِهَا مِنْ كَفِّ مُخْتَلِجِ الْأَعْطَافِ وَضَاءِ

هذه الأبيات تخيرناها تخيراً، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها أشياء لا يفهمها أهل هذا الجيل.

ونحن لا نستسيغ اليوم وصف الخمر بأنها بدت « مثل رقرقة في جفن مرهء » ولا يسرنا أن يكون الحب ألف فوقها صورة تشبه ظهر الحية الرقشاء، ولكنها نستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح في أدنى مداخلة ممازجة الأنوار للأضواء، ولعل هذه الصورة هي أجمل ما في قصيدة الخليع.

ولا ننس النص على أن الخليع ختم قصيدته بغمز العرب فقال :
هَذَا النَّعِيمُ وَلَا عَيْشٌ تَكُونُ بِهِ هِنْدٌ بِرَأْيَةٍ مِنْ بَعْدِ أَسْمَاءِ^(١)
فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوبية.

بقي ابن المعتز، فماذا قال :

إن ابن المعتز جرى في همزته مجرى الفتك فانطلق يحدث عن صبواته حديث الغويّ المفتون، ويقول :

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ
أَيْنَ التَّوَرُّعُ مِنْ قَلْبِ يَهِيمٍ إِلَى حَانَاتِ قُطْرُبُلٍ بِالْعُودِ وَالنَّاءِ^(٢)

(١) أسماء : اسم امرأة أصلها « وسماء » من الوسامة وهي الحسن الثابت. قلبت الواو همزة فوزنها فعلاء.

(٢) الناء هو الناي.

وَصَوْتُ فَتَانَةٍ التَّعْرِيدِ نَاطِرَةٍ
جَرَّتْ ذُيُولَ الثِّيَابِ الْبَيْضِ حِينَ مَشَتْ
وَقَرَعَ نَاقُوسٌ دَيْرِيٌّ عَلَى شَرَفٍ
وَكَاسٍ حِيرِيَّةٍ شَكَّتْ بِمِيزْلِهَا
بِعَيْنٍ ظَبْيٍ يُرِيدُ النَّوْمَ حَوْرَاءِ
كَالشَّمْسِ مُسْبِلَةً أَذْيَالَ الْأَلَاءِ
مُسَبِّحٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ دَعَاءِ^(١)
أَحْشَاءِ مُشْعَرَةٍ بِالْقَارِ جَوْفَاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبي نواس، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم، ولكنه ورد في معرض طريف، أما البيت الرابع فهو تحفة لأنه جعل محبوبته في الثياب البيض كالشمس تسبل أذيال اللآلئ، وفي البيت الخامس حنين إلى النواقيس، ولكن أي حنين؟ أهو حنين الخاشعين؟ هيات، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صباية ومجالس سلاف.

ثم مضى يذكر أعمار الخمر فقال :

جَاءَتْ بِهَا حُفْلُ الْأَثْمَارِ يَانِعَةٌ
تَرْفُو الظُّلَالَ بِأَغْصَانٍ مُهْدَلَةٍ
أَجْرَى الْفُرَاتُ إِلَيْهَا مِنْ سَلْسِلِهِ
وَطَافَ يَكْلُؤُهَا مِنْ كُلِّ قَاطِفَةٍ
مُوَكَّلٌ بِالْمَسَاحِي فِي جَدَاوِلِهَا
فَآبَ فِي آبٍ يَجْنِيهَا لِعَاصِرِهَا
فَظَلَّ يَرْكُضُ فِيهَا كُلُّ ذِي أَشْرٍ
ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَلْفَحُهَا
حَتَّى إِذَا بَرَدَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ لَهَا
صَبَّ الْخَرِيفُ عَلَيْهَا مَاءَ غَادِيَةِ
بَطِيرِنَا بِأَذَاوِ كُوشَى وَسُورَاءِ^(٢)
سُودِ الْعَنَاقِيدِ فِي خَضِرَاءِ لَفَاءِ
نَهْرًا تَمْشِي عَلَى جَرْعَاءِ مِثَاءِ^(٣)
رَاعٍ بِعَيْنٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ نَسَاءِ
حَتَّى يَدُلَّ عَلَيْهَا حَيَّةُ الْمَاءِ^(٤)
كَأَنَّ كَفِّهِ قَدْ عُلتْ بِجَنَاءِ
قَاسٍ عَلَى كَبِدِ الْعُنُقُودِ وَطَاءِ
فِي بَطْنٍ مَخْتُومَةٍ بِالطِّينِ كَلْفَاءِ
وَبَلَّهَا سَحَرٌ مِنْهُ بِأَنْدَاءِ
أَقَامَهَا فَوْقَ طِينٍ بَعْدَ رَمْضَاءِ

(١) دعاء : كثير الدعاء.

(٢) كل هذه أسماء أماكن.

(٣) الجرعاء : الرملة الطيبة المنبت. والميثاء اللينة.

(٤) المساحي : الأراضي المهيأة للزرع.

تِلْكَ الَّتِي إِنْ تُصَادِفَ قَلْبَ ذِي حَزَنِ تُجْزِلُ عَطِيَّتُهُ مِنْ كُلِّ سَرَاءِ
يَسْقِيكَهَا خَيْثُ الْأَلْحَاطِ ذُو هَيْفٍ كَانَ أَجْفَانُهُ أَفْرَقْنَ مِنْ دَاءِ

وجملة القول ان هؤلاء الشعراء ركضوا في ميدان واحد فوصفوا الخمر
والسقاة وصفاً يختلف بعض الاختلاف، وكان أقصرهم نفساً أبو نواس، ولكنه
كان أعرفهم بأسرار الصهباء.

والقصيدة الوحشية هي قصيدة الخليع فقد أكثر فيها من العمل والافتعال،
فظلت سجينة لا يعرفها من الناس غير أهل العراق، وقد وقع ابن المعتز
في بعض ما وقع فيه الخليع، فأخذ يورخ الخمر يوم كان لها تاريخ، فأصبحت
قصيدته غريبة في زمن تكتهل فيه الصهباء وهي بنت يوم واحد لأن أهل
هذا الزمن عرفوا من العناصر، ما لم يعرف الأقدمون واستطاع آثمهم أن يكوي
الصهباء فيردها ناراً تأكل الهشيم من أحلام الرجال.

أما أبو نواس فقد وقف عند المعاني الفطرية التي يعرفها الناس في جميع
البلاد، وكذلك ظلت قصيدته موصولة الأواصر بأرباب الأذواق. وأجود الشعر
ما استطاع مداعبة القلوب في كل أرض وفي كل جيل.

البحث الثامن والثلاثون

أقطاب الموازين

— ١ —

رأى القارىء طائفة من الآراء في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهي آراء ذاتية لمؤلف هذا الكتاب.

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلاً نبين به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء، وأظهر أولئك الباحثين رجلاً : أحدهما من رجال القرن الرابع، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر.

أما الأول فهو أبو الحسن الآمدي صاحب كتاب « الموازنة بين الطائيين : أبي تمام والبحتري » وهو باحث عظيم فصلت الكلام عليه تفصيلاً في الجزء الثاني من كتاب « النثر الفني »^(١) فليرجع إليه القارىء إن شاء، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك.

وأما الثاني فهو أستاذي، وصاحب الفضل عليّ : المغفور له الشيخ محمد المهدي بك، وكان أديباً نادر المثال، ولكن لم ينشر له شيء، وقد فصلت آراءه

(١) انظر الصفحات ٨٢ — ٩٣.

الأدبية في الجزء الأول من كتاب « البدائع »^(١) ولكن بقي مجالاً للقول في ذلك الباحث الجليل، فإني لم أكتب عنه في « البدائع » إلا الصور الرائعة من أسلوبه في الدرس، ومذهبه في الحياة الاجتماعية، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء، وأستطيع أن أنشر إحدى موازناته في هذا الكتاب، لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبداً، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكره ما يجب من الوفاء كان الشيخ المهدي يوازن في دروسه بين الكتاب والخطباء والشعراء، وكان يوازن بين العصور الأدبية.

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جداً وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى^(٢) وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله في الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، وهو يقول : « الموازنة بينهما من جهات » :

الجهة الأولى : الموضوع، ونرى أن موضوع قس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت، وتوجيه الناس إلى توحيد الله، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصيح قومه في مسائل الدنيا، ونصح ذريته، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة.

الجهة الثانية : العبارة، والفرق فيما بينهما ظاهراً، فإن عبارة قس عبارة البديهة، وإن كانت مسجوعة، فهي العبارة الصالحة للدهماء، وهي بمقام الخطبة أليق : لسهولة، ووضوح معناها، وأخذ بعضها بحجز بعض في طريق المقصد الذي يريده، وهي تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم.

وأما عبارة أكثم فهي عبارة منتقاة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم، فهي مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظير؛ فهي أشبه بكلام الحكماء، ولا غرو فقد كان أكثم حكيماً محكماً عالماً بالأنساب، وقد أثر عنه ما قال في آخر حياته وهو خلاصة تجاربه، فعبارته في نظر عشاق المعاني والبلاغة والإيجاز

(١) انظر الطبعة الثانية ج ١ ص ١ — ١٨.

(٢) عندي صورة من هذه الموازنة.

أعلى ، وعبارة قس في نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ. وإن شئت قلت :
عبارة قس أخطب، وعبارة أكرم أحكم.

الجهة الثالثة : المعاني — والفرق بينهما جليّ أيضاً، فإن معاني قس عامة قليلة،
نظرية، ليس فيها توليد، ولا كذلك معاني أكرم : فإنك تجدها كثيرة مفصلة في
ضروب عدة، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف، وهذا شأن الخطباء : إذا أرادوا
تثبيت ما يدعون إليه.

الجهة الرابعة : حال الخطيبين — فإن قسا كان يخطب للعرب كافة وهو راكب
جمله، ويشير بيده وبالخصرة، ويفصل الكلام بـ (أما بعد) ويتقلب في البلاد
لهذا، حتى طار ذكره، واشتهر في الخافقين قدره؛ وكان من أمره أن ذكره النبي
ﷺ، وقرظه.

وأما الثاني فقد كان يخطب قومه، ويتحرى العقلاء منهم، ويقول « لا تحضروني
سفيهاً » ولم يؤثر عنه ما أثر عن قس في موقفه ولباسه، واستعداده — فيما أعلم
— من هذه الجهة أعرق في الخطابة.

الجهة الخامسة : أن قساً كان يقول الأشعار من روح خطبته سهلة متقبلة
لثحفظ إذا لم يحفظ الكلام، وكان أكرم يستعين بالأمثال لجمالها وقصرها، وبالرائع
من الحكمة كذلك، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدهماء، وهو أليق
بمقام الخطابة، وأن الأمثال الحكيمة التي تحتاج إلى روية في فهمها إنما هي للخاصة،
وهي لا تفيد إلا في الخطب الخاصة، وعلى هذا يكون قسّ أخطب، وأكرم أحكم،
وكذلك لم تكن هنالك غرابة في شهرة قس بالخطابة، مع أن كلام أكرم فيها أبلغ
في نظر الحكماء، ومن يتعشقون الجزل الموجز الدقيق المعنى، الرصين المبني.

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك ولكنه
لم يجد من الشواهد ما يروي الغلة، فاكتفى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن
سجية، وأن الثاني كان يتفنن ويدقق ويحكم، وكذلك كان لكل منهما منزع
وطريق.

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهي كثيرة جداً، وليس تحت يدي الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر في زمن البعثة، والخلافة الراشدة. قال :

إذ أردنا أن نتعرف حال الشعر في صدر الإسلام وجب علينا أن نلمع ما كان له من المكانة قبل ذلك، ثم نكشف عن مكانته الثانية، لتجلى صورتاه في المكانتين، ويعرف شأنه في الزمانين، فنقول :

كان الشعر في الجاهلية يسير مع السيف في الدفاع عن الأعراض والأحساب والذود عن البَيضة، فكما يغير الفارس برمحه وحسامه، يُغير الشاعر بقافيته وإنشاده، فإذا فت السيف في الأعضاء، فتّ الشعر في القلوب، وإذا أصاب النبال بنبله الجسوم، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيل الأعداء، وتحميس الأولياء، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه ماثلاً فيها لم يتزحزح عنها.

فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : نبيك يا رسول الله وسعديك. قال أخذ فجعل يُنشد ويُصغي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده، فقال عليه الصلاة والسلام : لهذا أشدّ عليهم من وقع النبل.

وقد كان حسان ينافح عنه، ويشجع قومه، ويخذل عدوه.
وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبي ﷺ منبراً في مسجده ينشد عليه الشعر.

وكذلك القول في عبد الله بن رَوَاحَةَ الذي شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها إلا الفتح، ومات في غزوة مؤتة، فقد كان النبي ﷺ يرتجز ببعض رجزه في تلك الغزوة، وهو قوله حينما أصيبت إصبه :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتِي هَذِي جِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ

وَمَا تَمَنَّيْتُ فَقَدْ لَقِيتُ إِنَّ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدَيْتُ^(١)

وكذلك الشأن في كعب بن مالك الأنصاري الذي كان يعارض ابن الزُّبَيْرِ
من شعراء المشركين، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين، ومنه قوله في قصيد طويل
ذكره ابن هشام في سيرته في يوم الخندق :

وَمَوَاعِظُ مَنْ رَبَّنَا نَهْدِي بِهَا بِلِسَانٍ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حَكْمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا أُولُو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تَغَالِبَ رَبَّهَا وَلِيُغْلِبَنَّ مُعَالِبُ الْغُلَابِ

مراده بسخينة قريش، لأنها كانت تأكلها، وهي حساء من دقيق، والأمثلة من
هذا النوع مستفيضة.

فإذا نظرنا إليه من ناحية أنه كان يجاز عليه في الجاهلية وجدناه في صدر الإسلام
كذلك بيد أن كثيراً من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الله، وكثر في كلامهم
ذكر الجنة وما أعد الله لعباده من النعيم المقيم، فأما الجوائز في الإسلام فقد بدأ
بها رسول الله ﷺ، فإنه أعطى كعب بن زهير بردته حينما جاءه تائباً بعد أن
هجاه وأنشد بين يديه في مسجده قصيدته التي مطلعها :

بَانَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مَتَيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء في سعاد على عادة الشعر الجاهلي يذكر حيرته
من ذنبه وانصراف الأخلاء عنه وتأمله العفو :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ لَا إِلَهِيَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالُكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ
أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أُعْطَاكَ نَافِلَةً أَلَا قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذِيبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

(١) يريد صاحبيه اللذين استشهدا قبله، وهما : زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب.

وكذلك حبا قرة بن هبيرة وكساه بُردَيْن وحمله على فرس بعد أن أسلم وهو من الشعراء، فقال يذكر ذلك في قصيد طويل ويمدحه :

حَبَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ إِذْ نَزَلَتْ بِهِ وَأَمْكَنَهَا مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مُفْنَدٍ
فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَكْسَى لُبْرَدِ الْحَالِ قَبْلَ آتِنَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِحِ الْمُتَجَرِّدِ^(١)

فإن قال قائل إن هذا العطاء للتألف لا للشعر، قلنا له : ومن التألف أن يعطي الشاعر وهو ما نريد في مقالنا هذا.

وإن نظرنا إليه في الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن المنثور، ويبالغون في إعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن، وإن كثيراً منه في نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه فيه من هز أنفسهم إلى الكرم، والدلالة على محاسن الشيم، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر في أسلوب ساحر، إلى غير ذلك، فإننا نجده في الإسلام لم ينزل كثيراً عن هذه المنزلة، ولم يغض منه أن النبي ﷺ ما علم الشعر وما ينبغي له إلا بمقدار ما تقضي أميته من الكتابة، فكما لا يقول قائل بفضيلة الأمية للناس لأن الرسول كان أمياً لا يقول قائل بفضيلة الجهالة في الشعر لأن الرسول لم يعلمه، ولهذا أكثر الحزب على تعلمه واستماعه وروايته على شريطة أن يكون في الحث على فضيلة، أو ذم رذيلة، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يقول له :

« مُرْ مَنْ قَبْلَكَ يَتَعَلَّمُ الشَّعْرَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ ».

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر، وكان مما ترويه جميع شعر لبید.

وقد روى الحسن بن رشيق القيرواني أن أعرابيا وقف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، فقال إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن

(١) هو الحصان.

أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال عليّ : خطّ حاجتك في الأرض، فإني أرى النصر عليك. فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير، فقال عليّ : يا قنبر، ادفع له حلتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلًا
إِنَّ الثَّنَاءَ لِيُحْيِي ذَكَرَ صَاحِبِهِ كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
لَا تَزْهَدِ الدَّهْرَ فِي عُرْفٍ بَدَأَتْ بِهِ فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَا

فقال عليّ : يا قنبر أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلا أدبك.

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره لما وجدته في شعره من شكر النعمة، وتمحيض النصيحة، والترغيب في الآجل.

هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوي الكريم.

ولي من بني عبد المطلب رجلاً ونساء من لم يقل الشعر حاشا رسول الله، وناهيك بالعباس فقد كان شاعراً مجيداً وله شعر ماثور معدود في الطبقة العالية، من ذلك قوله يوم حنين :

أَلَا هَلْ أَتَى عِرْسِي مَكْرِي وَمَوْقِفِي بِوَادِي حُنَيْنٍ وَالْأَسِنَّةُ تُشْرِعُ
وَقَوْلِي إِذَا مَا النَّفْسُ جَاشَتْ لَهَا قَدَى وَهَامَ تَذْهَدَى وَالسَّوَاعِدُ تُقَطِّعُ
وَكَيْفَ رَدَدْتَ الْخَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ بِزُورَاءَ تُعْطِي بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَعُ^(١)

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجملة من الصحابة والتابعين.

وكانوا يتغنون به ولهم في ذلك أخبار طويلة، فمن ذلك ما رواه السائب بن يزيد : بينا نحن مع عبد الرحمن بن عوف في طريق إذ قال لرباح بن المغترف غننا، فقال له عمر بن الخطاب : فإن كنت آخذاً فعليك بشعر ضرار بن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة فارس مغوار، وشاعر مفلح مقدم على ابن

(١) لعلها تعطي السهام، وتمنع العدو.

الزبعرى فهو أشعر قريش) ومن شعره :

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيْدٌ
حِينَ ضَاقتْ عَلَيْهِمْ سَعَةُ الْأَرْضِ
وَأَلْتَقَتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ^(١) عَلَى الْقُوَى
إِنْ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظُّهُ
فَانْهِنِيهِ فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأَسْـ
إِنَّهُ مُطَرِّقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأُمـ

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله ﷺ على قومه وأراد بسعد سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده. فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع به في حقن الدماء، فقد كان الأمر في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية كما رأيت في هذا الحديث. وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو في الإسلام أشد أثراً منه في الجاهلية لما داخله من المعطفات الدينية.

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعي وفد على رسول الله ﷺ وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم بنو كعب فقتلوا فيهم، وأخذوا أموالهم فاستنجد بالنبي ﷺ وأنشده بين يديه :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا
نَحْنُ وَلَدْنَاهُمْ فَكَانُوا وَلَدًا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا
وَنَصَبُوا لِي فِيكَ دَاءً رَصَدَا
وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجَّجَدَا
حَلَفَ أَيْنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْلَدَا^(٤)
ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْرَعْ يَدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَيَتَّبِعُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّجَدَا
وَزَعَمُوا أَنَّ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا

(١) البطان : حزام يجعل تحت بطن البعير وهو مثل في بلوغ الأمر شدته.

(٢) أي الداهية الشديدة.

(٣) أي التي لا تقبل الرقية.

(٤) الأتلد : صفة للحلف، ومعناه القديم.

وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدًا فَأَنْصُرُ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَبَدًا
وَأَدْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
إِنْ سِمْ خَسْفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا^(١) فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا

فدمعت عينا رسول الله ﷺ، وخرج بمن معه لنصرهم. فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلم الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر، فإن الإسلام أثر في الشعر من هذه الجهة أثراً صالحاً، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون الهجائين عقاباً صارماً حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله، ويظاهرون أعداءهم عليهم، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالخطيئة حتى كثرت أشعاره في الاسترحام والتوبة، وكان من استرحامه قوله :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِدِي مَرَّخٍ زُغِبِ الْحَوَاصِلِ لَامَاءٌ وَلَا شَجَرُ
الْقَيْتِ كَأَسْبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
ولهذا كان الشعر في صدر الإسلام أنزه منه قبله، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة.

فأما النظر من حيث جودة السبك، وغزارة المعنى، وتشخيصه، فهو في صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت في مجموع ما ورد في العصرين، لأن العصر الثاني غزر مغناه بالكتاب والسنة، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصوصاً منهم الشعراء العشاق، وشعراء الحكم والأمثال. فأما من جهة المتانة، وصفاء العربية، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين.

وأما من حيث الموضوعات فهي في الإسلام أوسع منها في الجاهلية خصوصاً الموضوعات الدينية. هذا، ولا يفوتنا أن نبين أن ناساً تنسكوا وزهدوا في الشعر، وزهدوا فيه الناس، أخذوا بظاهر ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وبما

(١) تربد : تغير.

ورد من الأخبار في ذم الشعر، ولم يفتنوا إلى أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح، وكإثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يؤدي لا بنثر ولا بنظم، وقد تغالى بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر في رمضان تنقض الوضوء فكان ابن عباس وابن سيرين ينهايان الناس عن ذلك، وقد قيل لسعيد ابن المسيب إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت في عصر بني أمية.

وملخص الفوارق :

أن الجائزة عليه في الإسلام دونها في الجاهلية.
أن درجته في الإسلام دون درجته في الجاهلية لأن الكتاب زاحمه.
أنه في الإسلام أنزه منه في الجاهلية.
أنه في الإسلام أعلى من جهة غزارة المادة، وتشخيص المعنى.
أنه في الإسلام أوسع موضوعاً.
أنه في الإسلام دون الجاهلية في المتانة.
أنه في الإسلام دون الجاهلية في صفاء العربية.
أن الرغبة فيه في صدر الإسلام دونها في الجاهلية.
فأما من جهة النجدة به فهو في الإسلام أظهر.

وهذه الفروق كلها متقاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الاطلاع المتذوق
لكلام العرب.

هذا وقد لا حظت أن أكثر تلاميذ الشيخ المهدي أولعوا بالموازنات الشعرية فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثاً في الموازنة بين أبي تمام وشوقي، وهي نزعة وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم. والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدي، ومن الذين يستظهرون أكثر نواذره الأدبية، وقد حضرته منذ أشهر وهو يلقي محاضرة في جمعية الاقتصاد السياسي فرأيت إشارات ونبراته صورة جديدة من الشيخ المهدي، وإن لم يفتن لذلك. والأستاذ العظيم هو الذي يطبع تلاميذه بطابعه فيكونون خلفاءه في عالم الفكر والبيان.

الفهرس

٥	مقدمة
٧	البحث الأول: أهواء النقاد
١٥	البحث الثاني: عود إلى أهواء النقاد
٢٢	البحث الثالث: أنفس الشعراء
٣٠	البحث الرابع: شعراء الأحزاب
٣٧	البحث الخامس: نفسية الناقد
٤٥	البحث السادس: الحاسة الفنية
٥٦	البحث السابع: خطر الإبهام والغموض
٦٣	البحث الثامن: الصور الشعرية
٦٨	البحث التاسع: أهمية الصور الشعرية
٧٧	البحث العاشر: اختلاف الصور الشعرية
٨٣	البحث الحادي عشر: الصور الشعرية في القرآن
٩٣	البحث الثاني عشر: المعاني والأغراض
١٠٢	البحث الثالث عشر: الحصري وشوقي
١١٣	البحث الرابع عشر: البحتري وشوقي
١٢٥	البحث الخامس عشر: بكاء الممالك عند البحتري وشوقي
١٣٢	البحث السادس عشر: حنين شوقي إلى مصر
١٤٢	البحث السابع عشر: بين البحتري وشوقي

١٤٩	البحث الثامن عشر: الفصل بين البحري وشوقي
١٥٧	البحث التاسع عشر: البوصيري وشوقي
١٦٦	البحث العشرون: بين البوصيري وشوقي والبارودي
١٧٧	البحث الحادي والعشرون: أسلوب البارودي
١٨٥	البحث الثاني والعشرون: التخلص والاقتضاب
١٩٤	البحث الثالث والعشرون: المعجزات
٢٠١	البحث الرابع والعشرون: وصف القرآن
٢١٢	البحث الخامس والعشرون: أبو نواس وابن دراج
٢٢١	البحث السادس والعشرون: نفحة من الأدب الأندلسي
٢٢٣	البحث السابع والعشرون: حياة ابن دراج
٢٤٣	البحث الثامن والعشرون: بين صبري ومطران
٢٥٢	البحث التاسع والعشرون: الموازنة بين النونيتين
٢٦٥	البحث الثلاثون: بين البارودي وأبي نواس
٢٧١	البحث الحادي والثلاثون: بين البارودي وأبي فراس
٢٨٠	البحث الثاني والثلاثون: الموازنة بين الرائيين
٢٩٣	البحث الثالث والثلاثون: بين أبي نواس وعبد الباقي ابراهيم
٣٠١	البحث الرابع والثلاثون: بين شوقي وابن زيدون
٣٠٩	البحث الخامس والثلاثون: الموازنة بين القصيدتين
٣٢٥	البحث السادس والثلاثون: موازنة أبي نواس
٣٣٢	البحث السابع والثلاثون: بين أبي نواس وابن المعتز والخليع
٣٤١	البحث الثامن والثلاثون: أقطاب الموازين



ولد الدكتور زكي مبارك في الخامس من اغسطس سنة ١٨٩١. وقال : « ولدتني أمي في الخامس من أغسطس، فأضيف الى الوجود خيرٌ جديد وشرٌ جديد ».

ورحل زكي مبارك الى عالم البقاء في الثالث والعشرين من يناير ١٩٥٢.

وللدكتور زكي مبارك مئات المقالات لم تجمع حتى الآن من الصحف والمجلات.

وللدكتور زكي مبارك الاديب والناقد عشرات الكتب في الادب والنقد والفلسفة منها على سبيل المثال : « النثر الفني في القرن الرابع الهجري، التصوف الاسلامي، الاخلاق عند الغزالي، ليلى المريضة في العراق، عبقرية الشريف الرضي، اللغة والدين والتقاليد والمدائح النبوية ».

وللشاعر زكي مبارك عدة دواوين منها : ديوان زكي مبارك، الحان الخلود، اطياب الخيال احلام الحب وقصائد في التاريخ ».